فريق
متميزون
E-BOOK
رواية
بنات
الرماد
عفاف سعيد
دار البشير

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

بنات الرماد

(رواية)

عفاف سعيد

عن الكتاب..

- لو أنّك رسمتَ بتلك الريشة عصفورًا على قلبي الميّت فيُغرّد, أو شجرةً فتُثمر, أو ياسمينةً فيفوحُ عطرُها في أرجاءِ روحي؛ لكنتَ اليوم سيدَ فؤادي.
= أنت بالنسبة لي لستِ مجرّد امرأة, أنتِ وطن.
- وهل يفرّ الأبناء البَررة من الأوطان المُغتصَبة؟ هل يسكنونَ أرضًا أخرى ويحسبونَها أوطانًا؟ أم يعيدون له بكارتَها, ويقيمون تضاريسها, هنا بحْر, وهناك جدولُ ماء, في تلك البقعةِ تلّ, وفوقَ التلّ بيت, وحوله السّهول الخضراء.

ألا تغفرينَ ضعفي!

- ومَن أكون لأغفرَ أو أعاقب, أنا ضعيفةٌ مثلك, ولقاءُ الضّعاف سيثيرُ شهيّة الذئاب, وأنا لنْ أحتمل أن أكونَ فريسة مرّة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء..

إلى أعظمِ مقْصلة تاريخيّةٍ
تجتزّ الرؤوسَ بغير دماء،
إلى أفواه وقلوبِ مَن ينتمون
إلى الجنْس البشري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضرْبةٌ مُفاجئة

بدأت أشعةُ الشّمس تتشابك كخيوطِ عنكبوت حولَ سواد الليل فتمتصّه بخفّة وهدوءٍ دون أنْ يلحظها أحد، فتكشفُ عرابدة سترَهم ظلامُه الطويل تحت جناحيْه الممتدّين، لكنّه ما لبث أنْ رفرفَ وابتعد ليُبدي ما ووري من سوءاتهم.

خرجَ حسني من بيته الصّغير بمنطقة إمبابة، يتلفّت يمينًا ويسارًا حَذِرًا من سَيْر أحد بلطجيّة المنطقة في إثْره، فهو أحدُ ضعافها؛ لا مال له ولا عزوة ولا حتّى ولد، كما أنّه لم يحظَ ببسطةِ الجسم، ومثله يطمعُ في قليله الكثير، على الطّريق زاحمَ لحومًا لم يلحظْ ملامحها أملًا في الفوز بمقعد في الحافلة، أمنية لم تتحقّق ككلّ أمانيه! فظلّ واقفًا تتخبّط رأسُه، ويتمايل جسدُه كفرعٍ ضعيف، يرفعُه مطبّ ويُخفضه أسفلت، كرحلته الشاقة مع أيّامه منذُ صباه. انتهتْ به أقدامه أخيرًا أمامَ شقةٍ بالطابق الثاني من عقار قديمٍ بشارع المحطّة بالجيزة، الجرسُ مُعطَل فلم يفدْ طرق حسني الشديد على بابٍ خشبيّ بنى أفقدَه الزمنُ رونقَه في استجابةِ صاحب البيت للرد، انتظرَ هبوطًا أو صعود أحدِ الجيران ليسأله عن صاحب الشقة، إلّا أن البيت كان هادئًا حدَّ الموت كأنّه استأجره لحسابِه، رهبة خفيّة تلفّ المكان اقتلعتْ قلبَ حسني، رائحةٌ خبيثة تنتشرُ بين أرجائه، وتحتَ ضغط الحاجة الماديّة الشّديدة والطريقِ الطويل الذي سلكَه في تلك الموجة الحارة المُفاجئة التي ضربتِ البلاد في شهرِ أبريل، اضطرّ حسني أن يدقّ باب الشقة المقابل، انتظرَ قليلًا حتّى فتحَ له صاحبُ البيت الذي يبدو أنّه خرج لتوّه من نومٍ ثقيل، يرتدي فانلةً داخلية بيضاء تبرزُ كثافةَ شعْر صدره ويديه على بنطالٍ قطنيّ أسود تخطّى ركبتيْه قليلًا، ظلّ دقيقة يفرك عينيه الغائرتيْن في وجْهٍ كساه العرقُ ليمحو اعتقالَ نوم لا يريد إفلاتَهما، استحى حسني من مظهرِه وخجِلَ أكثرَ من إيقاظه، لكنْ ماذا عساه أن يفعل! اليوم هو الموعدُ الأسبوعي الذي يأتي فيه مِن إمبابة لتنظيف شقّة الأستاذ رضا، لم يتخلّفْ عنه أحدُهما قطّ، فما الذي يمكن أن يكونَ قد حدث! ثمّ ما سرُّ تلك الرائحة التي تنبعثُ من الشقّة، وتلفحُ المكان بشررٍ جهنمي؟

- صباحُ الخير يا سيّدي، آسفٌ لإزعاجك.

نظرَ له الرجل نظرةً مُفترسة، فما الذي سيفيدُه الاعتذار وقد ضجّ مضجعه بعدَ أن تذلّل للنوم حتّى أناخَ رَحْله على جفْنيه، ليجيء هذا البغيضُ فيجعله يرفعُه وينصرف، وقطعًا لن يعودَ بسهولة في ظلّ العُطل الذي أصاب مروحةَ غرفته السّقفية، فخرجتْ كلماته كزئيرٍ مُخيف وهو يمسح وجهه ويتثاءبُ بشدّة:

- لقد أزعجتني بالفعل، ماذا تريد؟

تلجلجتِ الكلماتُ بين شفتي حسني وهو يشيرُ إلى الباب المغلَق بسبّابته:

- أنا أنظّف شقة الأستاذ رضا، جارك، كلّ أسبوع. هذا موعدي الذي لا يُخطئه أحدُنا طيلة سنوات، طرقتُ الباب مِرارًا بلا مُجيب، كرّرته دون أدْنى فائدة، هل تعرف عنه شيئًا؟

انتبهَ الرجل لوجْه حسني القلق، فرفعَ حاجبيه وقد رحلَ النومُ وأثره، حكّ شعرَ صدره بأناملِه الغليظة، ثمّ قال وكأنّه تذكّر شيئًا:

- نعم أعرفُك شبهًا، وبالفعل أنا لم ألمحْه منذُ أكثر من يومين! وبالأمس لم أرَه في صلاةِ الجمعة، هل جرّبت أن تهاتفه؟

أجابَ حسني بخجلِ الفقراء:

- هاتفي يخْلو من رصيد.

خرجَ الرجل من باب شقّته تزوغ مُقلتاه بين جفونهما، وتترنّح رأسه كفأر حذرٍ خرجَ من جحره، خشيةَ أن يراه أحدُ جيرانه بملابسه الداخلية، وما أن كادَ يقترب مِن الباب حتّى عادَ برأسه للوراء، وسدّ أنفه بأصبعيه متأفّفًا:

- ما تلك الرائحةُ النّتنة؟ شعرت بشيءٍ منها بالأمس، لكنّها ازدادت اليوم بشكلٍ مُقرف، ظننتُه حيوانًا ميتًا تعفّن في منور البيت وسرعان ما تزول!

هزّ حسني رأسه بأسف:

- تلك الرائحة هي ما أثارتْ ريبتي، وجعلتني أدقّ بابك.

تبدّل اشمئزازُ الجار من الرائحة محلّ غضبه من حسني وهو يقول:

- سنطرقُ الباب، وإن لم يُفتَح سنكسِره، علّه مريض أو مغشيّ عليه.

اعترضَ حسني بصوت متقطع:

- رأيي يا سيدي أنْ نبلغ الشرطة وهي مَن تكسر الباب، فلا أحد يدري ما خلفَه، وتلك الرائحة ليست نذيرَ خير.

نبرةُ حسني تحمل ريبةً وخوفًا، فألقى ببذورهما في قلبِ الجار، هزّ رأسه مُتضامنًا وهو يؤكّد بسبّابته:

- حقًّا، لا أحد يدري ما خلف ذلك الباب.

بعدَ ساعة من الانتظار المملّ جاءت سيارةُ الشرطة يرتفع صوت آلة تنبيهها، اتّصل بهم الجارُ بعد يأسه من استجابةِ الأستاذ رضا للطرق الشديد حتّى كاد البابُ ينخلع تحتَ كفّيه، كانوا أربعة، بقى أحدُهم أمام البيت ليدفع العيونَ

المتلصّصة والأجسادَ الفضولية المُلتصقة التي جمعتها سرينة السيارة، بينما صعدَ الثلاثة الباقين سلالمَ البيت- التي تآكلت حتّى أوشكت حدّ الانهيار- مُسرعين، لم ينتظروا طرقًا أو كلامًا، أمرَهُم الأعلى رتبةً والذي يحمل كتفُه ثلاثَ نجوم بكسْرِ الباب، لم يأخذْ منهم وقتًا أو جهدًا إلّا وتباعدَ عن حلقِه، لتستقبلهم رائحةٌ تنذرُ الأنوف بقبرٍ يوشك أن يلقي ما في جوْفه. دخلَ الضابط يعقبُه الشرطيّان على حذر، بينما تبعَهم بهدوءٍ حسني والجارُ واثنان آخران من الجيران، نزلوا على أثر الطّرق والضوضاء، كان المكانُ شبهَ مُعتم بالرّغم من النهار، يُخيّم عليه كآبة ورهبة شيطانية مَمْزوجة بخوفٍ يعتقل الأرواحَ ويقبض الصدور، أبواب الغرف موصدة كالنّوافذ والأفئدة المترقّبة تهوي بين الأقدام، كلّ شيء في المكان مغلق إلّا المُقل في محاولةٍ فضوليّة لاختراق الظلام. اقترب الضابط من مفتاح النور وأضاءَه، انتفضَ حسني عائدًا للوراء فاصطدمَ بجسد الجار الذي أفزعته حركتُه، ونظر في اتّجاه ما ينظر.

كان رضا مُلقًى على بطنه كضفدعِ تشريحٍ على طاولة طالب بكلية الطب في وسطِ الصّالة، يسبحُ في بركة دماء لم يسمحْ لها الحرّ بالتجمد عن آخرها، فبقيَ منتصفُها لزجًا، ذراعاه مفْرودتان على جانبي جسدِه، مرتديًا «روبًا» لا يعرفُ الناظر هل كان لونُه أحمر قانٍ، أم أنّ دماءه هي من لوّنته، آه.. لو يرى كلّ منّا جسدَه بعد نزع الروح لعرفَ أنّه لا يساوي بعوضةً أو ذبابة، وأنّ جبروته تقلّص حتّى أصبح كتلة لحمٍ عفنة، كانت تتناثرُ حول جسدِ رضا خمسةٌ من مقاعد الطاولة الخشبية، خرّت ساقطة معه، بينما بقي واحدٌ شامخًا في ثباتٍ مشيرًا إلى أنّه الشاهد الوحيد على ما حدث، متوّجًا منضدة وضعَ عليها أطباق طعام يبدو أنّه كان فاخرًا قبل تعفّنه، يتوسّطها مزهرية حملتْ أشباحَ ورودٍ جافّة أطاحت بأوراقها حول الأطباق، وداخلها، من شدّة ذبول، وشمعدان نحاسيّ كان يحمل شمعتين ذابتَا بالكامل قبلَ أن تنطفئا، انتابَ الذهول عيني حسني والجيران وصعقتْهُم الصدمة، فمنهم مَن تلصّصت عيناه، ومنهم مَن هرول بالخروج، ومنهم مَن وقف ليتقيأ جانبًا، أمر الضابطُ الشرطيّين بإخلاء المكان وعدم لمْس أيّ شيء والتحفّظ على حسني والجار.

مضتِ السّاعات التي كانت تعْدو من قبْل كالفهدِ كبُطء السلحفاة، حسني والجار يجلسان القرفصاءَ في الممرّ بين الشقتين، حتّى مجرد استئذان الجار ليدخلَ شقته فيرتدي ملابسَه أو يأتي لهم بأكوابِ شاي وماء؛ رُفض رفضًا قاطعًا، تمنّى الرجل- مِن فرط غيظ- أنْ يمزّق حسني بأسنانه على ذلك المأزق الذي لا يعرفُ له نهاية، ما هذا الصّباح الذي هاج وثار وألقى بذلك التّعيس على بابه، ما له هو ورضا ومصائبه، ألم تكفِه جيرته التي لطالمَا أفقدته أعصابَه، وأثارت مخاوفَه على فتياته، وأدارت حول البيت الشّبهات! لكنّه ما توقع أبدًا له مثلَ تلك النهاية، حوادث القتل بالنسبة له لم تتعدّ أكثرَ من عنوانٍ في الجرائد، تلك هي المرّة الأولى التي يواجهها وجهًا لوجْه،

الاضطرابُ يغتال عقله، هل يمكن أن يتلطّخ به حيًّا وميتًا؟ لكنه عاد محدّثًا نفسه..

- حمدًا لله أنّي لم أتحامق وأكسر البابَ لأجدَ رضا مقتولًا خلفه، عندها فقط كنتُ سأتحمّل العاقبة التي يبدو أنّها لا تُبشّر بخير، لقد أصاب خادمه عندما منعني.

رمقَ حسني خلسة، ثمّ عادتْ أفكاره تناغشه..

- يبدو عليه الفقرُ والحاجة، لكنّ هذا التعيس لا يدري أنه قد يضيّع ثمنًا لخدمة ذلك الوغد الممدّد بالداخل يسبح في دمائه!

قطعَ حوارَه مع نفسه صعودُ رجلٍ مَهيب تجاوز الثلاثين ببضع سنين، أضفى عليه جسدُه المتناسق طولًا وعرضًا مهابةً فوق مهابته، يرتدي بدلة رمادية، تفوح منه رائحةٌ بهيّة، نظارته تكاد لا تتّضح على وجهه من فرط رقّتها، حذاؤه الأسود لامعٌ كأنّه اشتراه للتّو، يهرول خلفه مباشرة ثلاثة آخرون؛ اثنان يحملان صناديقَ مستطيلة، والأخير يبدو من هيئته أنه ضابطُ مباحث. كانت عيون حسني والجارِ تتابعهم بحذرٍ وتَرَقب لمصير مجهولٍ لا يعرفان إلى أيّ هاوية سيقذفهما، هبّ حسني بالنهوض فورَ أن أشارَ له ضابط الشّرطة بحركةِ استدعاء، اتّجه نحوه فأفسح له الشرطي طريقَ المرور ليجتاز بابَ الشقة ويقفَ أمام الرجل المَهيب الذي كان يجلس أمامَ جسد رضا على المقعد الشّاهد، تهمس له روحه..

- لوْ أنّ للجمادات ألسنةً لشهدت بالحقّ أكثرَ ممّا يفعل الأحياء!

تفحّص وكيلُ النيابة حسني بنظرةٍ سريعة حادّة، فلم يخفَ عليه رقّةُ حاله والخوف الذي يجتاحُه ويسري ارتعادة في جسده، ويداه تعصران بعضهما وهو يقصّ ما حدث، وعيناه لا تحيدُ عن جسد رضا الطافي فوقَ دمائه، لم يكنْ في كلامه ما يمكن تصديقُه أو تكذيبه في الوقت الحالي، فريق الأدلة الجنائيّة يقوم بالبحثِ والتنقيب عن كلّ شاردةٍ في موقع الجريمة مهما بلغت دقّتُها، ولن يتركَ وراءه ما يمكن أن يكون طرفَ خيطٍ ويهمله، عمار ياسر ليسَ أيّ وكيل نيابة؛ هم يعرفون هذا ويقدّرون له قدْرَه.

هزّ عمار رأسَه لحسني ولم يبد أيّ ردّةِ فعل، أمرَه بالعودة لمكانه وإرسال الجار، وبعدَ سرْده لبياناتِه الشخصية وجّه له أول أسئلته:

- ما الذي تعرفُه عن القتيل؟

ارتبكَ الجار، وابتلع ريقًا يبدو أنّه وقف في حلقه:

- لا أعرفُ الكثير، جيران منذُ زمن طويل لكنْ كلّ منّا في حاله.

قذفَه عمار بنظرةٍ مُستفسرة تبدو واجمةً، ضاقت فيها عيناه:

- جيران منذُ سنوات ولا تعرف!؟ أعتقد أنّه يمكنك التذكر في النيابة.

هزّ الرجلُ رأسَه بخوف وهو يقول:

- أقصدُ أنّه لا يوجد بيننا علاقة وطيدة.

أطالَ عمار النظرَ إليه ليرعبَ منه القلب، فيستخرج ما يريد:

- لماذا؟ هل هناك أسباب؟

تملّك عمار من خوفِ جارِ رضا فأسرع:

- نعم، كان شخصًا غريبَ السّلوك، تخطّى الأربعين وأعزب، كنت أخشى على أهلِ بيتي منه.

- هل كانت تزورُه نساء؟

تحوّل الرجلُ من الخوف إلى برّيمة بترول كلّما ضغطَ عمار ضخّت له ما يريد..

- نعم، على فتراتٍ مُتباعدة، لكن....

ثمّ خفّض صوته واقتربَ، بينما كان عمار يستعدّ لسماع مفاجأة:

- كان يجمعهنّ صغرُ السنّ والحجم، لا يتخطّين العشرين.

فهمَ عمار ما يعْنيه، أمرَه برواية ما حدثَ معه اليوم، تطابقت روايته وأقوالُ حسني فأمرَ بعودته لبيته لحينِ استدعائه مرّة أخرى إن لزم الأمر والتّحفظ على حسني. أُغلقتِ الشقةُ بالشمع الأحمر بعدَ إخراج الجثة، وكلّ الأدلة التي تمكّنوا من الحصول عليها. بدأ حسني في التذمّر بصوت مكتوم وعيونٍ بدتْ دموعها بين غزو وجهاد، والشرطيّان يعتقلانه ويُنزلانه السلالمَ بخشونة، ثمّ يدفعانه بساحةِ سيارة الشرطة الخلفية تحتَ نظر جمع غفيرٍ من المتلهّفين، يلحق بهم وكيلُ النيابة وضابط المباحث وهمَا يتهامَسان، ولأوّل مرةٍ يشعر الجار الذي كان يراقبُ ما يحدث من شرفته نحوَ حسني بالشّفقة ممّا حدث، وسيحدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكنْ حسني يعلم وهو يخرجُ من بيته ذلك الصّباح أنّه لن يمرّ بخير ككلّ صباحاته السّابقة، حرارةُ الجوّ المرتفعة جعلت الصبرَ في الأنوف، وضيّقت الصدور، وأغلظت القلوب، وأطالت الألسنة، فلا أحد يتقبّل منه كلمةً أو سؤالًا، أو يتصدّق عليه بشربةِ ماء، وبالرّغم من اقتحام رجال الشّرطة لبيته المتواضع

أمامَ أعين زوجته وبناته الباكيات، وأجسادهنّ النّحيلة المُرتعشة، وتمزيق كلّ ما طالته أيديهم بحثًا عن أيّ ما هو مسروق، وبالرّغم من خلوّ بيته من أيّ أثرٍ لمال أو متعلّقات قدْ تكون ملكًا لرضا؛ إلّا أنّ الكلّ بدأ في معاملته كمتّهم بالقتل! إلى متى سيظلّ واقفًا هكذا على قدميْه التي أضناهُما الزمان! أخذَ الدّوار من رأسِه، وشدّة الجوع من معدتِه، لم يتناول لقمةً منذ الأمس، جاء ليتناولَ إفطارَه مع الأستاذ رضا كعادتهما كلّ أسبوع، فإذا به قتيل! وهو ملقًى أمام حجرة وكيل النيابة في انتظار استجوابٍ لا يعرف متى سيحدُث، وأين سيقذفُ به؟ وصل به التعب والجوعُ حدّ استعدادِ الاعتراف بالجُرم ليلقي بجسدِه المُثقل على بلاط غرفة الحبس، فقد بدأ ظهرُه في الانحناء أكثرَ من روحه، ذلك الغضروف الذي يأبى فراقَه منذ عمِل في تحميل رملٍ وجبسٍ وطوب البنايات، تنهّد بحرقة وهو يتذكّر تلك الأيام، كان العملُ شاقًّا مجهدًا ويستغرق النهارَ بأكمله لكنّ اليومية كانت لا بأسَ بها، أنعشتْ حالَ أهل بيته، ورأى على وجوههنّ بسمةَ الرّضا والكفاية من القليل، وماذا يرجو الفقراءُ أكثرَ من ثياب ساترة ولقمة مُشْبعة، لكنْ حتّى هذا الفتات قد يستحيلُ عليهم بينما يُلقي البعض ببقايا اللّحوم في النفايات لأنّ أولادهم المدلّلين يرغبون في الوجبات السّريعة! ابتسمَ بسخرية وهو يبتلع ريقه الجائع العطش بامتعاض، ثمّ أخرجَ من صدره تنهيدةَ يأس، تذكّر كيف داهمَه المرض وقضى على حلمِه في ادّخار بضع آلاف ليشتري «توكتوك» فيمتلكُ قوتَ يومه بدلًا من العملِ يومًا والتوقّف أيامًا، شدّته من ذكرياته يدُ الشّرطي تجذبه وتتجه به إلى حجرةِ وكيل النيابة، هو ذاتُه الذي رآه هناك، يجلس خلفَ مكتبه والضّيقُ يكسو وجهَه، لم ينظرْ حتّى إليه وهو يوجّه إليه أولى أسئلته المكرّرة بالاستفسار عن اسمِه وسنّه وعمله..

- حسني بيومي محمد، خمسةٌ وثلاثون عامًا، أعملُ في أيّ ما يجلب قوتَ اليوم، كلّنا نقف على أبواب رزق الله يا باشا.

رفعَ وكيل النيابة رأسَه ليوجّه إليه نظرة ثاقبة ويسأله:

- ما علاقتُك بالأستاذ رضا الشّالي؟ وما الذي تعرفه عنه؟

امتصَ حسني ريقًا بطعم المَرارة، وتحرّكت شفتاه بلزوجة:

- كلّ علاقتي به أنّي أنظّف شقته وأغسلُ الأطباق، أعدّ له بعض الوجبات وأضعُهم في الثلاجة يومَ السبت من كلّ أسبوع.

تجمّدتِ الكلمات، فنفثَ وكيلُ النيابة جزءًا من غضبِه بضرب المنضدة بسبّابته:

- وبعد! هل تريد أن أستحلفُك الله أن تُكمِل؟

هزّ حسني رأسَه بأسف، هو لا يعرف ماذا يقول!

- كلّ ما أعرفه أنّ الأستاذ رضا كان يعمل بمدرسة بإمبابة، تصادف وجودي هناك وسطَ عمّال الترميم، سألني خدمتَه فوافقت، أعمل عنده منذ خمسِ سنوات ولم يحدثْ سوء، صدّقني يا باشا، كلّ ما كان بيني وبينه بضعُ ساعاتٍ أخدمُه بدون كلمة، وأتقاضى ما يقسمُ به الله، ثمّ انصرف، لقد كان رجلًا كتومًا متجهّمًا لا يتحدّث إليّ مطلقًا، حتّى الإفطار كان يضعه لي جانبًا، فلم أعرف عنه سرًّا، ولم أرَ عنده زائرًا قطّ، ولم أؤذه، صدقني.

ثمّ تلألأت في عينيه دموعٌ اخْتنق بها صدرُه خوفًا من أن يتحمل عقوبة ذنبٍ لم يرتكبه، ماذا ستفعل بناتُه وقتها، سيتركهنّ بلا عائل أو معين، عندها سيظهر الأقاربُ المختفون فقط لينهشوا منهم ما يستطيعون نهشَه حتّى وإن كانت الحجرة التي تأويهنّ!

صمتَ وكيلُ النيابة فترةً طويلة وهو يرمقُه بنظرةٍ متفحّصة تصدر من وجْهٍ واجم وفَمٍ مذْموم، بينما أصابعه تضربُ مكتبه بخفّة فتُحْدث صوتًا جعلَ حسني كمَن ركبَ أرجوحة طوّحته يمينًا ويسارًا، ونزل منها يتمنّى أن يلقي ما في جوفه، حمدًا لله أنّ معدته فارغة، وتقرقرُ من فرط جوع، وإلّا كان الآنَ في حالٍ لا يُحسَد عليها، وكيل النيابة لا تظهرُ على وجهه علاماتُ تصديقه، فكرّر:

- لا تعرف عنه أيّ شيء شخصي، مَن يتردّد عليه؟ مَن يزوره؟ أقاربه؟ هل كانت تزورُه نساء؟

هزّ حسني رأسَه علامةَ النفي وقلّة الحيلة، هل سيخترع ما لم يكن؟، شعر وكيلُ النيابة بما يدورُ في عقل حسني، وبينما يدُه تشير للشرطي باصْطحابه للخارج كانت يدُه الأخرى تلتقط سماعةَ الهاتف متعجّلًا أحدهم بما لم يفهمْه حسني، لكنْ بصوت بدا ودودًا:

- أريدُ ولوْ رأيًا مبدئيًّا سريعًا يا يسري من أجل الصداقة.

تكرّر عذابُ حسني، وتكرّر انتظاره لساعاتٍ طويلة أخرى بين الوقوف والجلوس المُرهقين لظهْره، ما هذا البلاءُ الذي حطّ على رأسه، تذكر الآن، لقدْ رأى بومةً بالأمس وغرابًا في الصّباح، سحقًا لنذيريِ الشّؤم اللذين أحاطَا به ليستحيل يومُه إلى سواد.

بعدَ انتظار طويل، استدعاه وكيلُ النيابة مرّة أخرى للتحقيق، فسأله:

- هل كان الأستاذ رضا يمتلكُ هاتفًا، «كمبيوتر»، «لاب توب»؟

أسرعَ حسني وهو يشير بأصبعِه كأنّه عثرَ على الجاني:

- نعم.. نعم، كان يمتلكُ ذلك الأخير الذي ذكرته، كان يحذّرني من مجرد لمسِه، أو الاقتراب منه، وكان في معظمِ الأحيان لا يرفع رأسَه عنه لساعات، لكنّي لا أعرف كيف أنطقُ تلك الكلمة، وهاتف..

- ألم تسمعْ يومَ السبت الأخير أيّ مكالمة بينه وبين أحد؟

- أنا لم أكنْ لأتصنّت عليه، لو شعرَ هو يومًا أني أفعلها لطَرَدني وقطع عيشي.

- هل تعني أنّه كان رجلًا قاسيًا؟

تنهّد حسني والحيرةُ تمزّقه، يخشى من كلّ كلمة قد تقذفُ به حيث لا يريد، طالَ صمته فهزَّ عمار رأسَه وهو يوجّه كلماته للكاتب على يساره، مادتِ الأرضُ بحسني وهو يسمعه يتْلو:

- أمرْنا نحنُ عمار ياسر، وكيلُ نيابة جنوب الجيزة، بحبس حسني بيومي محمد أربعةَ أيام على ذمّة التحقيق.

أرسلَ إليه نظرةً متحدّية، ورفع حاجبه كأنّه يقول له سيفكّ الحجزُ لسانك، ثمّ أشاح بيدِه، وأشار برأسِه، فجذبه الشرطيُّ إلى وعده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غرفةُ الحجز لا تبتعدُ كثيرًا عن الحجرة التي يسكنُ فيها، لكنها تزيد حمامًا صغيرًا جدًّا لقضاء الحاجة تتخبط أياديهم في الجدران خروجًا ودخولًا، ومطبخًا ضيقًا مختنقًا، قد لا يكون إنسانيًّا بالنسبة للكثيرين، لكنّه يبقى آدميًّا لمَا هو عليه الآن، يكفي أنّه لا يضمّ تلك القسمات المُرعبة، دومًا ما يحاول الفرارَ من تلك النّوعية التي تشعره بضعفِه الجسدي وقلّة حيلته، لكن يبدو أنّك كلّما فررتَ من الشيء واشتدّ هروبك منه لا تواجه في النهاية غيره، وها هو محشورٌ في غرفة تُقاس بشبْرِ اليد مع المجرمين والبلطجية، كفأرٍ صغير خرجَ من جحره يتلفّت بحثًا عمّا يسدّ جوع أسرته، فإذا به محاصر بقططٍ جائعة، اقتربَ منه اثنان يتفحّصان وجهه وملابسَه بنظرات شرسة، لكنْ سرعان ما ارتفع صوتٌ من الخلف:

- اتركوه وشأنَه.

أطلقَ حسني شهيقَه المحتجز خوفًا زفيرًا عاليًا وهو ينظرُ تجاه الصوت، دعاه الرجلُ وأجلسه بجانبه، وسأله:

- هل بحوْذتك سجائر؟

أخرجَ حسني من جيبه سيجارةً وحيدة كان سيدخّنها بعيدًا عن عيني زوجته وهو عائد، التقطَها الرجل ثمّ أدارَها بين أصبعيه وهو يسأله:

- ليسَ معك غيرها؟

هزّ حسني رأسَه بأسى نافيًا، لكنْ يبدو أنّه ليس من الضروري عندما يقسو القلبُ أن يتحجّر بالكامل، أعادَ له الرجل السيجارة، وأخرج واحدة من جيبه، ثمّ أشعلَ الاثنتين، وبدأ في محاورته:

- ما تُهمتك؟

جاهدَ حسني دموعَه حتّى لا تسقط وسطَ النّسور فيبدو بينهم كالفرخ المَهيض، قال بحسرة:

- قتل!

ارتفعتْ ضحكاتُ الرجل فاهتزّت الجدران، وتردّدت ضحكات من حولهم في أذني حسني، صرخَ الرجل فيهم ليكفّوا عن الضحك، لكنّه عاد لحسني بوجهٍ ساخر هامسًا:

- وماذا قتلت؟ أرنبَ الجيران!

بدتِ المجاهدة صعبة، فلم تستجبْ مقلتَا حسني لمحاولاته، رقّ قلبُ الرجل له، فشدّ على يده:

- إن لم تكنْ فاعلها ولم يكنْ هناك ما يدينك فلا تخف.

- خوفي على بناتي وزوجتي.

ثمّ غابَ بعيدًا حيث تركهن، ماذا سيفعلنَ في فترة غيابه؟ حتمًا سيبيتون بغيرِ طعام! شعرَ الرجل بحزنه، وبضيق حاله، فلا يعرفُ حسني لولا حمايته التي أرسلها اللهُ له ومشاركته بعض طعامه ماذا كان سيفعل؟ أربعة أيّام مرّوا كسنوات يتقلّب فيهم على شوكِ الخوف، ويتجرّع مرارة الهوان، يخشى كلّ حركةٍ وهمسة، فلم يصدّق أذنيه عندما صدحَ الشرطي باسمه يَسْتدعيه، شدّ الرجلَ على كتفه:

- إنْ فكّ المولى سجنَك، وضاق بك الحال؛ هاتفني.

خرجَ من غرفة الحجز كالقطّ الذي حُبس في خزانة ثمّ تذكّروه، يهرول خلفَ الشرطي حتّى وقفَ أمام وكيل النيابة وقد أنبتت ذقنه شعيراتها وتجعّدت ثيابه أكثرَ ممّا كانت عليه، وزاغت نظراته، وبدا جاهزًا ليُخرج عمار صواع الملك من رحْلِه.

- ألم تتذكّر يا حسني ما قد يفيد التحقيق؟

- سيدي، أستاذ رضا مَن يعرفه يعلم أنّه لا يصنع ذكرى مع أحد.

رمقَه عمار بنظرةٍ ماكرة:

- هل كنتَ تكرهه؟

فتحَ حسني كفّه بدهشة كأنّه يريد أن يلمح عمار خواءها، ليقول:

- ولماذا أكرهه؟ لم يكن بيني وبينه خيرٌ أو شرّ، فقط كانت رؤيته تقبض قلبي لا أعلمُ لماذا؟ ولوْلا لقمة العيش لكنتُ رفضت خدمته بعدَ فترة من معرفتي به، لا أن تمتدّ لخمس سنوات.

تلاعبتِ الدّهشةُ بملامح عمار:

- لماذا؟

ارتبكَ حسني قبلَ أن يرد، لكن عمار شجّعه وطمأنه أنّه لا يوجد لديه ما يُدينُه، فعليه أن يُخْرِج ما في جعبته لصالحه..

- كنتُ في بعض الأحيان أسمعه يهمسُ ببعض الألفاظ الخارجة مع فتيات، فكانَ صوتُه يثير اشمئزازي.

ظهرتْ إمارات عجبٍ على وجه عمار، فهمَهَا حسني فأكمل:

- لا تتعجّب يا باشا، حقًّا.. أنا فقير لكنّي رجلٌ شريف، عندي ثلاث بنات، أتمنّى ألّا يصيبهنّ سوء مِمّن هُم مثله، ليسَ من الضروري أن يحمل الفقر روائح الخسّة والنذالة والخوض في عرض الرجال.

لم ينْهِ حسني كلماته إلّا ودخلَ رجلٌ نحيف قصير، أعطى عمار ورقة بيضاءَ تلقّفتها يدُه بلهفة، ثمّ انصرف. دقّق فيها طويلًا كأنّه لا يقرأ سطورَها؛ بل ما لم يُكتبْ بينها، بينما حسني يتابع نظراتِه ويحاول أن يقرأ منها مصيرَه، ثمّ تلا عمار على الكاتب الذي يجلس بجانبه:

- أمرْنا نحنُ عمار ياسر، وكيل نيابة جنوب الجيزة بالإفراجِ عن حسني بيومي محمد بضمانِ محلّ إقامته، وعدم السّماح له بمغادرةَ البلاد لحين انتهاءِ التّحقيقات، ثمَّ طلب منه التوقيع على أقواله.

بُهت حسني من وقْع الكلمات التي تحوّلت إلى أجنحة ستطير به خارج المكان والزمان، وتقذفُ به أمام بيتِه الصّغير، تحرّك كالدُّمية نحو الكاتب، كتبَ اسمَه الذي تعلّمه بشقّ النفس، غادرَ الغرفة وهو يغلق بابها خلفه بسرعة، قدماه ودموعه تسابقْنَه للخارج، لم يشعرْ بقيمة البيت إلّا اليوم، أين له بكوبِ شاي ورغيفِ باذنجان بالجرجير من يدِ زوجته، لن يعترض مرّة أخرى على أيّ طعام، ولا على أيّ ممّا تقول أو تفعل، لن يوبّخها ويعنّفها على عدمِ اختلاطها بأهله، فحقًّا هُم يؤذونها، عرفَ الآن معنى أن تقف ذليلًا في انتظارِ أحدهم،

قسوة أن تخدمَ ثمّ تصبحُ جانٍ، وهُم يفعلون بها هذا وأكثر، لن يتذمّر على ضجيج البنات ودلالهنّ عليه، ولا على عدم إنجاب الولد، فماذا سيورثه؟ الجبنُ والهوان! أينَ زوجته وبناته الآن ليصرخ لهنّ بعوْدته إلى أحضانهنّ الدافئة، وأنه لا غنًى له عنهن، وكيف شعر بالفقر الحقيقيّ بدونهن، خرجَ من النّيابة تسابقُ قدماه الريح، تمنّى أن يسأل عمار باشا لماذا أفرجَ عنه؟ لكنْ كيف لمثله بتلك الجرأة في موقفٍ كهذا ليسأل! وهل للبسطاءِ الحقّ في المعرفة؟! تكفيه الآنَ الحرية حتّى وإن كانت مؤقتة، ويكْفيه التحرّرُ من الأسْر، حتّى لو كان مشروطًا بعد الرحيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحجّرت عينَا عمار أمامَ الرأي المبدئي للمعمل الجنائي الذي ضغط على صديقِه الطبيب الشّرعي يسري لاستلامِه سريعًا، ما معنى تلك الأسطر المُبْهمة وما بينَها من غموض؟ حتّى الآن لا أثر لبصماتٍ غريبة، لا سرقة أو تفتيش في الغرف، عدا اختفاء «اللاب توب، والهاتف»، وبخبرته لا علاقةَ لحسني بالجريمة، إلّا لوْ كان سهلًا للجناة الدخولُ فقط بسرقة مفتاح الشّقة، حتّى تلك مُسْتبعدة، فالقتيلُ يبدو أنّه كان حذرًا فليس الذي يمكّن حسني من سرقة مفاتيحه، كما أنّه كان في انتظار ضيوف، وموقع مقتله وسطَ صالة شقته، وعدم وجود آثار لعِراك يدلّ على أنّه كان يعرف الجناة ويؤمّنهم، وأدخلهم برغبتِه الكاملة، فلو لم يكنْ يعرفهم لنَكِرهم، ولعاجلوه فورَ دخولهم، ومدخلُ الباب خلا من بقعِ دماء.. تنهّد عمار بعمق وهو يهمس:

- كلّ ما أريدُه الآن وبشدّةٍ التقريرُ النهائي الذي سيكشف غموضَ تلك المعادلة الجبرية.

دقّ بابُ حجرته ودلفَ بهمّةٍ يجلس أمامه، ضابطُ المباحث مروان السّعيدي، يلمحُ ما يجول في ذهنه وتكشفُه عيناه، يعرف أنّه سيحتجّ على الإفراج عن حسني، ابتسمَ عندما تردّد الاعتراض على لسانه، ناوله التّقريرَ وهو يتابع ملامحَ وجهه بنظرةٍ مُحْدقة. هزّ مروان رأسه متعجبًا:

- ما معنى هذه السّطور؟ خمسُ طعنات بسكاكين مختلفة، وآثار ثلاثة أحذية رجالي مُتباينة المقاس! كيف؟

زمّ عمار شفتيه، وأسند رأسَه لكفّه:

- تلك الغرابة هي ما جعلتني أحرّر حسني، هو لم يقتله، وتقرير الطب الشّرعي سيؤكّد وجهةَ نظري، وبالرّغم من استبعادي حتّى معاونته للجناة، إلّا أنّي أريد مراقبةً مكثّفة عليه، وجودُه بالخارج سيفيدُنا أكثر، أشعر أنّ تلك القضية ستكون أحجية.

أسرعَ مروان بالردّ:

- المكانُ حولَ رضا كان ينطق بانتظارِ ضيف.

- أوْ ضيفة. قالها عمار وهو يدقّق النظرَ في التقرير مرة أخرى.

شردَ مروان بفكْره قليلًا يستدعي موقع الحادثة، فعاجله عمار:

- تجهيز طاولة الطعام، الشّمع، الورد،...

توقّف قليلًا قبلَ أن يكمل:

- الرّوب الذي كان يرتديه، شهادةُ جاره وحسني بعلاقاتٍ نسائية، شيءٌ ما يُشعرني أنها جريمةُ ثأر للشّرف.

- ولماذا هذا النّوع بالتحديد؟

ابتسمَ عمار وهو يحرّكُ التقريرَ بين كفّيه:

- الجناة كُثر، ولم يريدوا إلّا روحَه، هو كانَ في انتظار امرأة، وهذا النوع في الغالب يكون لغرضِ الثّأر للشرف، تدخلُ هي ثمّ تفتَح للباقين، حتّى اختفاء وسائل التّواصل معَ وجود مبلغٍ نقديّ كبير في حجرته يدلّ على أنّ الجريمة لم تكنْ للسرقة، لو أنّ حسنيٍ أحدُ الجناة لحَرِص على المال الذي لم يكنْ ليعرف بأمْره أحد، ألم ترَ رقّة حاله؟ مَن كان يتبادل معه رسائل أو مكالمات خاصّة حرصَ على سرقة وسائل التواصل بعد قتله.

- أيامٌ قليلة وتتكشّف الحقيقة.

قالَها مروان ليهدّئ من روْعه، فأسرع عمار بلهفة:

- لكنّي أريد استغلالَ تلك الأيام يا مروان، أبحثُ لي عن كلّ ما يخصّ رضا الشالي منذُ ولدته أمّه لو استطعت.

أسرعَ مروان إلى ما أُمرَه به، تركَه لا يستطيع رفعَ عينيه عن أسطر التّقرير، أطال النظر وهو يتمتم:

- عشاءٌ فاخر، وخمسُ طعنات من سكاكين مختلفة، وثلاثةُ آثار لأحذية رجالي، اختفاءُ الهاتف واللاب توب معَ وجود المال، كيف يمكن أن يصنع كلّ ذلك شبكةً تصطاد لي القتلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكنْ من الصّعب على مروان جمعُ المعلومات العادية عن رضا، ملفّه في وزارة التربية والتعليم حوَى شهادة ميلاده، وشهاداتِ دراسته وعمله في

الوزارة منذُ أكثر من عشرين عامًا، لم يأتِ الملفّ بجديد عن غيره، مدرسُ ألعاب رياضية بدأ تعيينه فورَ تخرّجه في مدرسة بقرية المنوات بالجيزة، ثمّ انتقل بعدَ فترةٍ إلى إحدى مدارس جنوب الجيزة للغات بعد الحصول على إجازةٍ حكومية للعملِ الدّاخلي، لكنّه سرعان ما انتقل بعد سنةٍ واحدة فقط إلى مدرسة بإمبابة، وظلّ بها حتّى ذلك الوقت، التقرير لم يأتِ بشيء يبلّل عطشه، حدّث مروان نفسَه بضرورةِ التقصّي بعيدًا عن هيبةِ المباحث، فهمس لها:

- البشرُ ثرثارة، يتحدّثون عن كلّ شيء، ومع أيّ أحد، ويزيدون عليه إلّا أمام مَن يطلقون عليهم الحكومة، فتبقى الكلماتُ أسيرةَ أفواههم، بينما تُفرج عنها ألسنتهم على المقاهي والدّكك والمصاطب والهواتف، سأفتعل سببًا يجعلُ مَن يريد التكلمَ أن يلقي بما في جوفه.

كانَ عليه أن ينتقلَ بين الثلاث مدارس التي شهدتْ ملاعبُها خطوات رضا، سيبدأ من حيث انْتهى بمدرسة إمبابة، لم يحصل من التقصّي على الكثير، مجرّد مدرس ألعابٍ تعدّى الأربعين بسنواتٍ ولم يتزوج، قليل الحديث منْطوٍ، لا يسمح لأحدٍ بالتقرّب الزائد، الجميع زملاء، ولا صديق ليستفسر منْه، تلكَ حصيلتُه التي تمنّى أن تختلف في المدرسة الثانية.

على بابِ مدرسة للّغات بالجيزة، وقفَ مروان يتحدّث إلى فرْد الأمن، وقد اقتربَ الوقت من موعدِ الانصراف، تركَ بطاقته لمقابلة مديرة المدرسة في أمرٍ هام، استقبلته ظنًّا منها أنّه أحدُ أولياء الأمور حاملًا لشكوى:

- الحقيقة لا شكوى لي، فأنا لستُ وليّ أمر طالب أو طالبة.

كان ينظرُ لها بهدوء، فبادلته نظرات تعجّب واندهاش طرحتْ سؤالًا منطقيًّا على وجْه المديرة «لماذا هو أمامها إذًا؟ وماذا يريد؟»، لم تترك الفرصةَ للتّبرير، ألقتْ نظرةً سريعة على ساعة الحائط تدلّ على رغبتها في إنهاء المقابلة، ضغطتْ على زرّ جرسٍ بجانبها دخلَ على أثره رجلٌ قصير تخطّى الخمسين، بدَا أنه أحد فرّاشي المدرسة، طلبت منه المديرة دقَّ جرس الانصراف، خشيَ مروان أن يفوّت الفرصة فأسرعَ بصوتٍ بدَا مرتفعًا:

- أسألُ عن أستاذ الألعاب رضا الشّالي، كان يعمل هنا منذ أكثر من عشر سنوات.

رمقتْه المديرة بنظرةٍ حادّة وهي تهزّ رأسها بعلاماتِ استخفاف قبل أن تقول:

- سيدي، تسأل عنْ رجلٍ كان هنا منذُ أكثر من عشر سنوات! أنا هنا منذ خمسٍ فقط، لا أعرف عمّن تتحدّث، ولا لماذا تسألُ عنه؟ ولا يهمّني.

ثمّ أشارتْ إلى الرجل القصير باصْطحابه للخارج. تذمّر مروان من تلك المُعاملة الجافّة، هل كانت ستقوم بمثيلتها لو أتاها بصفتِه الرّسمية! همّ أن يفاجئها ويُلقي عليها سخطَه، ويبادلها تكبّرًا بتكبّرٍ، وعنادًا بصاعقة، لكنه ابتلعَ حنقه الذي ظهرَ على وجهه غيظًا أشعلَه احمرارًا، ستفسد مهمّته إن فعلَها، اصطحبه الرجلُ الذي دعتْه المديرة عمّ محمد إلى الخارج، وقد بدأتِ المَدرسة تتراقص صخبًا على صوتِ ضجيج فرحة انطلاق الطالبات بانْتهاء اليوم الدراسي. نظراتُ عمّ محمد كانت تتمايلُ على أرجوحة التّردد، لكنّه سرعانَ ما تخلّص منه ليقول وهو يتفحص مروان:

- هل يمكنُ أن أعرف لماذا تسأل عن الأستاذ رضا الشالي؟

ابتسمَ داخلَ مروان، حانَ وقتُ الحجّة التي أعدّها، كان تفكيره صائبًا، فلينتزعِ الآن ما يريد، ثمّ يأتي ما عداه على مهَلٍ، فقال بمسكنة وترجٍّ:

- تقدّم لخطبة ابنةِ أخي، الفتاة يتيمة، وتصغرُه بأعوام ليستْ بالقليلة، نريد أنْ نتأكّد من أخلاقِه وطباعه ممّن عاشروه حقًّا، هل تعرف عنه شيئًا؟

- أنا هنا يا سيدي منذُ أكثر من خمسة عشر عامًا، فكيف لا أعرف؟

استنشقَ مروان شهيقًا منحَ صدرَه راحة، ضاقتْ عيناه انتظارًا وتشوقًا لاقترابِ بُغيته، لكنّ الرجل ابتلع ريقَه وبدَا أنّه ركب الأرجوحة مرة أخرى، ويبدو أنّه لا يفكّر في النزول منها تلك المرّة، فأسرع مروان:

- تأكّد أنّه معروفٌ لنْ أنساه لك، وسيردّه الله لك في بناتك، تذكّر أنّ الفتاة يتيمة، وثقْ أنّي لن أذكرَ لأحدٍ ما قلت، ولا ممّن عرفت.

ثمّ داعبت رأسَ مروان فكرةُ «المصالح أصبحتْ كالعربات لا تسير إلّا بالبنزين»؛ فأخرجَ من جيبه ورقة فئة الخمسين جنيهًا ودسّها في يد الرجل، فكانت كشفرةِ قفلِ فمِه الذي فُتح، وبدَا أنّه لن يغلقه إلّا بعدَ قول الكثير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهول

عدّة طرقاتٍ على باب حجرته استدعتْه من بحر تفكيره الهائج، لم يُفلت منْه جانٍ منذُ تولّى العمل بالقضاء، لم تستعصِ عليه قضية، ولا سيّما قضايا القتل التي تحفّز بداخله غريزةَ البحث والتقصي والتدقيق، يتعامل معها كقطع البازل التي ترصّ جانبًا لجنبٍ بحرفيّة لتنطق بالمشهد، يشتمّ الفاعلَ والسببَ من مسرح الجريمة وسطورَ التقرير الجنائي، حتّى عُرِف بمهارتِه في صيد الجناة مِن بين شفرات الأحداث، وخضع له كلّ مَن حوله مِن بحثٍ وتحرٍّ وتشريح وأدلةٍ جنائية تأتي على وجْه السّرعة على غير عادتهم بدون تلكّئ، لكن تلك المرّة يشعر أنّها مختلفة، بداخله ما يجثم على صدرِه، ويردّد بما لا يتمنّى، مِن أين جاء ذلك الشعور؟ وإلى أين ذاهب به؟ لا يدري. انتبهَ لدخول مروان الذي حملَ وجهُه رتوشَ ما سيلقيه، هتف عمار على عُجالةٍ وهو يستقدمُه بإشارة من كفّه: - ما الخبر؟ هل هناك جديد؟

هزّ مروان رأسه بالموافقة، تنطق ملامحه بالاشمئزاز وهو يبسط يده بملفّ ضخم يبدو على أوراقه القِدَم، كُتب على جلدتِه التي اختزلَ لونَها الزمنُ اسمُ «رضا الشالي».

- أعتقدُ أنّ حدسك قد صدق.

تحرّكت خلايا عمار تجاهَ الملف، لكنّه ظلّ صامتًا بلا حِراك، أطال النظرَ وهو يحرّك رأسه يمينًا ويسارًا..

- صاحبنا له سابقة؟

أكّد مروان قولَه، وزاد:

- هل أفجّر لك المفاجأة، أم يفجّرها لك هو؟

ارتسمتْ على وجهِ عمار لمحاتُ تحدٍّ لتلك الأوراق التي تكادُ تنبض بما يحْويه داخلها من ألم، يشعرُ أنها ستخبرُه بسرِّها أكثرَ من أيّ فاه أو لسان فأسرعَ وهو يرفع كفّه الأيمن علامةَ الصمت: - لا، بل خلِّ بيني وبينه.

همّ مروان بالخروج، إلّا أنّ شيئًا استوقفه:

- هل جاء التقريرُ النّهائي للتشريح والأدلة الجنائية؟

لم يرفعْ عمار بصرَه عن الملفّ وهو ينفي بسبّابته مَجيئه، انصرف مروان وهو ينطقُ بآخر كلماته: - سأطلبُ لك فنجان قهوة يُساعدك على تحمّل ما ستقرأ، لكني أظنّه لن يكفي.

خرجَ مروان، وسادَ صمتٌ زادَه رهبة ما يحمله الملفّ القابع أمامه وحْشَة، كأنّه حيّ، وسينطقُ ويسمعه أصوات أنينٍ، ويريه دموعًا تتساقط، كلمة «اغتصاب قاصرات» التي كُتبت تحتَ اسم رضا تفوحُ بذلك، شعرَ لوهلة أنّه أمامَ رواية أسطورية مصوّرة، فتحَه كمَن يفتح مغارةَ علي بابا، حجر ثقيلٌ يجبُ أن ينزاح، كلمةُ السرّ لن ينطقها هو ليدخلَ إلى عالم تلك القضية، بل ستنطقُها هي وتزيحُ له الصّخرة عن القاتل، فليبدأ رحلته معها وليرى على مَن ستتلو كلمتها.

أصابَ عمار الذهول والقَرَف وهو مازال يضعُ أوّل أقدامه في عالم القضية، تنهّد ليلقي بقبضةٍ ضربت ضلوعَ صدره، ما تلك التّهمة الخسيسة؟ الحبرُ الأسود ينوحُ ويبوح، ويتدفّق بمشاعرَ طفوليةٍ بريئة قُطفت في مهْدِها، اغتصابُ خمس فتيات في عُمر التّسعة أعوام من فصلٍ واحد منذ سبعةَ عَشَر عامًا، عددُ الفتيات مرقَ في ذهنِه كالبرق، فهلْ هناك صلة؟

البلاغُ الأوّل هو مَن أزاحَ السّتار المُعتم الثقيل عن كارثةٍ اختبأت في الظّلام لأكثرَ من ستّة أشهر، مقدّم من والدِ إحدى تلميذات المدرسة، وتُدْعى «ورد محمود سامي»، اتّهم رضا باغتصابِ فتاتِه البالغة من العمر تسعةَ أعوام يومَ الأحد ١٦أبريل عام ٢٠٠٠، في حجرةِ الألعاب الرياضية بالمدرسة، أقرّ في البلاغ أنّ فتاته جاءت إلى البيت وهي في حالة أعياءٍ شديدة وقيئ هستيريّ وبكاء، ارتمتْ بين يديه كقطّةٍ وليدة دهسها إطارُ سيّارة أحدِهم وهي ترتعشُ خوفًا لتهمسَ له ببراءة، وبآخرِ ما استطاعت أن تخرجَه من بيْن شفتيها الزّرقاء من أحرفٍ مُختلطة بنشيجٍ لا يتوقف بأن الأستاذ رضا خلعَ عنها ثيابَها السفلي، وفعلَ بها شيئًا آلمها، ثمَّ راحت في غيبوبة، جنّ جنونُ الأب وحملَ ابنته المُنهكة المُنتهكة إلى الطبيب الذي أقرّ أنّ عملية اغتصابٍ كاملة تمّت قبل ساعات على فتاتِه الصغيرة، لم يشعرِ الأبُ إلّا وهو يقف في قسمِ الشرطة حاملًا إيّاها كالفراشة التي اعْتصرهاَ أحدُهم بقسوةٍ فأطاح بألوانِها، فأصبحت على لون أسودٍ واحد، احتدّ جسدُها دون عِلمها معنى المأساةِ وحجمها، الهستيريا تحاربُ أعصابه وملَكُ الموت يحومُ حولها، قدّم بلاغًا في المدرسة وفي رضا الشالي مدرّس الألعاب الرياضية بها، ساعات مِن التّباطئ في عَرْضها على الطّبيب الحكومي، قدّم أعصابه فريسةً لمرض الضّغط، فازداد عددُ مرْضاه واحدًا لحظتَها، هرولَ بها إلى مشفى خاصّ لينقذ روحها، مادت الأرضُ تحتَ أقدام مدير المدرسة، ومالكها، والشرطة تدخلُ من بابها وتُلقي القبضَ على رضا في مشهدٍ روّع المدرسين والمدرسات والتلاميذ، انتشرَ الخبر بين أولياء الأمور، وخاصّةً في فصلِ ورْد، تقرير الطب الشّرعي الذي فحصَه عمار باهتمامٍ أكّد أنّ الاغتصاب تمّ على الفتاة في المدّة التي تمّ فيها البلاغ، وأنّ دماءَ بَكارتها بالرغم من محاولة سريعة لتنظيفها إلّا أنّ آثارًا رقيقة منها بقيتْ في ثنايا بلاطِ أرضية غرفة الألعاب الرّياضية شاهدةً على أنّها

موقعُ الاغتصاب بالفعل، لكنّهم لم يتمكنوا من إيجادِ أيّ سائلٍ ذكري عندَ أخذ العيّنات لمُضاهاته بالعيّنة المأخوذة من المتّهم، فالفتاةُ عُرضت على الطبّ الشرعي بعدَ أكثر من عشرة أيام من الحادثة بسببِ بطء الإجراءات، وانهيارُ حالتها الصحية دفعَ الأبَ لدخولها مشفًى خاصّ لإنقاذ حياةِ ابنته، فتبدّلت ثيابُ المدرسة التي كانت ترتديها وقتَ حدوث الواقعة بأخرى، وعندَ طلبها لأخْذ أيّ عيّنة منها أقرّ أنه لم يلتفتْ قطعًا للأمر، وأنّها غُسِلت.

أغمضَ عمار عينيه بكفّه مُتنهدًا تنهيدةً ثقيلة عندما جاءتِ المفاجأة التي زلزلتِ التّحقيق وزلزلتْه معها، تتابعتِ البلاغات من أولياء أمورِ فتيات قرّرنَ الاعتراف بما حدثَ معهنّ ليصل إجمالي العددِ إلى خمس. أخرج زفيرًا برائحةِ الاشْمئزاز، لم يصلْ بعدُ لما حدث مع كلّ واحدةٍ منهنّ، ولا لاعترافاتهنّ الصغيرة أمامَ وكيل النيابة، لم يصلْ لشهادة الشهود، ولا ما الذي حدثَ مع رضا، هل تمّ اتهامُه أم انتزعَ براءته، لكنّ ما يعرفه أنه يحتاجُ الآن إلى مائة فنجانِ قهوة ليستطيع الخوضَ في تلك البركة الموحلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطفلةُ الأخيرة التي تمّ اغتصابُها، والتي فجّرت الكارثة بشجاعتها، «ورد محمود سامي»، أقوالُها جعلته يرى وجهَها البريء على الأوراق، تبكي بصوتٍ واهن متقطّع بعدَ أن أفاقتْ من غيبوبتها، واستطاع وكيلُ النيابة الاستفسارَ منها عما حدث.

«الحصةُ الأخيرة يومَ الأحد كانت حصّةَ ألعاب رياضية، نزلنا جميعًا إلى فناءِ المدرسة، بدأنا في لعبِ كرة السلة، وبعدَ فترة أشار لي الأستاذ رضا مِن بعيد وأنا ألعبُ مع زميلاتي، اتّجهت نحوه فطلبَ منّي الذهاب إلى حجرةِ الألعاب الرياضية وإحضارَ كرة سلةٍ أخرى من هناك، دخلت الحجرة، كانتْ مُظلمة قليلًا، ولا أعرف مكانَ مفتاح النور، ثمّ فجأة أظلمت أكثرَ وسمعتُ صوتَ الباب يُغلَق ببطء، ثمّ أدارَ المفتاح، حاولت أن ألتفتَ لكنّه كان خلفي، خنقَ فمي ورفعني بيدٍ وخلعَ ملابسى السّفلي بيدِه الأخرى، حاولتُ الإفلات والصراخَ لكنّه كان مُمسكًا بي بقوّة، وضحكات خافتة تتردّد في المكان، ثمّ....

وبدأتِ الفتاة في الانهيار، هكذا كتبَ وكيلُ النيابة، وهكذا أحسّ عمار بها وهي تهوي، حقًّا إنّ الأبوّة لم تختلطْ بعدُ بشغاف قلبه لكنّه يشعر بمعنى أن تمرّ طفلةٌ في ذلك العمر بالمعنى الحقيقي للقهْر الإنساني والاستغلال الجسدي. استكملَ وكيلُ النيابة التحقيق بعد تهدئتها...

«.. ثمّ أوقعني على الأرض ونامَ فوقي، وحشرَ بداخلي شيئًا آلمني بشدّة، وهو يتحرّك بجسده لأعلى وأسفل، وأنا أصرخُ وأصرخ وهو يضغطُ على فمي أكثرَ وأكثر، حتّى أحسستُ أنّ رأسي ستتحطّم، ثمّ بعدَ فترة همس لي في أذني

أنّي لو أخبرتُ عمّا حدث شيء لأيّ أحدٍ سيَقتل أمّي، ثمّ خرج مُسرعًا جدًّا فارتديتُ ملابسي وخرجتُ من الغرفة أبكى، آلمتني بطني بشدّة، وبدأتُ في التقيّئ، فالتفّت حولي زميلاتي وذهبوا بي لطبيبة المدْرسة، فأعْطتني ملعقة دواءٍ حتّى أصل للبيت ويذهبَ بي أبي للطبيب، ثمّ فوجئت به يدخلُ العيادة ويقترب منّي وهو يربّت على كتفي ويسألني ما بي، كنتُ خائفة منه فأزحتُ يدَه ولم أرد...»

انتهتِ الفتاة، وستبدأ الأسئلة، وحصارها بالتفاصيل.

- هل رأيتِ وجهَه يا ورد؟

- لا، لم أره، كان يرتدي شرابًا أسودَ على وجهه.

- وكيف عرفتِ أنّه الأستاذ رضا؟

- مِن صوته عندما ضحك، وعندما حدّثني في أذني.

- لكنّكِ ذكرتِ في أقوالك أنّ الضّحكات كانت خافتة، وصوته هامس، فكيف تأكّدتِ أنه هو؟

صمتتِ الفتاةُ فترة، ثمّ قالت: لا أعرف، لكنّه هو.. «هكذا كتبها الكاتب»

- عندما دخل العيادة هل كان يرتدي قناعَ الوجه؟

- لا، كان قد خلعَه.

- هل طلبَ منك من قبْلُ إحضارَ الكرة من الحجرة؟

- لا، كانت أوّل مرّة.

- لم تعرفي مكانَ زرّ النور! ألم تدخلي تلكَ الحجرة من قبْل؟

- لا، مدرسُ الألعاب السابق الأستاذ أحمد لم يكنْ يطلب من إحدانا يومًا الذّهاب إليها، هو مَن كان يحضر الكرات، أو عمّ محمد.

- هل ضايقَك الأستاذ رضا بأيّ شكل من قبل؟

- لا.

- هل تعرّض لكِ في فسحةٍ أو عندَ انتهاء اليوم الدراسي قبل ذلك اليوم؟

- لا.

- هل رأيتِه يومًا يستدعي إحدى زميلاتك بذاتِ الطريقة التي استدعاكِ بها؟

- لا؛ فنحنُ في غمار اللعب لا ننظرُ إلّا نحو السلة.

- لماذا لم تخبري طبيبةَ المدرسة بما حدث؟

- أنا لا أحكي أيّ شيء إلّا لأبي.

- لماذا أخبرتِ أباك ولم تخافي على أمّك كما هدّدك يا ورد؟

نظرتِ الفتاة لأبيها بوهن، وأجابت.... «هكذا كتب الكاتب»

- أنا وأبي أصدقاء، ولا أخفي عنه شيئًا أبدًا، وأمّي ماتت فعلًا فكيف سيقتلُها؟!

أغمضَ عمار عينيه من هوْل ما قرأ، كأنه يريدُ أن يُعمي بصره عن الحقيقة التي تضخّها ساقيةُ الأوراق عن الثّور الذي يديرها ليسقي رغباته المُختلّة، لا يكره أكثرَ من قضايا الاغتصاب، الأرض، العرض، الكرامة، الحرية.. لكنّه يلمح الآنَ فرارَ رضا من المسئولية بعدَ اعتراف ورد بأنها لم ترَ وجهه، ولم تلمحْ تفاصيل جسدِه، لقد فاجأها من الخلف وهي لن تستطيعَ في تلك الحالة أن تحدّد عَرضه وطوله، وخصوصًا في ظلام الغرفة، حتّى وإنْ حاولت سيهدمُها أقلّ محامٍ بقرينةِ ظلام الغرفة، لا توجد قرينةٌ مؤكّدة ضدّه إلى الآن، سيدخل الشكّ قلبَ القاضي، والشكُّ كالباب الموارَب دومًا ما يفتحُ طريقَ الحرية في وجْه المتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البلاغُ الثاني مقدّم من والدِ الطالبة «أريج نور المهدي»، اتّهم فيه الأستاذ رضا بالاعتداءِ على ابنته، لم يكنْ يعرف عن الأمر إلّا بعدَ إبلاغ والد ورد بحادثةِ اغتصابها، فوجئ بابنته تتّصل به هاتفيًّا وتصرّح له بأن ما حدث معَ ورد حدثَ معها، وأنّه يجب عليه أن يفعلَ ما فعله والدُ ورد، لم يصدق الأبُ أذنيه، هل يرسلُ ابنته إلى مدرسة لغاتٍ أم إلى اصلاحيةِ أحداث أو ملجأ أيتام حيث لا رقابةَ ولا أمانةَ على الأرواح والأعراض! لم يتوقّع يومًا أنْ يدفع آلاف الجنيهات في مدرسةٍ تترك مدرّسَها يرعى بينَ الفتيات كذئب بينَ الحملان، يغتصبُ تلك لينهي أمرَها، ثمّ ينتقلُ لأخرى، لم تأتِ أقوال أريج مختلفةً عن أقوال ورد، نفسُ الطريقة ذاتها، النداءُ في غمرة اللعب، المفاجأةُ في الظلام من الخلف، الوجهُ المُختبئ والصوتُ الهامس، والضحكة الخافتة، دومًا الغرفُ المظلمة هي جحورُ المُغتصبين، اختلفت الاعترافاتُ في زيادةٍ جعلت عَمَارًا يبتسمُ رغم ما يشعرُ به من ألم..

- عندما كمّم فمي بشدّة وأنا أقاوم ارتفعتْ يدُه قليلًا فعضضتُها عضّة قوية صرخَ معها، لكنّه لم يفلتني.

- لماذا لم تُخبري أحدًا من أهلك يا أريج؟

- خفتُ على أمّي من القتل؛ فهي مريضةٌ وأنا أحبّها بشدّة.

- هل طلبَ منك الأستاذ رضا إحضارَ الكرة مرّة أخرى بعدها؟

- نعم، بعدَها بأسبوع في حصّة الألعاب، لكنّي لم أذهب.

- كيف؟

- قلتُ له إنّي لن أذهب إلى تلك الحجرة، وإنّي لست خائفة منه، ولو طلب منّي ذلك مرّة أخرى سأخبرُ أبي، لكنّي كنت أتكلم وأنا أرتعدُ من الخوف لأنّ أبي لا يعيش معنا.

- وأين يعيشُ أبوك يا أريج؟

- معَ زوجته الثانية.

- وبماذا ردّ الأستاذ رضا؟

- لم يجب. نظرَ لي بغيظ، وصرخَ في وجهي، وقال لي «غوري».

أبعدَ عمار وجهَه عن الأوراق، لم يعدْ يحتمل أكثر، كيف تجرّأ ذلك الوغد على فعْلها، كيف أسالَ الدّماء البريئة على أرضِ عُهره وابتذاله بدون أدنَى تأنيبٍ للضمير، كم تمنّى لقاءه قبلَ موته ليشرّحَ قلبَ ونفس رجلٍ غابت عنْه كلُّ معاني الآدمية، وتحوّل لوحْشٍ يدهسُ النّبْتات الصغيرة في طَريقه مِن الحياة للموت، لو كان يدْري كيف ستكون صورتُه وهو ممدّد على أرضِ شقّته منزوعَ الروح غارقًا في دماءِ خسّته، أو وهوَ مكفّن في قماش أبيضَ رخيصٍ ملقى بجانبِ حائطٍ أسفل الأرض؛ هل كان فعلها؟! ولو أنّ القانون عرِفَ كيفَ يلتقمه في بطنه ويدلّي رقبته على مقْصلة العار في مشهدٍ مصوّر للجميع، هل كان ليُقدِم عليها غيرُه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البلاغُ الثالث مقدَّم من السيدة «سوزان ألبير براون» الإنجليزية الجنسية، والدةِ الطفلة «تسنيم أحمد العطار»، والتي سمعتْ ما حدث بفصل ابنتها فاستدعتْها، وسألتها بهدوءٍ إذا كان ذلك الأستاذُ قد فعلَ معها ما آذاها، فانهارتْ في البكاء وهي تقرّ أنّه فعل بها ما فعله بصاحبتيْها؛ ورد وأريج. تقدّمت السيدة ببلاغٍ تُحمّل فيه المدرسةَ مسئولية ما حدث، وبلاغٍ آخر ضدّ رضا الشالي بالاعتداءِ على ابنتها، لكنّ وكيلِ النيابة ضمّ البلاغين لاتّصالهما بذاتِ الواقعة. اختلفت اعترافاتُ تسنيم قليلًا عن ورد وأريج، الفتاةُ خافت بالفعل على أمّها التي ليس لها غيرها بعدَ وفاة والدها، استطاع الوغدُ أن يتحكّم في خوفها، ويستغلّ براءتها لأكثرَ من مرّة، لكنه لم يخرج عنْ دائرته المُحْكمة، فلم ترّ الفتاة وجهه قط.

- هل طلبَ منك الأستاذ رضا يا تسنيم إحضارَ الكرة مرّة أخرى؟

ارتعدتِ الطفلة واختبأتْ في حضن أمّها وهي تهزّ رأسَها علامةَ الإيجاب... «هكذا كتبها الكاتب»

- كم مرّة؟

لم تجب، لكنّها أشارت بأصابعِها علامة الثلاثِ مرّات.

- أريدُك أن تجيبي عليّ بصوتِك لا بالإشارات، أعرف أنّك مُجهدة، لكنِ لمصلحتك ومصلحةِ زميلاتك أن تتذكّري، هل رأيتِ وجهَه في أيّ مرة من تلكَ المرّات الثلاث؟ ألم يرتفعِ القناعُ ولو لمرّة واحدة؟

- لا، لم أرَ وجهه، لكنّي كنت أسمع ضحكتَه الخافتة، وصوتَه الهامس الذي كان يُخبرني في كلّ مرّة أنه سيقتلُ أمّي إنْ أخبرت أحدًا.

- هل كان صوت الأستاذ رضا؟

- نعم صوته، لكنّه كان منخفضًا جدًّا.

- أأنتِ متأكّدة؟

صمتتِ الفتاةُ ولم ترد... هكذا كُتبت.

- ومتى لم يعدْ يطلب منكِ إحضار الكرة؟

- بطني أصبحتْ تؤلمني بشدّة، وأتقيّأ، ففكّرت أن أتهرّب من حصة الألعاب بالبقاءِ في الفصل، لكنّي فوجئت بالدادة تدخلُ عليّ الفصل وتُخبرني أنّ الأستاذ رضا يستدعيني للحصة.

قاطعَها وكيلُ النيابة:

- ونزلتِ؟

- نعم، ولمّا طلب منّي الذهابَ للحجرة صرختُ فيه بأني لن أدخل تلك الغرفة مرّة أخرى، ولو قتل أمّي سأقتلُ نفسي، ثمّ أسرعتُ بالجري لأنضمّ لزميلاتي.

- وهل كفّ بعدَها عن إرسالك؟

- نعم، لكنّه أصبح بعدها يتعمّد ضربي على أيّ خطأ مهْمَا كان قليلًا، أو حتّى بلا خطأ.

انتهتِ الأسئلة هنا، والتي يعتقدُ عمار أنّ وكيل النيابة أنهاها لأنّ الفتاة راحتْ في نوبة بكاءٍ شديدة سمعَ صوتها بين الحروف، ورأى قطراتِ الألم تتشكّل لتصنعَ كلمات ستخرج الجاني من ورطته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البلاغُ الرابع مقدَّم من «سعيد الحسيني عامر»؛ عمّ الطالبة «بتول سيد الحسيني»، وليس مِن والدها، بالرّغم من وجوده على قيْد الحياة، ويبدو أنّ العجبَ أصابَ وكيلَ النيابة من كَون البلاغ مقدّمًا من عمّها، فكان من الطّبيعي أن يسأل عن السبب.

- والدُها لا يريد الإبلاغ؛ يخشى الفضيحة، تكلّمنا كثيرًا، وخضْنا نقاشًا حادًّا كادَ يصل حدَّ العراك، حتّى وإن كنت غير ذاتِ صفة بوجود وليّ أمرها على قيْد الحياة إلّا أنّي أرى أنّه من أقلّ حقوقها علينا أن ترى ذلك الأستاذ مُلقًى في الحبس، أو معلّقًا في حبل المشْنقة إن أمكن، لتستردّ كرامتَها، وتستطيع مواصلةَ حياتها، والدُها رجل قاسٍ، اغتالها بالخوف قبلَ أستاذها، وأنا أخشى عليها من عقدةٍ نفسيّة تمنعها الحياة.

توقّف عمار عن القراءة، ورفعَ بصرَه عن الأوراق، وهمس: - «حقًّا، ما أكثرَ ما يكون الاغتيالُ الأوّل بيدِ مَن كان يجبُ أن يضخّ الحياة في القلوب».

تلكَ الفتاة شعرَ عمار بالخوف يقطرُ من كلماتها، الفتيات الثلاثة اللّاتي سبقْنَها امتلكنَ الشّجاعة، وخاصّة ورد وأريج، لكن بتول تبدو كآلةِ خوفٍ متحرّكة تضخّ ما سقاها به أبوها من رعب، لم تأتِ أقوالها بجديد، هو مَن يرسلها للغرفة، لم تتمكّن من رؤيته، كلّ ما أكدته صوتُ همسه كالباقيات، تهديدُه بقتل أمّها، لكنه استغلّ خوفها أكثرَ ممّا استغل أيّ واحدة ممّن تبعوها، لقد حطم روحَها خمسَ مرات وهو مَن توقف بإرادته وليس خوفًا منها، العجيبُ أنّ والدها سحب البلاغ فلم يستطعْ وكيل النيابة إدراجَ قضيتها مع بقية الفتيات، لكنه ضمّ أقوالها للتحقيق.

احتارَ عمار في شخصية ذلك الوغد، لماذا اكتفى منها؟ أليَقطف بكارة أخرى؟ هل أعجبه منظرُ دماء البراءة وهي تسيلُ عند أقدامه، كما يستمتع الحيوانُ بفريسته الجديدة الغضّة، أم كان يستمتعُ بصرخات القهر الأولى، فلمّا قتلها وباتت جثمانًا خامدًا زهدها؟! بات يلعن تلك السادية والوحشيةَ التي زاغت بقلوبِ البشر، التي لا يعرف إلى أين ستصل بهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البلاغُ الخامس مقدَّم من والد الطالبة «زينب ماجد شفيق»، الفتاة الأولى التي اغتصبها رضا، فلم يمضِ على تعيينه شهرٌ واحد إلّا وكانت زينب فريستَه الأولى، تلك هي البداية التي اندلعتْ في عظام أجسادهنّ لترتفع وتطالَ أرواحهن، هي أولى مَن أرسلهنّ إلى حجرته ليلتهمهنّ تحت جنح الظلامِ وغياب الضمير. أقوالُ زينب أنهتْ على آخر ما تبقّى لعمار من براحِ صدر، فضاقَ عن آخره.

- أريدُكِ أن تحكي لي يا زينب ما حدثَ معكِ بالتفصيل. قالها وكيلُ النيابة لكنّه لم يتبعها بأقوال؛ بل أتبعها بتعقيب..

«لم تستطع المجني عليها النطقَ بكلمة، اغرورقت عيناها بدموع كثيفة، وابتلّت جبهتُها بعرقٍ غزير، وبدأتْ في قيئ هستيري، ممّا اضطرنا نحن وكيلُ نيابة جنوبِ الجيزة لإنهاء التحقيق لعدم قدرة الفتاة على الإدلاء بأقوالها»..

استأنِف التحقيق لاحقًا مع زينب، الكلمات المكتوبة قليلة لكنّها مستفزّة ومثيرة للاشمئزاز، متعتعة خائفة لا تستطيع زينبُ نطقَ جُملة متكاملة، لكنّه عرف أنه قد تعدّدت الاعتداءات عليها مرّاتٍ نسيتْ هي عددَها، لم يرحمها الوغدُ من القهر والهوان إلّا عندما بدأ عليها ظهورُ مبادئ حالة نفسية، فقد أصبحتْ كثيرة الغياب، تجلس في الفصل تائهة مكتئبة، تبكي بلا سبب، القيئ ملازمٌ لها، فتحوّلت لهيكل عظمى، درجاتها لا ترتفع فوق الصّفر؛ ممّا اضطرّ مدير المدرسة لاستدعاءِ والدها لكنّه لم يأت، يعمل في دولةٍ خليجية، وأمّها طريحة الفراش بمرض عُضال، حضر خالها وحاول- هو والمديرُ وجميعُ المدرّسين معها- معرفةَ سببِ تدهورها الدراسي والنّفسي؛ بلا جدوى، ويبدو أنّ حضورَ خالها إلى المدرسة وانتباه المدرّسين لحالها أرهبَ النذلَ فتوقّف عن امتصاصِ روحها لكنْ بعد أن حوّلها إلى فُتات، وانتقلَ بفكْره السّادي إلى الضّحية الثانية لتعجبه اللعبة ويكرّرها مرّات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يسجّل التاريخ إمكانيةَ إفلاتِ ظالم من ميزان العدالة إلّا عندما تثقل كفة مَن يساندونه فتخفّ كفتُه فيرتفع ويضع قدم الهروب خارج ميزانه، أخذتِ القضية شكلَ رأي عامّ مُنقسم، وعندما تتشتت القلوب وتفكّ الأيادي تشابكها يرعى في ضعيفِها الذئاب، ثمّ يلعب الإعلامُ دورَه فيضع التابلَ المثير للشهيّة ليتصدّر برنامجُ هذا أو هذه المشاهدةَ والإعلانات، مَن المذنب مِن البريء؟ لا يهمّ؛ الأهمّ البريقُ الذي سيخطف الأبصار حتّى وإن كان انعكاسًا لزجاج مكسور سيريق دماءَ الضحية، ويهدر حقّها على الملأ بدون أيّ مكسب معنوي!

اندهشَ عمار من رقم الشّهود الذين زُجّ بهم للإدلاء بأقوالهم في تلك القضية، عددُهم كان كفيلًا بأيّ وكيل النيابة أن يعرف أنّه الجاني، الجميع يحاول دفعَ الوصمةِ عنه، ووصفه بما يزيف معدنَه الرخيص ليبرق، واليد القوية الخفية وراءهم تَظهِرها الأوراق لكنْ لمَن يقرأ الآن على مهل، وليس في وقت المعركة التي قامتْ بين أولياء الأمور ومدير المدرسة الذي كان يدافع بشراسةٍ عن كيانه المزعوم، ووراءه حشدٌ من المساندين، بريء رضا أم مُدانٌ بإزهاق خمسِ براءات في موسم حصادِه المشئوم.. لا يهمّ، المهمُّ عدمُ انهيار كيانِه ومكاسبه، فهل أصبح جمْعُ المال هو سعيرَ الأرض وجحيمَها الذي

يُعاقب به البعضُ قبلَ الحساب. أقوالُ الشهود نسخة مكررة من مجموعةِ بَبّغاوات لقّنهم محامي ماهرٌ ما ينبغي قولُه، لم تخرج عن إطارِ الإشادة بأخلاقِ رضا، وخصوصًا من المدرّسات، وأنه لا يترك أرضَ الملعب أثناءَ حصّته أبدًا، حجرة الألعاب الرياضية مفتوحةٌ من أول اليومِ لآخره، فيمكن لغيرِه استغلالها، وغيرُه لا يمكن معرفته لعدم وجود قرينةٍ دامغة، فقدْ ضاعت من ملابس وخلايا ورد بسبب بطء الإجراءات، الفتياتُ الصغيرات زميلاتُ المُغتصبات لم يستطعنَ التأكيد على عدم وجودِه أثناءَ الحصة لانْشغالهنّ باللعب، تلك كانت شبكته المُحكمة، لهو الفتيات وسحبُ الفريسة، تغطيةُ وجهِه، همسُ صوته من وراء حائلٍ استطاعَ المحامي التّشكيكَ فيه، ثمّ إنكاره أيًّا ممّا دفعت به الفتيات لاتّهامه، ولم يوجد مَن سمِعه وهو يرسل واحدةً منهنّ لغرفته، حتّى وإن وجد فسيكتمُها الآثم قلبُه، ويمتطي دابّةَ الخوف والأعِذار على راتبِه الذي سيتوقّف وعملِه الذي سيُفقَد، ثمّ تأتي القاضيةُ في أقوال رضا الحذرة التي مِن الواضح أنّ محاميًّا عتيدًا لقّنه إيّاها، همس عمار: - قدْ تبرّئ الأقوالُ والملابسات والقرائنُ والمحامي ذائعُ الصيت وشهودُ الزّور أو الحقّ؛ ذلك الرضا، لكنْ عمار يشتمُه ويثقُ أنّه الفاعل.

دخلَ مروان في وقتٍ حاسم، ووجْه عمار تتصارع عليه عدّةُ مشاعر مُتناقضة يشدّ بعضُها بعضًا، عيناه اتّسعت على رقعة قذرةٍ فلم تقوَ على الانْغلاق، شفتاه يبستْ من جفاف المُعاناة الطفولية التي الْتقاها على الأوراق، فما باله إنْ عايشها، الحبرُ الأسود انتقلَ لوجهه فنقش أسطره الحزينة عليه، همس مروان: - لا تبدو بخير.

- ومَن يُمكنه أنْ يقرأ مثلَ هذا ويبدو بخير!

قالَها عمار وهو يضربُ الملفّ بكفّه، كأنّه يصفع الظلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لفّ الصمتُ المكان إلّا من صوتِ رشفات القهوة، لا يعرف عمار هل هو مَن يرتشفها أمِ الانْتظار هو مَن يتغذّى على أعصابه، يحترق في انتظار تقريرِ الطبّ الشرعي الذي يجبُ أن يحسمَ الأمر، تمرّ عليه الأيام كبقرات عِجاف يلتهمنَ اليابسَ منه. مروان يلحظُ توتّرَه وقلقه، ويلمح في عينيه تعبيرًا لا يستطيع وصفَه، فتساءل: - فيمَ تفكّر؟

مرّر عمار أناملَه بين خصلات شعرِه بهدوء، ثمّ قال بِرَويّة: - الخمس فتيات والخمس طعنات! هل هناك صلة؟

أيّده مروان:

- فكّرتُ في ذلك الاحتمال، لكن مَن تراه فعلها؟

وضعَ عمار فنجانَ قهوته الفارغ على مكتبه وهو يعيدُ طلبَ آخر، شبّك أصابعَ يديه ثمّ حملَ ذقنَه على ظاهرهما، بينما عيناه تخترق الملفّ القابع أمامه، نازعتِ الأوراق أرواحها وهو يقلّبها ليصل لورقة الحكم، كأنّ الأوراق التي حملتْ كلّ هذا الإثم كانت أحنّ على الفتيات ممّن حققوا وكتبوا وشهدوا ودلّسوا! التقطَ ورقة من آخرِ الملفّ ثمّ رفعها في وجه مروان قائلًا: - ها هي يا مروان ورقةُ الحكم الأخير، السكّين الشاحذ التي بطشتْ بخمس أسَرٍ كاملة، حبلُ المشنقة الذي تدلّت منه رقابهم، براءة واحدة أطاحت بخمسِ براءات لعدمِ كفاية الأدلة، مَن قتله أرادَ أن يطيح بدمائه على أرض غرفته، ثأرًا لما حدث، لكنْ تعتقد مَن؟

- لو اتّصل مقتله بتلك القضية فمِن المؤكّد أنّ الأهل هم فاعلوها.

ابتسمَ عمار في وجه مروان:

- انتظروا سبعةَ عشَر عامًا! ليموت مَن مات، ويمرض مَن مرض؛ ليأخذوا ثأرهم! لو كان الأهلُ لحدثت قبلَ ذلك بخمسة عشر عامًا.

تجهّم وجهُ مروان وهو يحدق في عيني مروان:

- تقصدُ الفتيات؟!

أكّد له ما استنتجَه بهزّة من رأسه:

- نعم، وهذا يحلّ لغزَ الخمسة سكاكين المُختلفة، فليس من المعقول أن يكونَ قاتله فردًا واحدًا ويستخدم هذا العددَ من السكاكين.

أومأ مروان برأسه متعجّبًا:

- لكنْ.. آثار الأحذية الرجالي!

فكّر عمار قليلًا وهو يهمسُ ويكرّر «الثلاثة رجال»، ثمّ ارتفعَ صوته وقد شردتْ عيناه بعيدًا كأنّه يرى العرضَ الأوّل حصريًا لجريمة القتل: - سبعة عَشَر عامًا ليستْ بالفترة الهيّنة، ونحن لا نعرف ما مرّت به هؤلاء الفتيات فيها، مِن الجائز أن يكون الثلاثةُ رجال تربطهم بهنّ صلة قلبية؛ حبّ، زواج، خطبة، أرادوا الانتقامَ جميعًا من جرح الماضي لتندمل جروحهنّ، فجروحُ العِرْض لا تندمل عندَ البعض إلّا بالدماء.

مروان يقدّر تفكيره، يخشى أن يُظهرَ الاعتراضَ الذي يتراقص في عقله، يعملُ معه منذ فترة، وفي كلّ مرّة يصدّق حدْسَه، لكنْ هذه المرّة له رؤية تتناقضُ مع اعتقادِه، التقطها عمار: - يبدو عليك الاعتراض!

هزّ مروان رأسه مؤكدًا:

- سأصدقُك القول، لو كان تصوّرُك حقيقيًّا؛ فأين آثارُ أحذية الفتيات؟ ثمّ إنّ رضا هذا من الواضح مِن سيرته وقضيّتِه الأولى وعمرِه الذي اقترب من الخمسين ولم يتزوّج، وشهادة مَن يعرفونه من الجيران؛ أنّه كان رجلًا لعوبًا، حدْسي كلّه يتّجه نحوَ امرأة تلاعَب بها فقتله أهلها.

- قتلَه أهلها بخمْس سكاكين مختلفة، ثلاثة كلّ منهم يحمل سكينًا واثنان سكينتيْن! فعليك أنْ تبحث لي عنِ امرأة أهلها يعملون بالمذبح يا مروان!

تبادلَا ضحكاتٍ قطعتها طرقاتٌ على باب الغرفة، ليدخل الرجل الذي ينتظرُه عمار بفارغ صبرٍ يحمل تقريرَ الطبّ الشرعي بين يديه، سلّمه بهدوء وانصرف، تبادلا النظرات، همس مروان وعيناه تتمنّى الغوص بداخله: - هل تعتقد أنّه سيجيب على اللغز؟

- سَنرى.

أخرجَ عمار التقرير من مظروفه الذي يحمل كلمةَ السّر، يتمنى أن يجد ما عرضَه عقلُه يتوافق مع ما كُتِب، لكنّه ما لبث أن ألقى به على مكتبه بعصبية، وهو يهتف بنبرة حادّة: - التقرير لا يوجد به جديد، لا آثار لأيّ عنف على جسد القتيل، لا بصمات، لا آثارَ لحمض نووي أيًّا كان، فلا دماء إلّا دماؤه، لا شعر لا أظافر، لا جلد، لا مخدر، لا أثر لحذاء آخر غير الثلاثة أحذية الرجالي، لم يتمّ تحديد يوم الوفاة على وجْه الدقة، يدور في الفترة ما بين ١٥ و ١٧ أبريل... ثمّ توقف قليلًا وهو يهمسُ: لكن....

أسرع مروان بلهفة:

- لكنْ ماذا؟

- الطّعناتُ الأربعة الأولى لم تكنْ غائرة؛ واحدة في الرقبة، وثلاث متفرّقات في أنحاء الجسد، الطّعنة الأخيرة القاتلة كانت بالقلب، وواضحٌ أن مَن قتله ثلاثة.

- لماذا؟

- هناك طعنتان مُستقيمتان، وهذا دليلٌ على محاذاة الطاعن من طول رضا، واثنتان مائلتان لأسفل فالطاعنُ أطول، وواحدة مائلة لأعلى فالطاعنُ أقصر، وواحدٌ منهم أعسر.. جميعُ الطعنات في الناحية اليسرى مِن جسده ما عدا واحدة في النّاحية اليمنى، وتلك هي المائلة لأعلى، القصيرُ كان أعسر.

- وما الذي يعنيه هذا مِن وجهة نظرك؟

- الطّعنة السطحيّة إمّا لرجل ضعيف أو لفتاة، عقلي يردّد أن وراء تلك الجريمة الخمس فتيات، أو فلنقل الخمس شابّات، لكن مَن طعنه ثلاثة فقط

لا الخمسة.

أشاحَ مروان بوجهِه غير عابئ:

- حتّى وإن كان، أليسَ حقهنّ وفزْنَ به؟ أنا لا أبرّر الجريمة لكني لا أتمنّى أن يُسجَن خمس براءات في جانٍ.

- أنا وكيلُ نيابة يا مروان، عملي هو التقاطُ الفاعل، لماذا؟ الدوافع؟ المبرّرات؟ ليست تلك مهمّتي، قضيتي الوحيدة الجاني، وتقديمه للمحاكمة وهي التي تفصل في أمره.

- وماذا بعد؟

كتبَ عمار أمرَ تفتيشٍ وإحضار بأسمائهنّ:

- استدْعِ لي الخمس فتيات، أينَ كنّ.. أريدُهن، لكنِ احرصْ على عدم لقائهنّ قبل أنْ أخبرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضبطٌ وإحْضار

- هل جاءوا لإلقاءِ القبض عليكِ؟ ما الأمر؟

قالها الأبُ بدهشة حينَ اخترق ثلاثة بزيٍّ عسكري هدوءهما بطرقاتٍ مُتتالية، ثمّ مدّ أحدُهم يدَه بورقةِ تفتيش للبيت، وإحضار لابنته.

هزّت رأسَها وكتفيها تنفي فهمَ أيّ ممّا يحدث، انتشروا في البيت ونَبَشوه حتّى خالتهم سينبشونَ لحومَهما، بعثروا المكانَ وخاصّة المطبخ، ولم يتْركوا سكينًا إلّا وأتوا بها، لم تعرفْ عن ماذا يبحثون، وإلّا لأخرجته قبل أنْ تنزلق أحشاءُ بيتهما أمامَ أعينِ أبيها الحزينة، دخلوا غرفتها الخرساء التي خلتْ من كلّ ما يمكنُ أن تحمله غرفُ الفتيات، لا صور لمشهورين أو أغاني عاشقين، لا عطورَ أو مساحيق، وحدها اللوحات والألوان التي صوّرت بها وحدتها وارتحالها في صحراءِ الحياة القاحلة طيلة سبعة عشر عامًا إلّا عامها الأخير، خنجرٌ من الشفقة يُغرَز في صدرها ألمًا على دموع أبيها المُختبئة بين جفنيْه فينخرُ قلبها بلا دماء، ألمْ يكفيه أسى! وما أنْ أتموا التّفتيش حتّى أنزلها شرطيّان برفق، بينما أسرع الثالثُ أمامهم، ومع أنها تسكنُ الطابقَ الأول إلّا أنّ السّلالم تحتَ أقدامها باتت طويلة على غير المُعتاد، تنظرُ إلى الخلف في اتّجاه صوتِ أبيها، نبرتُه التي شاخت قبل أوانِها، ووخزةُ قلبَها أخبرتْها عن لحاقه بها، لم يكنْ مرورها من باب العمارة للسيارة بالسّهل، أفسحَ الشرطيّان الطريقَ بين جموع البشر الذين تجمّعوا حول سيارة الشرطة، ثمّ أجلسوها بساحةِ السيارة الخلفية يحيطانها كأنّها مِن عتيدي الإجرام، الذهولُ ينتابها.. لكنْ لا حيلة لها، ولا تدري لماذا هي محشورةٌ هنا، أصواتُ السيارات التي تمرّ سريعًا كانت تقطع خيالاتِها التي عادتْ لسنوات، وتومضُ روحها بومضاتِ ذكرى لم تنطفئ منذُ يوم اشْتعالها، وعلى حائط رماديّ مُنتهك جرحته أنّات المظلومين، في ممرّ طويل بطول أيامِ السّهر ألقت وردُ ظهرَها لتسند ما تبقّى منها، لقد خارتْ قواها وانتحرَ ثباتُ أعصابها غرقًا في بحر الخوف والقلق، لا تدْري ما الذي يحدُث حولها، لم ينطقْ أحدُهم بما هي في انتظاره، احتضنتْ جسدَها بيدين مُرتعشتين لتدفئ برودةَ أوصالها، التمعت عيناها بذكْرى ذلك المكان الكَريه، واشتمّ أنفُها رائحتَه التي امتزجت بفوح القهر والتمزّق، ألم يكْفِهما هوانًا وذلًّا في عيون مَن حولهما، هل كانت قدر أبيها الذي يحطّ دومًا من شأنه، خرجتْ من أعماقها ضحكةٌ ساخرة وهي تتذكر تلكَ اللحظات الدّامية التي عقبت مأساتها، فلم تكنِ الكارثة في فقد بضع قطراتٍ من الدّماء، بل كانتْ في بداية الخوضِ في بحرٍ منها، فلم تنتَهِ الكارثة بنهايةِ التحقيق؛ بل بدأت! تشبّع لسانُ الجَميع وقتَها بالعبارات الدّينية كـ»صبرٌ جميل، اللهُ المستعان، حسبنا الله»، ثمّ ما لبثوا أنْ ألقوا بقناع الإيمان في أوّل سلّةِ مهْملات بالقرب من ظهورهم التي استدارتْ لهما، لتبدأ ألسنتُهم الشاحذة

التي كانتْ بالقريب تتلو آيات الله وأحاديث رسوله- صلّى الله عليه وسلم- في نهشٍ ما تبقّى منهما، حتّى الذين ظنّتهم يهتمّون لأمرِهما؛ سارعوا بالابتعاد عن سوادهما القاتم، كالفراشات نحو النور، واحدًا تلَوَ الآخر، فبقيتْ هي وأبوها وحيديْن عاريَيْن يستتران بالظلام، تتلصّص عليهما عيونٌ ما كانت تتجرّأ على النّظر إليهما، وتشرحهم ألسنة ما تمنّت إلّا إلقاءَ الصّباح عليهما، سنوات لم تفقْ من صخب دقّ أزيزه في أذنيها، وسحابة غائمة ألقتْ بالحزن في عينيها، لكنْ ما لهذا المكان وما لها!، هل عقدَ صفقته معها باللامغادرة، تُرى هل يتذكّرها أم نسيَها؟ لقد شاخَ وترهّل وتجعّدت حوائطه، حتّى هي لم تعدْ تلك الطفلة الصغيرة الباكية الجاهلة بعاقبةِ ما حدث، الملتصقة بقدمِ أبيها، وما أن مرقَ ذكْرُه في رأسها إلّا وكان أمامَها كالحبيب الذي ما أن يَشدّك الحنين إليه إلّا وتجده أمامَك، بصحبة رجلٍ تشي هيئته أنّه محامٍ، اقتربَا منها، ليقول الرجل: - سأحضر معكِ التّحقيق يا آنسة ورد فاطمئنّي، لكن من الأفضل أن تخبريني لو أنّك تعلمين سببَ استدعائك حتّى نستعد.

الذّهول يلفّ ملامحها التي حدّدتها طرحتُها البنية، فانتقبت بالدهشة: - أعرف ماذا! أنا لا أعرفُ أيّ سبب يمكن أن يُلقي بي هنا؟

هزّ رأسه بهدوء، وهو يرفع كتفيه، ويتمتم:

- ما علينا إلّا الانتظار لنرى ونعرف!

لم ينْهِ المحامي كلماتِه إلّا ونادى حارسُ غرفة وكيل النيابة اسمها، تمنّى والدُها مرافقتها، لكنّه سيضطرّ للانتظار الذي سيمزّقه إربًا حتّى يعرف ما الذي يمكن أن تكونَ قد جَنَتهُ يدَا ابنته البريئة التي لفحتِ الحياة وجهها بلظَى الظلم مبكّرًا بلا أيّة جريرة، لقد قامتْ قيامتها وفُصل في جحيمها الدّنيويّ قبل الحساب، هل سيبكي؟ وما الذي يمكن أن يُجديه البكاءُ؟ ومن أينَ سيجيء! لقد هطلتْ دموعُ عينيه كلّها في يومٍ واحد وتشرّبَها قلبه فصارتْ أيّامهما حاذقة بطعمِ ولوْن الملح، بيضاء السّطح، دموية الأعماق، يعرفُ أنّها ماتت هناك في تلكَ الغرفة، ذُبحت وانفرطتْ دماؤها بلا جانٍ أو عقاب، وما يحيا منها معه إلّا بقايا رفاتِها ليسنده حتّى لا يخرّ، كم حاول أنْ ينفخ في صدرها، ولوْ بآخر أنفاسه لتتقيّأ صديدَ جرحها وتعود للحياة، لكنّه ما استطاع، وما كانت تُبْديه من وهْم الاستجابة إلّا ضيّ خافتٌ من فتيل جسدِها المُحترق لينير قبرهما الدنيوي معًا.

دخلتْ ورد حجرةَ وكيل النيابة بثبات، فقد اعتادتْ تلك الرهبة وزحفت في قبْوها منذُ نعومة أظافرها، كلّ الغرف والمكاتب والكتبة والوكلاء واحد، لا يتغيّر إلّا التّهمة والمتّهم، وفحْوى الكلمات، ومقصد النظرات، وقفت أمامه بشعاعِ تحدٍّ في عينيها السّوداء الواسعة فاتّصل بعينيه فبَرَق، لاحظ أنفها

المدبّب المرفوع بِعزّة، وملابسها العصرية المحتشمة، أشار لها بالجلوس وهو يقول: - الآنسة ورد محمود سامي؟

هزّت رأسها بالموافقة.

وبصبرٍ أمالَ عمار رأسَه وهو يعقب:

- في التّحقيقات الرسمية لا تفي لغةُ الإشارة بالغرض، لو أمكن تعريفٌ سريع عنكِ.

امتعضتْ ملامحُها قليلًا، ثمّ رفعَتْ هامتها بثبات: - ورد محمود سامي، ستة وعشرون عامًا، خريجة كلية فنون تطبيقية قسم إعلان، أعملُ في مكتب تصميم د. سامي بمدينة السادس من أكتوبر، محلّ إقامتي هو ما جئتم بي منه.

انتظرَ نهاية كلامها، ثمّ أضاف:

- متزوّجة؟

- لا، لم أحظَ بعد بذلك الشرف.

تدخّل المحامي ليقلّل حدّة التوتر الذي لا يعرف مِن أين جاء: - ما سببُ الاستدعاء سيدي الوكيل؟

أسندَ عمار جسدَه على مقعده الجلديّ عائدًا به إلى الوراء، ثمّ قالها بهدوء ونظراتُه كلّها موجّهة صوبَ عيني ورد: - مقتل الأستاذ رضا الشالي هو سببُ الاستدعاء.

في دقيقة تباطأت ثوانيها فبدَتْ كعامٍ كامل، تعاقبَ على وجه ورد قيظُ الصيف وجفافُ الخريف ووجومُ الشتاء وأتربةُ الربيع، فتلوّن وجهها بألف لوْن، ثمّ تَلبّسها الغضب كجنّي لن ينصرفَ حتّى لو تُلي عليه القرآنُ كاملًا، هبّت واقفة وهي تقتربُ من حافّة مكتبه مُسندة كفّيها بقوّة، فبدتْ ككتلة صخريّة انْحدرت إثرَ زلزالٍ أرضي، ولن تتوقّف حتّى تدهسَ مَن ستسوّل له نفسُه بالوقوف أمامها: - أهذا سببُ الاستدعاء؟! مقتلُ ذلك الوغد المسعور! لم أكنْ أعرف أن وكلاءَ النيابة يحقّقون في مقاتل الكلاب.

ضربَ عمار المنضدةَ بكفّه، وقدْ نفدَ صبرُه لجرأتها: - محْسوب على البشرية إنسان مثلك!

اقتربتْ أكثر حتّى خالَها تستعدّ للَكْمه، مخيفٌ هو حالُ المظلوم إذا ما كبّلتَه بظلمٍ أضيق: - مثلي! ولماذا لم تُحسَب خمسُ بنات صغيرات على البشرية كأناسٍ، أم حَسِبتمونا حشراتٍ دُهست بحذاءِ وحشٍ آدمي بلا دية أو عقاب!

تسمّرت حدقتَا عمار أمامَ عينيها التي عرضت شاشتها سبعة عشر عامًا في لمحاتٍ قصيرة، رأى فيهما نارًا مؤصدة تنتظرُ لحظة انفجار، ثمّ ما هي إلّا ثوانٍ وخرّت ساقطة على المقعد، أخرجتْ زفرة من قلبِها الذي لم يعدْ به متّسعٌ لألم وهي تسندُ صدرها بكفّها كأنّه سينفجر من فرط ضيق، كلّ ما حاولته السنوات الماضية أن تُضفي صلابةً على عودها المجتزّ حتّى لا يسقط جذعُ أبيها، ليأتي الآنَ مَن يحاول أن يقصمَ ذلك العود! التفتت إليه لتتكلّم إلّا أنّ المحامي كان سابقها: - وهل هناك تهمةٌ محدّدة موجهة لموكلتي؟

تنهّد عمار بهدوء:

- وهل ذكرتُ شيئًا عن اتهام! إلى الآن ما هو إلّا مجرّد أخْذ أقوال، لا نعلم إلى أينَ ستسير بنا. ثمّ التفت لها وبادرها: - هل أخذتِ إجازةً من عملك في الفترة ما بين ١٥ و١٧ أبريل؟

عادتْ لهدوئها بعد أنْ مسحت وجهَها بكفّيها كأنّها تُغلق شاشة عرض ما تمنّت أن تضيء لأحدهم يومًا لتجيب بحزم: - أنا لا أغيب عن عملي قط.

- ومتى ينتهي وقتُ عملك؟

- في السابعة مساءً.

تبادلَ عمار نظراتٍ مع مروان الذي لم تشعرْ ورد بوجوده، ثمّ ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ هادئة مُطمَئِنة وهو يقول: - آنسة ورد، أقدّر مشاعرك وسخافةَ الموقف، لستُ ضدّ أو مع، أنا وكيل نيابة، وأمامي جريمة قتلٍ يجب التحقيق فيها.

همّ المحامي بالكلام إلّا أنّ «ورد» استوقفته بحركةٍ من كفّها: - هل يجوز لي توجيهُ سؤال لكَ سيدي؟

- تفضّلي.

- هل هناك دليلٌ أقيم عليه هذا التّحقيق، أم هو نتيجة لذلك الحادث القديم بقدم الظلم؟

الثورةُ تندلعِ من ثناياها وأحرفِها، عيناها لا تهدأ، بريقهما يعلن اللعنة على كلّ ما سُطّر وكُتب وقيل وحُكِم به في ذلك الملف، فهل ما أوصلها لتلك الحال هو الحادثُ بعينه، أم ظلمُ الحُكم! أم الاثنان اجتمعَا وتنازعَا على قلبِها فتفجّر اعتراضًا؟ أجابَ عمّار بتؤدة: - أمامنا ما لنْ يجعلنا نغفلُ عن أثر تلكَ الحادثة في مقتله، لذلك سيطول معكِ التحقيق، لكنّه سيتوقّف الآن لتلتقطي أنفاس المفاجأة.

- هل معنى هذا أنّها قيدُ الحبس؟

قالَها المحامي وهو يستعدّ بكلّ أدواته لتلك المعركة التي يعرف كيف سيخرُج منها بموكّلته، ضغطَ عمار زرّ جرسٍ بجانبه وهو يرفع يدَه بعدم المُماطلة: - الآنسة ورد ستنتظرُ ساعات قليلة لحينِ استدعائها مرّة أخرى.

ظهرَ الحارس ليقتادهمَا إلى حجرةٍ صغيرة وتبعَهما أبوها، ستبدأ المداولة على ما يمكنُ أن يُقال وما لا يُقال، عن ما حدث وما لم يحدث، ظنّت أن العاصفة خمدتْ بعد أن ردمتها رمالُها في قبرٍ لا قيام منه، ليأتي من ينبش عنْ رفاتها ويقيمُ عليها حَدّ القتل؛ لا لردّ الظلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما أنْ أغُلق الباب حتّى تعالت ضحكاتُ مروان:

- تلك الفتاة حماسيّة أكثر من اللازم.

- هل تضحكُ يا مروان! الفتاة بالفعل تشتعلُ في جنباتها نارُ ظلم طالها وصديقاتها، ومِن الجائز أن تكونَ هي شرارة مقتل رضا.

- لا أعرف ما سرُّ إصرارك أنهنّ مَن قتلنه!

- حدْسي، وسيثبت.. المهمّ، أين الباقيات؟

- أريج في الانتظار بعيدًا عنِ الأنظار، الثّلاث الأخريات تغيّرت عناوينهن، والبحثُ جارٍ؛ لا تقلق.

- فلنُحضر التالية.

ذمّ مروان شفتيه، وزمجرَ ساخرًا:

- لكنِ احذر، تلك الطفلةُ الصغيرة التي التقيتها على الأوراق أصبحت كاتبةً شهيرة لها كيانٌ أدبيّ له عمقٌ في كثير من النفوس.

ظهرتْ على وجه عمار علاماتُ دهشة:

- كاتبة!

هزّ مروان رأسه، وكان قد طلبَ من الحارس إحضارَ أريج المهدي، بينما همّ هوَ بالانصراف عنْ حجرة عمار التي شهدت خطوات ما لا يمكن حصرُه من أقدام، وما تركت بصمة عنده، إلّا أنّه بمجرّد أن وطئت أولى أقدامها أرضَ الحجرة أعلن كيانه كلّه التوقفَ بتوقيت عينيها، لم يشعر يومًا بمَهابةٍ كمهابة طلّتها، ولا جمالٍ كجَمال نحتِها، ولا أريج كأريج قدومها بلا عطْر، صدقَ مَن أسماها، أرادَ أن يختطفها في تحقيقٍ لكنْ يبدو أنها هي مَن اختطفته في دائرةِ ضوء فُتحتْ لترتشف جزءًا من روحه وتُغلق دون أنْ يستعيد ما ضاع، فهل

أمرتْه عيناها البنيّة العميقة بالوقوف ترحيبًا أم أمرَه جزءُ روحه الذي امتلكتْه على قدر، لم يشعرْ إلّا وهو منحنٍ بذوقٍ يدعوها للجلوس: - تفضّلي أستاذة أريج. قالها وهو يشير تجاه المقعد.

ابتسمتْ بهدوء وثقةٍ شقّا ما تبقّى له من روح، وعبثًا بأضلعه التي لم تعبث بها أخرى، حتّى وضع الإعجابُ أولى بصماته على قلبه: - ألا يصحبُكِ محامٍ؟

حدقته بنظرة باردة:

- ولماذا أحتاجه؟ واثقة أنّه أمرٌ عابر، خاطئ، وسينتهي.

ابتسمَ لثقتها:

- هل عرفتِ سببَ استدعائك؟

قالها وندِم، هل شقّ عليه مباغتتها كورد؟ أم أرادَ أن يمهدَ لها حريرًا فوق الشّوك حتّى لا تدمى قدماها؟ عليه أن يوقفَ ذلك الذي يعتمل بين جنباته ويبقى على خطّ ثابتٍ معهن، في حجرته لا ظلمَ اليوم، أطال النظر إليها ينتظرُ إجابة فلم يفارقها الهدوءُ والثقة كأنّهما أدواتُ زينةِ وجهها النقي، تمتمت: - رجالُك أوفياء، فلم ينبس أحدُهم ببنت شفة!

لنْ ينكر أمامَ قضائه العادل أنّ الكلمات التي تمنّى خروجها مباغتة قد تذبذبتْ بين شفتيه، تمنّى إلقاءها دفعةً واحدة، لكنّها خرجت مرتعشة: - مقتل الأستاذ رضا الشالي.

أيّ سائلٍ سيأخذ وقتًا للتجمّد، وأيّ صلب سيأخذ وقتًا ليذوبَ مهما قصر، لكنّه يقسِمُ أنّها تجمّدت وذابت في ذات اللحظة، لتهمس بدهشة: - قُتل!

ثمّ انتبهت بعدَ فترة صمتٍ وذهول قصيرة، تركها فيها ليقرأ ما يقذف به كيانُها على ذلك الوجْه الرقيق، فأكملتْ وهي تضع يدَها على صدرها بدهشة، وتقول بتؤدة: - وهل أنا متّهمة بقتله؟

عاجلَها بِحدّة حاولَ أن يضفي عليها جديّة:

- هل سيزعجُك الاتهام؟

حدقتْ فيه بثباتٍ وبرود كأرضٍ ثلجية لن يذيبها ربيع، تعجّ بسناجب وأرانب وذئاب ودببة، لكنّها لن تُظهر أحدهم إلّا وقت الحاجة، غاصت في المقعدِ بارتياح، ثمّ أرخت جسدَها وقالت: - هل سأكذبُ وأقول مُنزعجة! على العكس، أرى أنّي قادمة على حادثة مضادّة ستمحو أثرَ صدمتي السابقة.

- كيف ستُمحي تلك بهذه؟

ابتسمتْ بتؤدة:

- كفاقدي البصر عندما يصطدمون بالجُدر، فيضحي جسدُهم ببعض الدماء ليرونَ ما عميتْ عنه أعينُهم لسنوات، وشيء في ما تقول يحدثني بانقشاع غيومٍ طالت بلا صيّبٍ.

ضاقتْ جفونه على مقلتيْه، ثمّ قال بلهجة تقريرية:

- ما نحن فيه ليس انقشاعًا للغيوم، بل تكاثفها.

زادتِ ابْتسامتها، ورمقته بنظرةٍ غير محدّدة المعنى: - حتّى لو خرجَ من خلف ضبابكم حبلُ المشنقة سيكون أفضلَ حبال العالم، على الأقلّ سيرسل روحي إلى نعيمٍ قد تضنّ به الحياة.

- أهو اليأس؟

- بلْ هو قمّة الأمل في الرحيل عن عالم الغوغاء.

- ذلك العالم هو الحياةُ بسعادتها وشقائها.

تجمّد ما انصهرَ منها، ورمقته بنظرة ثابتة:

- أيّ سعادة تقصد؟ ساعاتُ صباي التي كانت تمرّ على صفيح الألم السّاخن، أنتظر ساعاتِ الفجر علّ نسماته تبرد كياني المتّقد، أم أيام شبابي الوحيد بعدَ فراق أمّي وأنا أتوهّم قلبها النابض بالألم يسبقني إلى فراشي ليمنحنني دفئًا وأمانًا، فبعدَ ما حدث وهي تحيا بدونه، حتّى أنها تركته عندي ورحلتْ عن عالمنا وهي لا تدري أنّ الروح منّي عانقت قلبها ودُفِنَا بداخلي في قبري العميق قبلَ موعد مأتمي، ماتتْ هي ودُفِنْت أنا قبلها.

كانت تتكلّم بينما هو يتفحّص ملامحَها الهادئة بثورة، القاسية بحنان، الودودة بكراهية، الجامدة النابضة الرّاقدة في تابوت الموت: - هل أنتِ متزوّجة؟

- بالطّبع لا. قالتها بمنتهى التحجّر والكبرياء.

- ولمَ بالطّبع قبلَ لا؟

زفرتْ شهيقها بهدوء، ثمّ التفتتْ إليه في تحدٍّ:

- أعظمُ علامات الحرية أن تقول «لا» لكلّ ما اعتبره البشر ناموس الكون، وأنا قلتُها للرجال.

استفزّته عنصريتها:

- قلتِها بنفسك، ناموس الكون!

ازدادتْ نبرةُ التحدّي بالرّغم من انخفاض صوتها:

- كثيراتٌ يتمنّين أن يقلْنَها، لكنْ تحكمهنّ العادات والأعراف وألسنة الناس الحِداد تعتقلهنّ الأفكارُ الجامدة عن المرأة التي لم تتزوّج فيطلقون عليها العانس، وعلى الرّغم من أنه لقبٌ للنّساء والرجال على حدٍّ سواء إلّا أنّه لا يُطلق في مجتمعاتنا إلّا على المرأةِ كوسيلةٍ للاستفزاز، ويقولون للرجل أعزب.

امتعضتْ قليلًا، ثمّ أنهت حديثها بالقاضية:

- قلْ لي، مَن يستحقّ أن أزيّف نقصًا حدثَ في جسدي من أجله؟ أو مَن ذاك الذي يرقى لأجلسَ أمامه تعصرُ يدي بعضهما فأخبرُه بفقداني تلك القَطرات، صدقًا لم أجدْ بداخلي الرغبةَ لاقتناءِ أحدِكم بأيّ طريقة منهما.

ثمّ ابتسمتْ بسخرية، وأشاحتْ برأسها في اتّجاه بعيدًا عن نظره.

- ألهذا الحدّ اغتالتْ تلك الحادثة توازنك؟

لا يدري لماذا قالها، يراها بحرًا كلّما قطع منه موجًا أراد أمواجًا، هل يبحثُ عن موجةِ الانكسار التي ستأخذُه في قلبِها وتغيبُ به بلا ظهور أو وفاة!

التهمتْه بنظرةٍ قاسية شعرَ فيها بعظامِه تتفتّت بين فكّيها: - توازن! هل تعرف إلى أيّ مدى اغتالتْ تلك الحادثة توازني، إلى أن الكرباج ذكرٌ فلم أجلدْ به قلبي ليموت، لكنّي اعتقلتُه بزنزانة، وأغلقتُه بسلسلة، وشددتُ عليها بدون أقفال، فالقفلُ ذكرٌ وأنا لا أريد بداخلي ما يذكّرني بمعنى الذّكورة، فلم يعدْ من المؤلم أنْ أعتقلَ روحي المؤنثة، الأكثر إيلامًا أنْ يعتقلني أيّ ما هو مذكّر.

سادَ صمتٌ مَهيب بينهما، معَ نظرات مُتناقضة مضطربة، كان يجب أن يُوقفَ التحقيق هنا ليلتقط- هو- أنفاسَ المفاجأة، لقد ردّت له الحياة كلماته ولكماتِه لورد منذُ دقائق سريعًا، فلم تمهلْه توبة أو استغفارًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تشعرْ أريج يومًا بحريةٍ كالتي شعرتْ بها في تلك الحجرة الصغيرة المغلَقة المُمتلئة عن آخرها بملفّاتٍ قديمة تنتظر عودةَ التحقيق، والتي تعلم جيدًا أنّ حارسًا يقف على بابها، كيف انطلقتْ روحُها غير عابئة بالجُدُر الصّماء؟ مِن أين أتتْ رئتاها بالصّعداء لتتنفّسه بالرّغم من رائحة الهواء المُختزَن؟ لقد انقشعتْ هالةُ الظّلام المحيطة بها بعبيرٍ من رائحة دماء مقْتله، حدقة قلبها التي لطالما اتّسعت هوّتُها وابتلعتها؛ ضاقتِ الآن بعد أن نبذتْها في ظلّ شجرةِ يقطين، وعليها أن تستسلمَ لالتئامِ جُرحها الغائر بعد رحلةٍ طويلة في بطنِ القهر الذي التقمها طفلة، إنّها متعةُ التحرر التي بحثتْ عنها طويلًا، ماتَ أخيرًا!

أَلَا ليتَ الألم بداخلها يتقزّم إلى بعوضة فتطيحُ بها بنفخةٍ من صدرها الذي ضاقَ بأنفاسه طيلة سبعة عَشَر عامًا، هكذا كان حالُ أريج وهي ممدّدة على أريكةِ الحجرة التي أمرَ عمار باحْتجازها فيها لفترةٍ من الوقت، لم تجادلْ أو تعاند، بل تركت لجسدها وروحِها الاسترخاء، تحتاجُ لتلك الوقفة بعدَ عَدْو مستمرّ في عربة مصفّحة لم تحظَ بإشاراتِ مرور، أخرجتِ السّلسلة التي تحيط عنقها، لمستْ حجرَها الأزرق المتدلّي كشتاتِ روحها، وحدّثته: - كم كانَ شاقًّا عليّ أن أتخلّص من سطوة دقائق اغتصابه لجسدي، تمنيتُ أنْ ألزمه بزاويةٍ واحدة من مشاعرَ مُتناقضة تكعّبت بداخلي، لكنه كثيرًا ما كان يعوي فيدغدغُ معه أوصالي، وينثرُ فضلاته في كلّ الزوايا فينشر ريحَها في رأسي، تلك الرائحةُ هي الأثرُ الوحيد الذي لم يزل بداخلي، لكن آنَ لنا الآنَ أنْ ننهض من الوحل، فمَن لوّث بحيرتنا الرائقة سحبتْ جسده المقتولَ دوّامتها وابتلعته.

وبينما أريج وحيدةً تحظى بأنفاس ما اعتبرته خلاصًا، كانت ورد في حجرةٍ لا تبتعد كثيرًا تتجاذبُ هي وأبوها أطرافَ حديث شاقّ، ليقول: - انصرفَ المحامي لكنّه سيعود، أريد أنْ أسألك قبلَ انفلات خلوتنا من بين أيادينا، هل لكِ يدٌ في ذلك الحادث يا ورد؟

اجتمعتْ في عيني ورد سحبُ شفقةٍ وألمٍ وأسف، فأمطرت رذاذَ حنين، مدّت كفّها لتلامسَ أصابعُها الرقيقة أصابعَ كفّه الغليظة، تلك اليد التي وقفتْ كحاجز قويّ ضدّ اعتزالها للرّجال، فكما يوجد رضا الشالي يوجد محمود سامي، هوتْ برأسها على كفّه وهي تهمس: - أعلمُ كم تآكلنا ولم يبقَ من اثنينا الكثير، الصدأ الذي زحف على ابتلالنا بالعارِ نخرَ دواخلنا، فهل تعتقدُ أنّه يمكن أن أضحّي بك من أجل وغد؟ أن أكونَ الفأس التي تجتزّ ما تبقّى من جذع روحك وتُلقيه في المحرقة؟

- أمتأكّدة أنتِ يا ورد! أخشى أن تجرحني شوكةٌ خفية مختبئة في عودك النّاعم في مقتل، لأنزفَ في بُعدك ما تبقّى لي من دماء، هل تتخيلينَ معنى فُقدانك؟ سأموتُ من الوحدة لأنّي ببساطة لا أجيد العيشَ مع الغرباء.

شقّ على قلبها هوانُ عينيه وضعفُ همسه وتذلّلُ كلماته: - أبي، كيف لي بها! لو كنتُ قاتلته لفعلتُها قبل ظهور محمد!

هزّ الأب رأسَه بارتياح وهو يربّت على كتفها ويردّد: - صدقتِ يا حبيبتى، أردتُ فقط الاطمئنان.

اختطفتْ رأسَه إلى صدرها في حنانٍ أموميّ وهي تقول: - اطمئن، ما كنتُ قاطعة أمرًا بدونك.

ثمّ لاحتْ في عقلها خاطفة:

- هل تعرفُ معنى ما يحدث، سيجمع خمستنا لاتّهامنا، سيجيء بالأبرياء لاتّهامهم في الجاني، أيّ ظلم وأي جور!

ضاقتِ الحجرة عليهما وهي تدورُ بين أرجائها كالنّمرِ الجريح، تُكرِر كلماتها الأخيرة «أيّ ظلم وأي جور!»، استوقفَها أبوها مُمسكًا ذراعيها بقوّة: - ورد، اهدئي. ثورتُك التي تشتعلُ دومًا بداخلك ستُطلق لهيبًا إن لم تحترزي سيحرقك، سيكون سببًا وجيهًا لتشير أصابعُ الاتهام نحوك، وقد يجرّ خلفك طابورًا من أربعةٍ لا ذنب لهنّ!

همستْ بخوف:

- وماذا عليّ أنْ أفعل؟ انصحني كما دومًا.

- الهدوءُ يا ورد، نحن لا نعرفُ كيف قُتل، وما الدّوافع والقرائن التي سمحتْ بالإتيان بكنّ، كما أنّنا لا نعرف ماذا فعلتْ بصديقاتك الأيام، ومَن منهنّ يمكن أن تكون قاتلتَه، قد تلتقينَ بهنّ فلا تلفظنَ لفظًا واحدًا يمكن أن يؤخَذ عليكنّ، حتّى وإن كنتنّ مُنفردات، فتزويدُ حجرةٍ بكاميرات مراقبة ليسَ بالأمر العسير.

تجمّدت عيناها في نظرةٍ لعينيه يملؤهما غيمٌ تخشى الإفصاح عنه، يهمس.. «أمَا آنَ لتلك التعاسة وذلك المرّ مِن انتهاء!»، التقط أبوها حديث نفسها: - لا تخافي، اللهُ حارسكُنّ، وأنا لن أتركَ جانبك حتّى لو كان في جهنم، لكن عليكِ الحيطة والحذر.

تنهّدت بثقلٍ كأنّ صدرها يحمل جبالًا:

- أخشى أن نُظلَم ثانيةً، تلك المرّة ستكون القاضية.

- حبيبتي، لا قاضية ولا ناهية، بل ستكون البدايةَ لنمنح قلبك حياة، تذكّري محمد، وما ينتظرك معه من أمل.

نزلتْ من عينيها شحيحةِ الغيوم دموعًا عزيزة، مسحَ بكفّه على شعرها مطمئنًا، فتمتمت: - كنتَ دومًا جانبًا وركنًا شديدًا، خيمة ما اهتزّت أوتادها على كثرة المَعاويل، لم تحظَ واحدةٌ منهنّ بأبٍ مثلك، لا أتمنّى من تلك الحياة إلّا لحظة سعادة أمنحُها لقلبك الذي شقيَ بي طويلًا.

قالتها وهي تلقي بجسدِها على مقعد جلدٍ أسودَ كسواد زهر لعبةِ أيامها الذي لم يجلبْ حظًّا، ولم يُربحْ دورًا، اقتربَ من أذنها هامسًا: - سعادتى بذرةٌ صمّاء ألقيتْ في أرض بور، لن تنبتَ خضارًا إلّا إذا سُقيت بمطرِ اطمئناني عليكِ.

زفرتْ بقوّة، فكيف ستطمئنه وهي فاقدةٌ للأمان، هل يمكن أن نمنح ما نفقد!؟ أم أنّ السعادة كالحبّ، عابر سبيل يوهمُك أنّه حطّ رحاله على قلبك ثمّ لا يلبث أنْ ينصرفَ سارقًا صُواعَ الأمل في عيرِه، كما إنّه لا يمكن التنبّؤ

بموقفِ محمد عندما سيعلم حقيقة ما اغتالتْه منها الأيام، هل سيبادرها بـ.. «لا تخافي ولا تحزني»، أم بـ «غلبت عليكِ شقوتك؟!»، لقد ظهر ذلك اللّارضا في حياتِها مرّتين؛ مرةً حيًّا لينتزع من جسدِها الحياة، ومرّة ميتًا ليختطفَها للموت الحي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رمادُ فتاة

يجلسُ في صمت يرقبُ دخانَ سيجارة تتآكل بين يديهِ فتستحيل إلى رماد أوشكَ على السقوط..

- منذ متى وأنتَ تدخّن يا عمار؟

نظرَ له كالأصمّ، ثمّ همس بعد فترة:

- أنا لا أدخّن يا مروان، أنا أعشق حرقَ ورقة البفرة التي تغلّف السيجارة لتكشف لي ما وراءها.

- قضية رضا!

هزّ عمار رأسه في هدوء، ماذا سيقول له؟ هل سيعترف بأنه في حالة اهتزاز قلبية، ولأوّل مرةٍ في حياته، وناحية مَن! امرأة يتأهّب ليقيم عليها وصديقاتها أدلةَ الاتهام. انتبه عمار لنظرات مروان التي كانت تتحدث بغير كلام: - ما الذي تريدُ قوله؟

حرّك مروان حاجبيْه عاليًا، وبشفتي امتعاض تمتَم:

- لا يستوعبُ عقلي اشتراكَ الخمس فتيات في مقتل ذلك الرجل.

- ولمَ لا؟

قالَها عمار وهو لا يدري، هل يريدُ أن تدفعه ظنونُ مروان عن حدْسِه الذي لا يكذب، أم ليعرف حقًّا ما يدور بخلده؟

- كيف سيدخلون إلى عرينِه يا عمار؟ هل كانت حفلة لهْوٍ جماعي؟ لقد رأيت اثنتيْن منهنّ، لسنَ ممّن يفعلْنَها.

أشارَ عمار بسبّابته كحركة تلقائية مُعتادة:

- قد تكون محقًّا، لكن يبقى أمرٌ مُبْهم فيما يحدث، لماذا خمسُ سكاكين بالتّحديد؟

أردف قائلًا ليكمل:

- الضربات الضعيفة، وهو كان متأهبًا للقاء امرأة! رأينا اثنتين، دعنا نرى الباقيات.

- زينب في طريقِها إلى هنا، تغيّر عنوانها لكنّنا استطعنا إيجادَها.

- كيف؟

أطرقَ مروان رأسه قليلًا، ثمّ رفعها وقد بدتْ علاماتُ أسف على وجهه: - تلك الفتاة مريضةٌ نفسيّة، عرفنا مِن جارة لهم في بيتهم القديم اسمَ الطبيبِ المُعالج، اكتشفنا أنّها نزيلة مشفاه باستمرار.

لم يكملْ مروان حديثه إلّا وعلا الطرقُ على باب الحجرة، دخل الحارس ليعلنَ وجودَ زينب ماجد شفيق بالخارج. أسرعَ عمار بفضول لما أجرته الأيامُ على تلك الفتاة من متغيّرات: - أدخِلْها.

سمعَ عمار من قبْل عن إنسانٍ فقدَ وزنه فصارَ شبحًا، لكنْ لم يره إلّا عندما دخلتْ فتاة من المفترض أنّها في السادسة والعشرين من عمرها، إلّا أنه لو تُركَ لعمار تقييمُ السّن فلن يعطيها أكثرَ من ستّة عشر عامًا. دخلتْ بصحبة رجليْن تستندُ بذراعيها النحيليْن كمَن أتى من مجاعة على كتفيْهما، ومِن وراء ملابسها الفضفاضة لمحَ صعوبةً تنفّسها كمتسلّق جبال شاهقة وصلَ لتوّه إلى القمة، وبالرّغم من كلّ ما يحيطها من شوك وضعف وحزنٍ يقطر من عينيها إلّا أنّ جَمالها الشّديد لا يخفى على عين، كوردة بريّة لا يمكن تحديدُ لوْنها، تسترسل خصلات شعْر بنيّ هائج طويل في نعومةٍ على كتفيها، ويتدلّى من رقبتها سلسلةٌ تحمل حجرًا أزرق كريستال مشعَّ اللون، دعاهم سريعًا للجلوس وهو يلمحُ الغضب يغلّف وجهَ رجل منهما، فعرف أنّه أبوها، ثمّ تحوّل غضبُه إلى تذمّر: - هل يمكن أن أعرفَ سرّ الاستدعاء الغريب لابنتي المريضة!؟

الكلماتُ ستخرج خجلى بمذاقِ طعم المرار الذي يكْسو الملامح، والسقوط يبْدو وشيكًا، هل يمكنُ لعقله أن يتلاعب به، ولأوّل مرّة!

- قُتِل الأستاذ رضا الشالي منذُ ثلاثة أسابيع، والبحث جارٍ عن الجاني.

اتّسعت الحدقاتُ في ذهول، وارتفعتِ الأكفّ بلا إرادة لتغطي الشّفاه كأنها تخرسُ ما قيل وتصمّ الآذان عن سماعه، لم يصدّق أحدهم أنّ الاسم الذي يحاولون لسنواتٍ طويلة محْوَه من ذاكرتها نُطقَ هكذا بتلك البساطة. شعرتْ زينب بكفٍّ من حديد ساخن صفعتْ أذنيها وتركتهما حمراوين تتّقدان شررًا، ثمّ بدأ الطنينُ يتعدّاهما إلى عينيها بغشاوةٍ من سحابة سوداء تقاومُ لتفتح عينيها ثمّ تعودُ لإغماضهما. بدأتْ رأسها في الدوار فأسندتها بكفّه، ازرقّت شفتاها ثمّ هُرِعت إلى زاوية حائطِ الباب لتفرغ ما في معدتها؛ الخاوية كالمُعتاد، مجرّد حركة هستيرية لا تتوقّف ولم تنتج شيئًا، عبرَ الذهول ملامحه وهمَا يحاولان السيطرةَ على تشنّج يديها وقدميها، وقفَ عمار يسندُ كفّه على مكتبه برهبةٍ وقلق يرمقُ مروان الذي كان يقف محتجًّا بيدينِ متربّعتين على صدره يهزّ رأسه في استنكار كأنّه يقول «ألم أقلْ لك!» ليصرخَ عمار مناديًا: - «طبيب»..

اكتشفَ عندها فقط بعد أنْ حاصرته نظراتُ الغيظ والسخط أن الرجلَ الثاني لم يكنْ محاميًّا كما كان يعتقد؛ بل طبيبها، يبدو أنّ حالتها لا تسمح لها بالذّهاب إلى أيّ مكان بدونه، أسرعوا بنقلها إلى حجرة صغيرة، ثمّ أخرجَ الطبيب من حقيبته حقنةً أعطاها لها على الفور ليبدأ جسدُها في الاسْترخاء بعدَ دقائق، وتتوه في غيبوبة لا يدري متى ستفيقُ منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكنْ بتول التي تدفع عربةَ حقائبها في مطار القاهرة استعدادًا لمغادرتها، تعلمُ بما يجري خلفَها من سباقِ فهودٍ سوداء تعْدو للوصول إليها، أو أنّ الأسلاك الشائكة التي أحاطتْ بها منطقة لغمٍ قد اخترقتها دماء رضا لتذيبَ ما حاولت تجميدَه، وتُصهِر ما اعتبرته فولاذًا، أخرجت جواز سفرِها كالمعتاد للموظّف الذي ما أنْ وقعت عيناه على اسمها إلّا ورفع سمّاعةَ هاتفٍ بجانبه ليلقي ببضعِ كلمات، لم تبالِ بما يحدث إلّا عندما أحاط ذراعيها رجلان..

- ماذا يحدث؟

قالتْها بدهشةٍ وهي تتلفّت حولها، وهمَا يقتادنها في هدوء وصمت، ظنّتهما أولًا شرطةَ المطار، وأنّ الأمر لن يتعدّى تفتيشَ حقائبها للشّك في تهريبٍ أو نحْوه، لكنْ ما زاد الأمرَ قلقًا أنّهما خرجَا بها من المطار كليًّا، بينما كانتْ في انتظارهم سيارةٌ لاصطحابها إلى أينَ.. لا تدري! صرخت في وجهيْهما فتجمّع حولهم بعضٌ ممّن يعجّ بهم المطار..

- مِن حقّي أن أعرفَ إلى أين، ستفوتني الطائرة!

تعالتْ بعضُ الأصوات حول الرجلين خوفًا من أن تكون عملية اختطاف لتلكَ المرأة، فعَلَا صوتُ أحدهما وهو يحدق في الجميع: - استدعاءٌ من نيابةِ جنوب الجيزة، وهذا أمرُ الإحضار.

بدأ الملتفّون في الانصراف، وتحوّل الاحتجاجُ لهمهمات، التفتت للفراغ حولها، ثمّ قالت بخوف: - في الأمر خطأ ما.

ثمّ تحاول إفلاتَ إحدى ذراعيها من ضغط يدِ أحدهما عليها، ففَرَدَ الآخر ورقةً أمام وجهها مباشرة لتجدَ اسمها كاملًا مكتوبًا بالفعل على أمرٍ بالإحضار، لم يبقَ أمامها خيارٌ إلّا الاستجابة، ركبتِ السّيارة ثمّ أخرجت هاتفَها، واستأذنتهما في مكالمة..

- أبي، ألقوا القبضَ عليّ في المطار، أجهل السببَ تمامًا.

انتظرتْ دقيقة ثمّ أكملت:

- عندما أعرف سأعاودُ الاتّصال.

لم تكنِ السّاعاتُ التي انتقلتْ بها عقاربها في دقائق وثوانٍ من المطار إلى نيابةِ جنوبِ الجيزة؛ بهيّنة، ما ذلك الحدثُ الذي تجهله ويمكنُ أن يلقي بها هنا ثانية، ذلك المبنى المقزّز الذي تشعرُ به كعجوزٍ مُسنّ مُتصابٍ، صبغ شعَرَه بصبغةٍ رديئة، فقدَ كاملَ أسنانه، واهترأت لثتُه، يستندُ على عكازٍ خشبي نخرتْه ديدانُ الأرض، ويصرّ أن يتمسّح بها، أفاقت من تلك الصّورةِ المُزعجة على صوتِ الحارس ينادي اسمها، ويفتح لها باب غرفة واسعة، يقبع أمامَ الباب مكتبٌ كبير، رأت وكيلُ نيابة يجلس وراءه؛ متوسط العمر، شعرُه أسود لم يخطّ الشيبُ به سطرًا واحدًا، أنيق، يرتدي بدلة سوداءَ وقميصًا أبيض ورابطةَ عنقٍ من ماركة مشهورة ونظارة ذهبية تشي بمستواه الاجتماعي، كما فضحت تجاعيدُ طارئة خطّها عبوسُ وجهه حولَ عينيه؛ عنْ تحدٍّ قد يرحل بهما إلى متاهةِ اختلاف لا تعلم سببها، يجلسُ بجانبه كاتبٌ هادئ، وجهه يعلوه نظارة طبيّة سميكة، أشار لها وكيلُ النيابة بالجلوس، ثمّ سمعت صوتًا عميقًا يقول: - الآنسة بتول سيد الحسيني؟

امتقعَ وجهها وهي تصحّح:

- السيدة بتول سيد الحسيني.

- متزوّجة؟

- نعم، ما الأمر؟ وما سرّ هذا الاستدعاء الغريب؟ لقد أفلتوا طائرتي.

هزّ عمار رأسَه وهو يحاول أن يُلقي ما يريده دفعة واحدة:

- مقتلُ الأستاذ رضا الشالي هو سببُ هذا الاستدعاء.

أغربُ تعبير رآه إلى الآن كان ما فعلتْه بتول، لقد رفعتْ عينيها إلى السّقف، فتحتْ فمَها الصّغير الوردي بحُمرة طبيعية، واستنشقتْ قدرًا كبيرًا من الهواء ملأ رئتيها، ثمّ زفرتْه براحة، ثمّ وكأنّها تحلّق مغمضة العينين بمفردِها في سماء الحجرة، هزّت رأسها يمينًا ويسارًا كدرويشٍ في حلقة ذكْر، ثمّ رفعتْ كفّيها وأخذت تردّد: - الحمدُ لك، الحمدُ لك، كنت أثقُ بك وما ارتبتُ أبدًا، وها هو قد قُتِل ككلب مَسْعور، نهشَ طفولة أحدهم فسمّمه وليّه فلفظَ أنفاسه بجانب حائطٍ نجس كخلاياه.

ثمّ التفتت إليه، ورفعتْ سبّابة يمناها مؤكّدة:

- غسّلوه سبعًا إحداهُما بالتراب، فلم يكنْ إلّا نجسًا، حتّى لا تضيقَ الأرض باضطجاع جنبِه عليها.

لم يكنْ عمار قد التفتَ حتّى تلك اللحظة لهيئتها، كانت ترتدي عباءة سوداء واسعة، يحيط وجهَها الأبيض كالبدر طرحةٌ ناصعة البياض، تُمسك يدُها

بمسْبَحة لا تتفلّت إحدى حبّاتها من بين أصبعيها، واحدة تلو الأخرى، قطع سؤالُه تسبيحَها: - سيدة بتول، يبدو أنّ الأمر بيننا سيكون أسهلَ ممّن سبقنكِ، لذلك سأسألك مباشرة، هل قتلتِه أو اشتركتِ في قتله؟

ظهرتِ ابتسامةٌ وضّاءة متعجّبة، زادت من انتشارِ نورٍ يسري على وجهها: - أقتله! ولمَ أفعلُ وربّ الكون قدير!؟

- لتأخذي ثأرك.

شدّت هواءً كأنّه ممزوج بعطر، وقالت:

- عرفتُ منذُ ضاقت عليّ الأرض بما رحبت وضاقتْ عليّ نفسي؛ أنّه لا ملجأ من الله إلّا إليه، وأنّني لستُ بحاجة إلّا لدعاءٍ مُستجاب، فقنَتّ، وركعت، وسجدت، علّني أحظى بطهْر البتول، وها هو سبحانه قد استجابَ.

لاحقها بنظرة ساخرة:

- لكنّك لتوّك أقررتِ أنّ والدك قد يكون متورطًا بقتله!

أطبقتْ جفونها ورجّت وجهَها بشدّة لتفيق من تلك الجملة الصاعقة: - والدي! كيف؟

اقتربَ عمار من دفتر الكلتب وهو يقرأ:

- ألم تقولي بالحرفِ الواحد «وها هو قد قُتِل ككلبٍ مسْعور، نهش طفولةَ أحدهم فسمّمه وليّه..»

ارتدّ إليها طرفها واتّسعت ابتسامتها:

- وليّه الذي قصدتُه هو «الله»؛ نعْمَ المولى ونعْمَ النصير، لم أقصد والدي، أتعرفُ أنّه لم يكن يومًا لي وليًّا لأضعَ تلك الكلمة قبله، ثمّ إنّ أبي يا سيدي لم يغادرِ الأراضي السعودية منذُ تركنا تلك الأرض ومَن عليها، وجواز سفرِه سيسقطُ زعمَك حتّى قبل أن تشيرَ نحوه بأصبع اتّهام واحد، أم أنك تريد جانٍ لتغلق دفاترك وتعلنَ انتصارك بزهْو!

بادرَها بعصبية وهو يخبطُ طرفَ مكتبه بأنامله:

- ما السرُّ في هذا التحدّي الذي اجتمعتُنّ عليه!

ولأوّل مرّةٍ منذ أنْ وطئت قدمُها الحجرة تفرّ ابتسامتها ويعبس ما بين حاجبيْها، وبلهجةٍ حادّة بادلته: - سقط حقُّنا منذ سنوات، وكتبت على الأوراق بالحبر الأسود براءته حِدادًا على طهْرنا، فما الذي تنتظر!

- سيدة بتول، ما سرُّ وجودك في مصر في ذلك الوقت بالتحديد؟

- زفافُ ابنة عمّي الوحيد.

- ابنة عمّك! ولماذا لم يصحبك والدُك أو زوجك؟

- والدي في مقاطعةٍ لعمّي، وزوجي لا يفيقُ من عمله، ويمكنك التأكد من ذلك، لقد كان الزفافُ في فندق من الفنادق الشهيرة، ولن يعجز رجالك عن التأكّد.

ثمّ وكأنّها تذكّرت شيئًا، فتحتْ حقيبتها وأخرجت دعوةَ فرح وألقتها أمام عينيه. تلقّفها عمار وهو ينظر فيها ويتمتم: - يجمعكنّ هجومٌ مشترك غريب!

أنصتتْ قليلًا كأنها تُرهف السمع:

- هل قلتَ يجمعكنّ هجومٌ مشترك، ومن قبْل «تحدّي اجتمعتنّ عليه»! ومن قبلها قلت «الأمرُ بيننا سيكون أسهلَ ممّن سبقنكِ»!؟

- نعم.

وضعتْ طرفَ كفّها الرقيق على شفتيها بسعادةٍ ولمعت عيناها:

- معنى هذا أنّ خمستنا اجتمعْنَ هنا، أين هنّ؟ لنا سنوات لم نلتق، يا الله! كم سيكون لقاءً مُشبعًا للرّوح في ظلّ اختفاء ذلك الملعون من على وجه الأرض.

ثمّ رفعتْ كفّها بحركةٍ اعتيادية، وأمسكتْ ما يتدلّى خلف سواد العباءة، وابتسمت ابتسامةَ طمأنينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ما أخبارُ بتول؟ هل وصلتَ في التحقيق معها لشيء مختلف؟

قالَها مروان وهو يتمنّى بشتّى الطرق أن يزيحَ عمار عن ذلك الطريق الذي سيضيّعُ على جنباته كثيرًا من الوقت والجهد هباءً، وسيمنح الفرصة لهروبِ القاتل الحقيقي.

أجابَ عمار:

- لا اختلاف، لم يظهرْ على وجْه أحداهنّ إلى الآن ما ينبئ أنهنّ القتلة، إمّا براءةً وإمّا حرصًا شديدًا، هاتَفتْ والدها وأخبرتْه بسرّ استدعائها، لكنها لم تهاتفْ زوجها.

- تعتقد لماذا؟

- أظنّها تزوّجته بخدعة، فلم تقوَ على محادثته.

حرّك مروان رأسَه، ومع غمزة من عينه داعبه:

- وهل تعتقد أنّ امرأة تزوّجت بخدعةٍ يمكن أن تفتح على حياتها نارًا هي في غنًى عنها، وعن فضيحة الاحتراق بها؟

أكّد عمار اقتناعه بكلامه بإيماءة من رأسه:

- لكنّي أتساءل ما سرُّ تواجدها في القاهرة في تلك الفترة بالذات، بالرغم من استقرار الأسرة بأكملها في السعودية منذ سنوات طويلة، حتّى زوجها لم يغادرها، هل يمكن لفرح ابنة عمّها أن يجعلها تأتي وحيدة؟ أم أنه كان حجّة ملائمة لتوقيت الجريمة؟

أسرع مروان مستفسرًا:

- أين هنّ الآن؟

- متفرّقات، لن يجتمعنَ إلّا عندما يكتمل قمرهُن، لتسطع الحقيقة في وجه السماء، بقيت واحدةٌ يا مروان، على ما أتذكر تسنيم العطار، لكن قل لي ما أخبارُ مراقبة حسني؟

- مراقبة حسني تصل إليّ يوميًّا، لا غرابة في تصرف أو طريق أو مشوار، عمله، أهله، المقهى، بيته، لم يتغير حاله المادي. وأمّا عن تسنيم فهي الوحيدة التي لم نعثر حتّى الآن على عنوان لها، لكن الرجال لا يتوقفون عن البحث.

- الخوف أنّ والدتها أجنبية، يمكن أن تكون خارج البلاد.

نفى مروان بسبّابته:

- لا أظن، تحرّياتنا أثبتت أن أمّها ماتت ودفنت هنا منذ عامين فقط، الفتاة موجودة، وسآتيك بها، لكن....

- لكن ماذا؟

أطرقَ مروان قليلًا ثمّ عاد ليقول:

- سأعاود عليك الكلام، هل تظنّ أن فتاة مثل زينب قتلت أو اشتركت في القتل ولو حتّى بالرؤية؟

ثمّ رفع كفّيه وفتحهما على وسْعِهما كأنه يتبرأ من إثم:

- أنا لا أظنّ.

تنهّد عمار تنهيدة ثقيلة، وحدق في مروان وهو يرفع حاجبًا عن آخر: - لا، لم تشترك زينب، وهذا ما يثبتُ وجهة نظري، تعرف أيضًا، ستخرج أخرى من دائرة الشك، لكنْ دعني أقول لك مَن هي بعد اللقاء بتسنيم.

قطّب مروان حاجبيه:

- ما السرُّ في هذا التخمين؟

- سيفسّر هذا الخمسُ طعنات والثلاثة أحذية، اثنتان لم تشتركا.

زمجر مروان متمتمًا:

- لكنّها أحذية رجالي!

- وهل من الصّعب!

بهتتْ ملامح مروان، وعبثتْ أنامله بشَعْره الكثيف وهو يقول:

- تقصد أنّ ثلاثة فقط منهنّ قتلنه، ولكنْ بخمس طعنات ثأرًا للاثنتين المتغيّبتين غصبًا؟!

- نعم. هذا التفسيرُ المقبول الوحيد لديّ حتّى الآن.

- فلتخرج زينب من الدّائرة، وترحمها من تكوّرها في تلك الحجرة.

زفرَ عمار بضيق:

- يا رقيق القلب، زينب ستكون وسيلةَ ضغط، لاحظت برغم الفراق إلّا أن شيئًا عميقًا يربطهنّ في قيْد واحد، وسأمنحهنّ لقاءًا قريبًا؛ لذا جهز لي حجرةَ مراقبة صوتًا وصورة.

بدأ مروان في الاقتناع برأيه، هذا الرجلُ داهية تحقيق، وعلى ما يبدو أنّه على وشك إثباتِ نظريته، لاحظَ عمار ما يجري على وجْه مروان من تغيّرات.

- ما سرّ هذا التفكير العميق؟

- بدأت أقترب من الاقتناع، لكن خذْ نصيحتي.

- هاتِها.

- كما رأيت.. هنّ مجروحات بهتْك وظلم وسنواتٍ شداد، لا تعاملهنّ بتحدٍّ وندّية حتّى يبحنَ لك بمكنون صدورهن، المرأة عندما تثق تبوح.

ضحك عمار وهو يكرّر كلماته:

- المرأة عندما تثقُ تبوح! ما المطلوب منّي أن أعدَ كلّ واحدةٍ منهنّ على حدةٍ بالحبّ والزواج حتّى يعترفن.

ملأتِ الدّهشة وجهَ مروان وقال معترضًا:

- لا يا عمار، ليس الحبُ والزواج وحدهما ما يجعل المرأة تثق.

أسندَ عمار رأسه لكفّه مُستسلمًا، وبابتسامة ساخرة قال:

- قلْ يا خبير.

ارتفعتْ ضحكات مروان:

- نعم خبير، هل تريد أن تستحوذَ على كلّ الخبرات؟ أنت خبير كشف جانيات، وأنا خبيرٌ في قلوبهن، وليس كما قلت لك الحبّ والزواج وحدهما، الرّجولة، الأمان، الشهامة؛ كلّها أشياء قد تجعل المرأةَ تركن وتعترف، تعرف، عالمُ المرأة أجمل بكثير من عالمنا!

- كيف أجمل؟

- المرأةُ لا يمكن أن تخونك طالما أحبّتك، أمّا نحن....

تكرّرت ضحكاته وهو يزيد:

- يمكن للحبّ الوحيد أن يعبثَ بقلوبنا، لكنّه لا يفقدنا متعة العبث بالأخريات.

أثارَ تعليقُ مروان شيئًا في نفْس عمار، تراها ماذا تفعل الآن وفيم تفكر، مروان مُحق، ليس الحبّ وحده ما يفتّت الحواجز، هناك حواجز لا يفتتها إلّا الأمانُ والأمانة والعدل، فهمس داخله..

- فلتعدل يا عمار، ولتنمْ تحتَ ظلّ شجرتك، وستأتي الجانية على مهلٍ واستحياء لتجزيك أجرَ ما سقيتها من عدل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يعرف كيف دخلَ عليه بتلك العاصفة الهوجاء، وكيف له بتلك الجرأة في الكلام!

- هل ستظلّ ابنتي مُلقاة على تلك الأريكة، تموت في كلّ دقيقة، حتّى تعثر أنتَ على قاتل ذلك الحقير الذي ما استحقّ الحياة يومًا، فليذهب رضاكم هذا إلى الجحيم، ولتذهبوا معه.

أوشكَ عمار أن يردّ عليه عصبيّتَه، إلّا أنه تذكّرَ نصيحة مروان: - لا يا أستاذ ماجد، سآتي معك حالًا لأخيّرها في أمرها.

خجلَ والدُ زينب من هدوءِ عمار وذوقه الذي تحدّث به، لكنه احتار في معنى كلامه: - أيّ خيار هذا؟

- عذرًا سأتحدّث إليها أولًا.

وقفَ أمامها وهو حزينٌ على ما يراه من نهايةٍ بطيئة لروح رقيقة جميلة، كعصفور تشقّقت بيضتُه عنه لتوّه سقطَ من عشّه في يوم مطير، وضلت عنه أمّه، والنهايةُ المحتومة هي الموت، ابتسمَ وهو يحمل مقعدًا ويضعه بالقربِ من الأريكة التي تحتضنُ شبحَها، جلس وهو ينظر إليها برقة: - سامحيني، استدعاؤك كان لا بدّ منه، يمكنك العودة إلى المشفى.

كادتْ تردّ، لكنّه رفع يده طلبًا للتمهل:

- ويمكنك أيضًا الانتظارُ قليلًا حتّى تجتمعي بصديقاتك، ثلاثتهن هنا، بقيت تسنيم، وهي على وشك المثولِ أمامنا، وإن كان خيارُك الرحيل سأحضر أنا إليكِ إذا احتاج الأمر.

تبدّل شيء على وجْه زينب، خيوط حبٍّ حمراء اجتمعت لتسحب شحوبًا كساه عمرًا، وارتسمتْ على شفتيها ابتسامة طفولية رقيقة، روتها دموع شوقٍ انْسابت من طرفي عينيها العسليتين ما لبثتْ أن انقطعت بأمر منها، ثمّ قالت بلهفة: - حقًّا، سأنتظرُ لقاءهنّ علّ جسدي يستردّ روحَه الهائمة برؤيتهن، فيتعرف على مَلك الموت وينتزعها لأرتاح.

ثمّ ابتسمت له ابتسامةَ مودّة بلّلت بعدها شفتيها بريق يبدو أنّه جرى لتوّه، عمار كان يعرفُ النتيجة مسبقًا، أعجبته الفكرةُ في استبقائها ولمح في منطقِ مروان بعض الحقّ، الآن سيخترق الحاجز أكثرَ كما أوصاه، لكنه جدّ حزين مِن نبرة اليأس التي تتراقصُ في صوتها ولا تناسب شبابها..

- هل يمكن أن نتحدّث قليلًا، بدون كاتب أو أقوال، مجرّد حديثٍ شخصي يا زينب.

همّ والدُها بالاعتراض، إلّا أنّ طبيبها جذبه من يده:

- دعْها، مَن يدري، أريد في حياتها شيئًا إيجابيًّا، كما أنّنا لن نصل لأبعد ممّا نحن فيه، وسننتظر بالخارج متأهّبين.

خلتِ الغرفة إلّا منهما، أطالَ النظر لوجهها وهو يقول:

- تشبهين أختي الصغيرة يا زينب، لكنّها تُوفّيت فجأة منذ سنوات بحمّى شوكية، هل يمكن أن تكونينَها!

أغمضتْ عينيها، لو يعرف أنّها لا تملك القدرةَ على أيّ شيء إلّا أن تكون جثمانًا هامدًا تحتَ الأرض، لكنْ ما حيلتها ولم يأذن اللهُ بعد. هزّت رأسها بلطفٍ وطفولة علامة الموافقة.

أشارَ لها عمار بكفّه:

- فلتتكلّمي عن نفسك قليلًا.

تسمّرت مقلتاها أمامَ عينيه، تعرف اللقطةَ التي يريدها، ليس شرطًا أن يصحبَ الجنون الغباء، ولا أنْ يفقدك الهذيانُ الرغبة في البوح، حسنًا فلتكنْ كالشجرة التي لن تثمرَ إلّا مرة واحدة لغريبٍ عابر، لم تتوقع جلوسه أسفلها، ثمّ فليَحرُم ظلّها وثمرُها على الجميع، ابتعدت بعينيها وهي تهمس: - أعرف مِن أين تريدني أن أبدأ، مِن هناك حيث الصرير الأول لباب الغرفة التي ارتشفَ فيها روحَ زينب القديمة لتخرج غير التي دخلت، فأعجبَه الكأس فتناوله دفعةً واحدة، فلمّا فرغ أسقطه ليتحطّم ألف قطعة.

سحبَ عمار شهيق أسى وأسف، فزفر استفسارًا يملأ رأسه:

- لو سألتك، لماذا كانت البدايةُ من عندك هل سيضايقك سؤالي؟

هزّت رأسها علامةَ الرفض، بل زادت بأنها نهضت واعتدلت في جلستها: - لا، لن يضايقني.

التقطَ عمار تلك اللقطة الإيجابية، مَن يدري علّ قتل هذا الوغد يروي جذرَها الجافّ العطش بعض قطرات الأمل: - هل أطمع في أن نتشارك شرابًا؟

ذُهل والدها وهو يرى الحارسَ يدخل الغرفة حاملًا كوبيْن من عصير، وجّه نظرَه للطبيب الذي أشارَ بالصّبر، قدّم لها الكوب فتناولته بيدٍ مُرتجفة، سحبت أولَى رشفاتها كإنسانٍ دُفن في كهفٍ أو جُبّ طويلًا، وما تلك الرشفة إلّا بداية حياةٍ بعدَ موت، ثمّ فاجأته بكلمةٍ واحدة غير متوقعَة: - الجَمال!

- الجَمال!.

قالها عمار بتعجّب، أيّ جَمال هذا الذي رآه ذكرٌ اقتربَ من الثلاثين في طفلة لم تتعدّ العاشرة!

- لكن كيف عرفتِ؟

- هو، همس أوّل مرّةٍ في أذني بأنّه يعجبه جمالي ولا يفارق عينيه، لكن ليس الجمالُ وحده.

- ماذا أيضًا؟!

- الانْزواء، كنتُ كالقطة الصغيرة التي لا تمتلك مخالبَ ففرضَ عليّ قهره، لم أكنْ أقوى على الدّفاع عن نفسي ضدّ أيّ فتاة، لم يمنحني أبي تلك القوة، «ورد» هي مَن كانت تضمّني في قلبها الأخضر، طمع في جمالي وجُبني.

كانت نظراتُ عمار تفضحُ ما يشعر به نحوها، الشفقةُ احتلّت مقلتيه ولوّنتهما بلوْنِ الاشمئزاز، فأكملت: - هل تعرف، لقد تمنّيت أن أنتصرَ على ضعفي، أن

تنشقّ روحي عن نبتة عزيمةٍ لا أعلم عنْ جذورها بداخلي، حاولت إشعال رغبتي للحياة لكنها كانت محاولاتٍ بائسة يائسة، كعودِ الثّقاب الرطب الذي لا يلبث أن ينطفئ فورَ اشتعاله، لكنّه لا يمرّ بسلام، بل يترك دخانَ حريقه بوابة لمرور أطيافِ عقلي، تمتدّ أياديهم لتتلقّفني، لكن حتّى تلك الرحمة يبدو أنّني لا أستحقّها.

- لماذا تظنّين هذا؟

قالها عمار وهو ينظرُ لعينيها العميقة الغائرة، ثمّ أكمل:

- في مهنتي تلك رأيت الكثيرَ من دموعٍ حبيسة عيون تأبى السقوط، لكني لم أرَ يومًا مثلَ دموعك، ليست حبيسة مقلٍ وجفون يا زينب، بل معتقلة بأمرٍ منك، لا تلبث أن تظهر إلّا وتختفي قصريًّا.

ضربتْ صدرها بكفّها ببطء، وقالت بوهن:

- لأنّني الأولى، الجُبنُ الذي حصد الخطيئة بأكملها، أنا امرأةُ لوط، لكن أينَ أنا وذلك الصّبح الذي ليس منّي ببعيد!.

- امرأة لوط!

ردّدها عمار بدهشة، فقالت بحِدّة:

- نعم، أنا مَن جعلته يطمع بالملائكة.

- لكن، هل هذا كافٍ لتحكمي على نفسك بالموت وأنتِ على قيد الحياة؟

مسحتْ وجهها بكفّيها لتهمس:

- الموت! أراه كلّ ثانية كحبيبٍ ترك طيفه وسيعود، وأنا لن أمَلّ انتظاره، وفيّة، وسأظل، فقلْ لي بربك.. كيف أنتظرُ حبيبي كلّ هذا الوقت ثمّ بدلًا من أن أراه شفافًا أراه بلوْن الدماء، بدلًا من أن ألقاه بين الأرض والسماء أجعل موعدي معه عندَ ذلك الوغد، ليخترق مصيري حية وميتة، هل تقبلها أنت؟

حقًّا، كيف تنتظر الموت طوالَ هذا الوقت ثمّ تلاقيه عند جسد مَن أفقدها الحياة، متأكّد هو أنّ جثمان رضا يخلو من طعنة سكين من يدها المرتعشة الضّعيفة، والتي لا تقوى على قصّ ظفْر لا اقتصاص رجلٍ كرضا، لكن هل كانت تعرف موعدَ مؤْكب السعي والطواف حول جثمانه فأعطتِ الوكالة لمَن رجمَ لها الشيطان، وتراها مَن اقتصّت لها منهنّ فأسقطت عنها فريضة قتله؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تُظهرْ أريج وبتول أيّ اعتراض، حتّى أنّ كلتيهما لم تستدع محاميًّا، كأنّهما اتّخذتَا من الأسْر محطًّا لالتقاط أنفاسهما اللاهثة، إلّا أن شرارة الاعتراض التي بدأتْ من والد زينب امتدّت إلى ورد، المحامي يلحّ في لقاءِ عمار وهو يماطل، لكنّه لن يستطيع أكثرَ من ذلك، ومروان لم يظهرْ حتّى الآن، فتحَ هاتفه واتّصل به يتعجّله: - مروان، أين أنت؟ الموقف باتَ على صفيحٍ ساخن، بدأت الاعتراضاتُ ولنْ تنتهي، وسيفرّ منّي طرفُ خيط اجتماعهن.

جاءه صوتُ مروان مبتهجًا:

- قادم إليك، ومعي القطعُ النّاقص للقمر، يومُك بدرٌ يا عمار.

لا يعرف عمار كيف وجدَها، لكن الأهمّ أنه فعل، الآن ستكتمل الدائرة وتغلق، وحينها فقط سينطلقُ صوتُ جرسها مُعلنًا عن القاتل، لكن عليه أن يكسبَ قليلًا من الوقت. استدعى «ورد»، وتأهّب لإخماد ثورتها، دخلت الحجرة يتبعها المحامي، تبادلتْ معه نظرات تشعّ منها الكراهية: - لكِ عندي مفاجأة!

امتعضت، ثمّ بابتسامة ثقيلة مُصطنعة قالت:

- تمّ القبضُ على قاتل الوغد؟

ابتسمَ عمار بهدوء وهمّ واقفًا:

- زينب هنا، لكنْ حاولي أن تجعلي اللقاء أملًا لها، فاللومُ قاتلها.

هزّت رأسها بلهفة وخضوعٍ للمرة الأولى، اندفعت وراءه صاغرة تجاه الباب لتفحته بسرعة، تصدّع قلبها وهي ترى زينب ممدّدة على الأريكة، هل يُعقل ما هي عليه! مشاعر مُضطربة تجتاحهما، فتحت «ورد» ذراعيها على وسْعهما واحتوتْها كطائر رخّ أسطوري احتضن فرخه فلم يظهر أثره، انهارتْ زينب في بكاء عنيف: - ورد، أنت حقًّا هنا، لنْ ألومك على الابتعاد كلّ تلك السنوات، لكني ما تمنّيت إلّا لقاءك، تعرفين كيف كنتُ أحتمي في ظلك، كيف كنت أهْرَع إليك في خوفي وألمي، لماذا انحسرَ فيضُ بحرك عنّي وتركني ملقاة على رماله التي تحوّلت شيئًا فشيئًا إلى صحراء؟!

مرّرت «ورد» كفّيها على شعرها، والدموع تختنق في حنجرتها تمنع صعودَ الكلمات، تقاوم انهيارَ سورٍ هشّ أقامته حول ضعفها، وبعيون ملؤها حنانٌ أمومي عجيب قالت: - اجتُزّت أوراقي فلم يعدْ لي ظلّ يحميكِ، انطفأ قمري فامتنع مدي وانحَسَرت حتّى عن روحى، لم تكوني المقصودةَ ولا تلومي نفسك، ما حدثَ حدثَ وانتهى هناك.

انتبَه عمار لدخول الحارس إلى حجرته، تركهما ليقابلَ الوجه الأخير لتلك العملة متعدّدة الوجوه، لم يتوقّع ما رآه، فتاة أجنبية لا يخرج وصفها عن تلك

الكلمة، شعرُها الأصفر القصير المموج، ملابسها المتبرجة، عودها الرّشيقُ المتناسق، جمالُها الصارخ، جرأة تشعّ من نظرات عينيها، لكن أكثر ما لفتَ انتباهه ابتسامةُ إغراء وثقة بدتْ واضحة على ملامحها: - تسنيم العطار، تفضّلي.

اعترضتْ بقسوة:

- شكرًا، لا أريد الجلوس، كلّ ما أريده معرفةَ سبب وجودي في آخر مكان يجبُ أن أكون فيه.

سيعتمدُ معها هي أيضًا على عنصر المفاجأة:

- عثرنا على الأستاذ رضا الشالي مقتولًا في شقته.

لم يتوقّع أن ترجّ ضحكتها المكانَ على غفلة منه، فاحمرّ وجهه وهو يلتفت للكاتبِ بجانبه ليجده يتابعها وعلى وجهه ابتسامةُ دهشة كأنّه يرقب مجنونًا، دارتْ حول نفسها دورةً كاملة ثمّ قفزت كأنّها ستحلق وهي تصفق بكفيها: - قُتل!

ثمّ أشارت له محذّرةً أن يكون الخبر غير صادق:

- حقًّا ما تقول! يا لها من لحظةٍ سعيدة أن تخلو أنفاس الحياة من ذلك القذر العفن.

ثمّ تخشّبت لتلوي شفتيها بامتعاض:

- وما سببُ استدعائي؟ هل سآخذُ العزاء على روحه المدنّسة، أم أنا مَن ستغسّله بماء الحقّ للعدالة؟

ثمّ توقّفت، وقد علتْ ضحكاتها الساخرة مرّة أخرى:

- أم أنّكم تتّهموني بقتله؟

راقبَها عمار حتّى اكتفتْ ولم يهتزّ له جفن، ثمّ أشار لها بالهدوء: - أتفهّم شعورك، لكن ما توقّعت كلّ تلك البهجة لمقتله!

- بهجة! وهل رأيت بهجةً بعْد.

قالتها وهي تجلسُ على المقعد أمامه وتضعُ قدمًا على قدم، وتشدّ جسدها براحة، وتكمل: - سأحتفلُ اليوم بمناسبة مقتله، وسأرتدي على روحه وأرواحنا فستانًا أحمرَ قانٍ بلون دمائه.

- لتلك الدرجة!

شدّت على ذقنها بأصبعيْها، وحدقت في عمار بغيظ:

- درجة! يبدو أنّك لا تعي معنى أن يُحرَم جسدك منذ طفولته متعةَ النوم، تطلّ عيناك الجاحظة كيمامةٍ حَذِرة لا تغفو لأنّ البوم يرقب أفراخها، ينتفضُ جسدك معَ بداية أيّ همسة أو لمسةٍ مهْما كان صاحبها، أن يتحول الخوفُ في قلبك إلى فئرانَ تجري حيثما أرادت فتمزّق ثناياه.

- لماذا لا أعي؟ أشعرُ بما تقولين.

أسقطت قدمَها، واقتربت بجسدها من مكتبه، وقد انخفض صوتها:

- لتشعرَ بما أقول يجب أن تتحوّل إلى طفلة يزيل قشرتَها وغدٌ بسكّين غدْره، ولا يكتفي إلّا بعدَ التهام لحمها حتّى تظهر بذرتها فيلفظُها ليحضِرَ أخرى.

- أتحوّل إلى طفلة!

أشاحتْ كفّها باستهتار:

- ضايقتُك، لا عليك فلننتقل للاختيار الآخر، أن تكون لك طفلة تُراق براءتُها بين فخذي أحدِ الذئاب، حينها فقط ستشعر، أمّا وأنت تجلس وراء ذلك المكتب بتلك البدلةِ الغالية والنظّارات الذهبية لتحقّق معي في مقتل قذر لا يُحَسب على الإنسانية الصّماء إلّا ذكرًا، كان يجب أن تجتزّ ذكورته بعد فعْلته؛ فعذرًا أنتَ لا تعي.

توقّفت الكلماتُ على شفتي عمار، وتدثّر بالصمت مدققًا النظر في وجهها الذي تحجّر بعدَ ليونة، وتملّح بعدَ عذوبة، تلك الفتاة الجريئة شرحت له الموقفَ أكثرَ من أيّ واحدة، فهل هي إحدى القاتلات الثلاث؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كواسرُ الذّكريات

- اجتمعَ خمستُهنّ في حوزتك يا عمار، لكنْ عليك بالإسراع، الموقف لا يحتملُ التهابًا، فليس بين أيادينا ما يمكن أن يبقينهنّ قيدَ الاحتجاز، ستُقيم الدنيا علينا.

قالَها مروان وهو يهمّ بالخروج، إلّا أن «عمار» استوقفه بنبرة غضب: - استدْعِ حسني لأعرضَ عليه الفتيات.

هزّ مروان رأسه بالتّنفيذ وغادر، تساءلت دواخله لماذا يخشى لقاءها ومثولَها بين يديه، أغمضَ عينيه وتماسك هنيهة، أمرَ الحارس بإحضارها ثمّ استأذنَ الكاتبَ في الانصراف، يريدها جلسةَ نقاش لا تحقيق علّه يستطيع إسقاطَ الحواجز! لم يختلفْ دخولها الثاني عن سابقه، إلّا أن البصمة انقسمتْ إلى بصمتين، استقبلها بابتسامةٍ ودودة محاولًا إخفاء مشاعر ترتع خلفَ ضلوعه: - أعلم أنّ لقاءنا الأول كان حادًّا قليلًا، لكنْ دعينا نحاول أن نقترب من نقطة منتصف.

لم ينجحِ الاحتجاز أن يفلتَ أعصابها فرَدّت بهدوء:

- وما نقطةُ المنتصف التي تتعلّق عيناك عليها؟ أنْ أعترف بالقتل مثلًا؟

نفى عمار بشدّة:

- لم أقصد، لكنْ دعيني أسألك لماذا لم تعترضي على الاحتجاز؟

لاحظتْ أريج أنّ الكاتب عن يمينه غيرُ موجود، ليس شاقًّا على مثلها فهمه، فليكنْ ولترى، أسندتْ يدها على المنضدة ليسند كفُّها وجهها، أصدرتْ تنهيدة عميقة، ثمّ زفرت شهيقها: - لنْ أبالغ إن قلت إنّي في سجنك أكثر حرية من أيّ وقتٍ مضى.

ابتسمَ وهو يلمح الرّاحةَ النفسية التي نطقت بها ملامحها قبل كلماتها: - هل يمكن أن يكون السجنُ معنًى للحرية؟

رمقتْه بعين هادئة حذرة:

- أعظمُ السجون تلك التي نبنيها لنقيّد بها أرواحنا، وأهونها ما يقيد الأجساد.

- كيف؟!

هوَ لا يسألها لأنّه لم يفهم، بل هي رغبةٌ ملحّة للغوص في أعماقها.

- عمرًا طويلًا لم أكنْ أحادث غيرَ نفسي عن ذلك الأمر، أرسلت روحي إلى قاع سجنٍ شكّلت سياجه المُحكم، سيخ من وحدة، وآخرُ من أنين مكْتوم، حائط اعتزالي للرجال، والذي شكّلته من زَبْر معاناتي، وأفرغت عليه قِطْرًا.

ثمّ استنشقتْ نفسًا عميقًا لتكمل:

- إلّا أنّ رحمة مقتله نقبتْ لي طاقة بين الأسياخ.

رحمة مقتله! أطلقت الكلمة فقرعتْ أذنيه، عاجلها عمار:

- فلتمرّي منها.

التفتتْ إليه بنظرةٍ ماكرة فأخجله تسرّعه، لكنّه ولأوّل مرّةٍ يشعر أنها تفتح له في عينيْها طريقًا ضيقًا، لكنّه هو فقط مَن بيديه اتّساعُه..

- ليس الأمرُ بتلك السهولة!

كرّر عليها سؤالَه لزينب، يثق أنّها الوحيدة التي ستجذب له الجذرَ المدفون حيث دبّ العفنُ فمالتِ السّاق وطُرحت الأوراقُ أرضًا.

- مِن زاويةِ رؤيتك، لماذا أنتنّ بالذات مَن وقع عليكنّ اختياره؟

غابتْ في بعيد، ثمّ عادت تحملُ خيبة تتساقط من كفّيها:

- الجَمال! كنّا من أجمل فتيات المدرسة، كانت مُعلّماتنا يتندّرْن عن فصلنا بأنّه موطنُ الجَمال، هل تصدّق أنّ كثيرات منهنّ كنّ يترقّبن نضوجنا ليخطبْنَنا لأبنائهنّ، ثمّ تغيّر ذلك تمامًا بعد ما حدث!

ابتسمتْ بسخرية، وأكملت:

- ثمّ غيابُ الأب بأيّ شكلٍ مع وجود الأمّ ليهدّدها بقتلها، تلك كانت مقصلته القذرة التي اجتزّ بها عودنا.

داعبَ عمار ذقنه بأنامله لدقيقة:

- إمّا مسافر كوالد زينب، أو متزوّج من أخرى كوالدِك، أو متوفّى كوالد تسنيم، أو قاسٍ كوالد بتول.

هزّ رأسَه باقتناع، ثمّ عقد حاجبيْه مستفسرًا:

- لكن «ورد» كما فهمتُ تمتلك أبًا رائعًا، ويتيمة الأم، ألا يُسقط هذا مقياسَك؟!

صمتتْ قليلًا تداعب أناملَها بخيبة، لتقول:

- «ورد» لم تعتبرْ نفسها يومًا يتيمة، ولا تذكرُ ذلك أبدًا على مسامع أحد، كانت على قناعةٍ أنّ روح أمّها تسكن جسدَ أبيها، فكانت تدعوه بمفردِه أمّي وأبي.

هزّ رأسه مؤكدًا:

- ومِن هنا جاءت غلطةُ رضا ودمّرت «ورد» حذره، فكشِفت جريمته؟

رفعتْ رأسها بأسف:

- لم تكنْ جريمة اغتصاب بقدْر ما كانت اغتيالًا، هل سمعت عن كواسر الذّكريات؟

- كواسر الذكريات!

قالها بتعجّب وهو يحدق في وجهِها الدقيق الذي كلّما وقعت عيناه عليه شعرَ بازدياد الأسْر، كأنّه أغلال قيدت سَنواته المقبلة.

- نعم، كلّ الذكريات تأتي كجوارحَ في أسرابٍ لتنهش خلايا عقلك بمناقيرها، تمزّق مخالبها من جسدك موضعَ هبوطها، كلَّ نقرةٍ وكلّ موْضع مخلبٍ ينزفُ وينزف حتّى لا يتبقّى من الدماء ما يسري فيك، فتشعرُ بنهايتك التي لا تأتي مهْما استدعيتها.

- وكيف أصبحتِ كاتبة في ظلّ تلك الحال؟

يا لابتسامتها عندما تظهرُ بصفاء، أغمضتْ عينيها في خجل، فداعبت رموشُها الطويلة قلبه: - لم يهتمّ أبي لما حدث، فزوجتُه الثانية وأبناؤه منها كانوا أهمّ، وأمّي الحنونُ لا حيلة لها، فسرتُ وحيدة في طريقٍ وعر، تصعد بي روح تشتاق للسموّ، وتهبط بي ألسنةٌ حداد فتفتّتني تحتَ أضراسها، حتّى بلغت ذروة العزلة. وفي ليلة ربيعٍ هلَّ نسيم على مكتبي القابع تحتَ النافذة وقد انزويت في فراشي وحيدة، داعب النسيمُ قلمي الذي طالما أحببتُه وكتبت به تعبيراتي التي أبهرتْ كلّ معلمٍ لغة عربية مرّت أحرفي على ناظريه، بدت وكأنّها رسالة من عالمٍ موازٍ، تناولته بأصابع صغيرة مرتشعة، وقلب وَجِل مُحترق بدموع ساخنة، فكوَتِ الأوراق ونقشتِ السّطور، تذكرت سورة اقرأ فقرّرت ألّا أقرأ فقط، بل سأقرأ وأكتبُ وسيقرؤون كلماتي التي سأخبزُها على لهيبِ جوفي وأنْضِجُها بألمي، وبمرور الوقت عاهدت ربي أنْ يكون قلمي المشرطَ الذي سيُخرج قيحَ مجتمع ظالم وينظّف تلوثه، سيفي الذي سأواجِه به شبحَه، جوادي الذي سأمتطيه فأقطع به العمر الذي أعرفُ أنّه سيعْدو فوق الحواجز لكنّي لن أدعه يسقط بي ثانية.

- ألم تكنْ تلك خطوة لتحرّرك من قيد الحدث؟

- سأكذبُ إن قلتها، لقد ظلّ قلمي رصاصيًّا بلوْن رماديتي، فأنا لست نقية القلب، لكنّي أيضًا لم يستحلْ قلبي بعدُ إلى سواد.

كلّ كلمة تنطقها تقرّبه منها حتّى نسيَ لماذا هي أمامه، أفاقَ من شروده في كلماتها التي سُقيت بطعْم المُر، رفع رأسَه نحوها بنظرةٍ بدتْ مختلفة: - قرأتُ لكِ رواية، شعرت أنّ أحرفها تجمّعت لتصطاد القارئ في شبكة لا فرارَ منها إلّا نهايتها.

- حقًّا، أعجبتك؟

- لن يُزيدك ثنائي سنًا.

أصابتها ومضةٌ من عينيه دعتْها للاستراخاء بين أحرفه لكنّها لم تشعره، تركتْه يتحرق وينتظرُ منها جوابًا، فاضطرّ إلى التعقيب: - بصورةٍ واضحة لا تلاعب فيها، هل ارتكبتِ جريمة القتل أو شاركتِ فيها؟

هزّت رأسَها، وبدا على ملامحها اليأس:

- أيّ قتلٍ تسأل عنه؟ قتل الروح أم الجسد؟ وأيّهما يستحقّ العقاب من وجهةِ نظرك؟ قتل جسدٍ تفارقه روحٌ إلى عالم برزخي لا يحكمه إلّا الله، أم قتلُ روح وهي حبيسةُ الجسد لتتأرجح ما تبقّى لها في عالم بين الحياة واللاحياة يحكمُه بنو البشر؟

رفعَ حاجبه، وبنظرة حادّة عقّب:

- أستاذة أريج، سؤالي واضح، وإجابتك مُراوغة، لذا سأكرّره، هل قتلتِ رضا الشالي، أو اشتركتِ في قتله؟

- أنتَ لم تفهم ما قلتُه لك، لقد ترجّلت قلمي فرمَحَ بي، سنوات لم أقترف فيها إثمًا لطولِ صمتي وسكوني ووحدتي، حملني كنهرٍ يعرف منبعَه لكنه يبحثُ عن مصب، ولمّا فقدناه صرْنا معًا شلالًا لا يتوقّف هديره، لم تعدِ المشكلةُ متقزّمة لدىّ في رضا كشخص، بل صارت أعمق.

- أعمقُ من الاغتصاب؟!

- نعم، في مجتمعٍ يسلخ الذبيحة، ويعفو عن الذّابح، فلماذا سأقتله! الأغبياء وحدهم يفعلون.

- ما معنى أنّ المجتمع يسلخ الذبيحة ويعفو عن الذابح؟

- مجتمعُنا، البشر فيه يسلخون أمثالنا إنْ تكشفت حقيقتنا أمامهم.

- أمثالكم!

خرجتْ من هدوئها ليرتفع صوتها قليلًا:

- نعم. أمواتٌ أحياء، يكشف هياكلنا ضوء الاقتراب، حصد أرواحنا ثمّ امتصّ رحيقها، فذبلت أوراقُنا وهي مازالت مغمضة، قبل أن تسقط علينا قطرةُ ندًى واحدة، حتّى جرفت بقايانا سيولُ قسوة من حولنا، انزوينا ورتَعَ هو، ألا ترى أنّي هنا للتحقيق في مقتله!

اتّسعت عيناها، وضربت أناملها مكتبَه بخفّة لتكمل:

- ألا تُجلسني أمامك تحاولُ أن توهمني بالصفاء والتّفاهم، بينما خلاياك تتمنّى اعترافي بقتله، وعندها لن ترحمَ مجنيًّا عليها قتلتْ ذكرًا أفلتَه رجلٌ مثلُك من العقاب.

سادَ الصّمت وضربت صاعقته جدرانَ الحجرة، لن ينكر أنه يتأرجح منذ أنْ رآها بين ناري الإعجاب ومحاولة الإيقاع بها، حاورَها لتمطر الحقيقة فإذا بها ترعدُ بصوت الظلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تتوقّع أيّ منهنّ- وهي تنتقل منفردةً بصحبة شرطي- أنّه قد حانت لحظة اللّقاء التي ابتعدت حتّى صارت سنواتٍ عجافًا التهمنَ اليابس منهن، فلم يحصحصْ عليهنّ حق، ولم يأتِ على واحدة منهنّ عامُ غوث واحد! استقبالهنّ انسابت أشواقُه ببهجة طفولة شبّت في حصار، فلم تعلم عن الفرح إلّا أنّه لقاء الأحبة، أحضانهنّ كانت كمَن يعانق ويقبّل تراب الوطن بعدَ زمنٍ قضاه بين أسياخ الغربة، شكّلن خمستهنّ قارة دفء معالمها وتضاريسها حفرتها المعاناة فتصلبت أراضيها وجفّت مياهها، انهمرت الدموعُ وارتفعت زفراتُ أنين الاشتياق، وفاضت القلوبُ بشهقات الألم والشّتات، فهل سينكر عمار ومروان اللّذان كانا يراقبهنّ عبر الكاميرات أنّ الدموع اغْرورقت بين جفونهم واستطاعَا حبسَها، لكنّهما لاحظا صمتًا طويلًا تعانقت فيه المُقل عناقًا مُتبادلًا بدون كلمات، تقرأ رموزًا عتيقة لن يفكّها إلّا مَن أمسك مدادَ حبرها وسطّر أحرفها، كأنهنّ مفتاح قفل لأثر فرعونيّ لن يلقي ما في جوفه من أسرار إلّا باجتماعهنّ، ولا سيّما من ورد التي رمقتهنّ وهي ترفع رأسَها لزاوية من السقف في حركةٍ بدتْ لعمار ذكيّةً للغاية، ذكرياتهنّ انْسحبت كبكرةِ خيطٍ أمسكت بتولُ طرفها بهدوء روح عابدٍ زاهد، أتى للتّو من صومعته: - يا الله! وأخيرًا لقاءٌ بعد طول شقاء، اكتمالٌ بعد نقص، حياة على مشارف حفرِ الموت.

التففْنَ حول زينب التي أرهقتِ العيون بدمعٍ ساخن ونظرات حبّ وشوق وشفقة، تنهّدت أريج بعمق كأنّها تُخرج من صدرها حملًا ثقيلًا، وتنتقل بعينيها بينهنّ وهي تمسح دموعَ وجنتيها، وبابتسامة أمومية قالت: - أربعة عشر عامًا يا بنات منذُ فراقنا، جميلاتٌ كما دومًا، واليوم ناضجات، لكنْ ماذا فعلت بِكنّ الأعوام؟

جاهدتْ بتول لتُمسك جفونَها على دمعاتها، فطبقت شفتيها، ثمّ انفرجتا: - أشعرُ الآن فقط أنّ روحي تصْحو من جديد، أراكم كطيور إبراهيم، عليه السلام، الأربعة الممزّقة، ذُبحت وتفرّقت في أعماقي وها هي تتهيأ للخروج ليطمئنّ قلبى، فأعوامي بعدكُنّ صارت صيفيّة، ترحل تباعًا بكل مُجرياتها لكنّها

لم تنسَ أبدًا تركَ لهيبٍ تتّقد به روحي، يداهمني جوعٌ لم يشبعْه طعام، وظمأ لم يرْوه ماء، حتّى حلواي المحبّبة لم تعدْ تمحو مرارة حلقي وقلبي، وعرق الاشمئزاز لا يغادرني مهما تحمّمت أو تعطّرت.

- على العكس! أراكِ أفضلَنا حالًا، ونورُ وجهك لا يخفى على راءٍ حبيبتي.

قالتها «ورد» وهي تربّت على كتفها بحنان، فأغمضتْ بتول عينيها وتركت رأسَها ليتلقّفه ظهرُ الأريكة: - منذُ ذلك اليوم الذي اجتثّ فيه جذوري من منْبتها، وألقاني الوغد ذابلة على قارعة طريق اللاعودة، طاردني شبحُه أينما وجدت، خلتُه مع الوقت سيتركني وشأني، إلّا أنه لم تنفعْ معه استعاذةٌ أو بسملة، بل أنا التي كنت أنحسرُ وأتقزّم كسيرةً وحيدة، أثقلني الذنب، وأثقلني أكثر العتبُ المنهمر الذي فاضتْ به عيون أقربِ الناس مِن حولي حتّى أغرقني، بتّ أبحث عن خلاصٍ فلم أجدْه إلّا معَ الله ففررتُ إليه، وكلّما التقيته في صلاة أو ذكر صرتُ أخفَّ وزنًا، فخلتُني يومًا سأطيرُ كريشة في السماء يتقاذفها نسيمُ الرضا الإلهي.

ثمّ زفرت بغضب وهي تقبضُ كفّيها، وتكمل:

- حتّى اصطادتني خطاطيفُ أبي وأوقعتنى في شباكِ ذنبي الأكبر.

- ذنبُك الأكبر!

قالتها «ورد» بتعجّب، وتأهّب عمار لسماع ما يرغب.

- نعم يا ورد، غصتُ في دوّامة خداع زيدٍ زوجي بتلك القطرات الناقصة النّازفة التي لن أكونَ بكرًا دونها، ولم أطفُ منذ ذلك اليوم.

سألتها أريج:

- هل أنجبتِ يا بتول؟

- أنجبت! لقد تحجّر رحمي، يبدو أنّه مات ككُلّي فلم يهبْ حياة، وعلها رحمة من الله.

همستْ أريج بحنان، يبدو أنّها عاشقة للطفولة:

- عدمُ إنجابك رحمة!

نكّست بتول وجهَها لتتساقط دموعُها وتبلّل عباءتها:

- زيد لا يستحقّ أن يُخدَع مرّتين، كيف سأهبُ زواجنا أنفاسًا زائدة وأنا مُنقطعة الأنفاس؟

سادَ صمتٌ قبل أن تنطلقَ تسنيم واقفة وهي تهتف:

- حلمتُ دومًا بأنّي أكسر حاجزَ الزمن، وأعْدو إلى الماضي، فأقتطع منه تلك اللقطةَ من حياتي، ثمّ أعْدو أخرى لألقاني بدونها.

ابتسمت «ورد» وهي ترمقُ تسنيم بنظرة خبيثة:

- لكنْ من الواضح أنّك لم تكسريه فقط، بل حطّمتيه يا تسنيم.

رجّت ضحكاتُ تسنيم المُستهترة الحجرة وهي تنفثُ دخان سيجارتها: - هل تتذكّرن، بعدَ الحادثة كنت دومًا أسيرُ في ظلكنّ لأشعر بالاطمئنان، وفورَ انتقالنا إلى الإسكندرية لم أستطعِ الاستقلال بذاتى إلّا عندما شعرت بنظرةِ الحبّ والوَلَه في عيون أوّلِ رجل، كنت في المرحلة الثانوية وكان هوَ جارَنا، ويكبرنى بخمسة عشر عامًا، لم يتزوّج، أوهمتُه بالحب، اقتربت وابتعدت، حتّى رأيت لمعةَ دموع التذلّل في عينيه، عندها فقط استنشقت أولَ أنفاسِ اكتمالي، وعرفتُ طريقي الذي سأحصد فيه الرقابَ لأرفع رقبتي المدلّاة على صدري.

- وهل ترتاح روحُك معَ ثقل آثامك يا تسنيم؟

قاطعتْها بتول بغضب، فبادلتها تسنيم مثله:

- ألم نكنْ صغارًا كالماء العذب الذي إنْ لم يجرِ تعفّن، لقد ركدت وتعفنت روحي هناك في تلك الحجرة المظلمة، وما أفعله ما هو إلّا رائحة ذلك الرّكود، أصطادُ لبحيرتي من الرجال ما أستطيعُ فأكسرُه تحتَ شدّة الهوى وأتركه طريحَ جراحه، أشعرُ ولو لأيام بخدرِ جرحي، ثمّ لا يلبث أن يئنّ فأصطادُ آخر لأسْكِن أنيني، قدر بقدر، وعذاب بعذاب، يا حاجّة بتول.

دفعتهنّ كلماتُ تسنيم الجريئة للضّحك، حتّى أوقفتهن ورد:

- أمّا أنا فقد قبض الحزنُ على يدي الصغيرة، وشدّني إلى زاوية الوحدة التي لا خروجَ منها إلّا بهدمها في عالمٍ كثرت فيه المعاولُ على رأسي ورأس أبي، كلّما شاهدت النسورَ في أيّ مشهد سينمائي تحوم حول فريسة شعرتُ أنها تمزّق لحومنا نحن؛ فأرتجف.

- لكنّك يا «ورد» دوننا، تتمتّعين بأب رائع بنكهة الحبيب.

قالتها بتول بأسًى، فرمقتها «ورد» بحزن تفجّر من كلماتها:

- نعم، لذلك تضاعفَ عذابي، أرمق أبي فأراه في عالمٍ بعيد فُتحت بوابته في عينيه منذُ حادثتي، فلا أنا قادرة على غلقها ولا الولوج فيها، حتّى شعرتُ يومًا أنّ قلبي انتُهِش عن آخره، ولم يبق منه إلّا الفتات، فغلفته مُرغمة بقشرة التّظاهر بالقوة، وعندما كان يهاجمني وحشُ الحبّ كنت أطلق على قلبي رصاصةَ المرحمة فتسيل دمائي حتّى التقيته!

التفتْنَ كلهنّ بذهول، «ورد» تحب!... قالتْها عيونُهن.

- نعم! عرفتُ عندما عزفتْ روحي أنغامًا ممتزجة بلهيب السنين، فذابت جوارحي بعدَ طول تجمّد، وصهرت تحتَ حرارة حبّ أشعر أني ولِدت لألقاه، لكنْ قلْنَ لي كيف وبنقصي أن أحُسنَ لقياه! كلّ ليلة أستمع إلى ترنيمةِ عزائي، لا يشاركني انْشقاقي إلّا القمر، هو فقط مَن سيشعر بي لأنه انشقّ قبلي.

ثمّ وجّهت نظرها نحو أريج وهي تبكي وتلقي برأسها في صدرها:

- فهلْ لي بمعجزته فألتحمُ يا أريج؟ أم سيكون قدَري الانشقاق والفراق والكفر بالمعجزات!

عزفتْ كلمات ورد على قيثارةِ قلوبهن لحنًا حزينًا، أرهقت به الأفئدة، وأسالت من المقل الدّموع، ربّتت أريج على ظهرها وهي تغمض عينيها وتتنهّد: - خمسةُنا كنّ حمْلانًا لم تتهيّأ لاختراق الصحراء، قدرُنا جعلنا نرتدي زيّ الجَمال، نختزنّ ألمَنا ونجترّه، أقدامنا الصغيرة صارت خفوفًا حتّى لا تبتلعنا رمالُ خسّة وحقارةِ الذّكور برغباتهم المُلتهبة، وانشقّت الشفاه لتلوك شوكَ وغصّة الأيام، لقد أناخت الحياةُ قافلتنا قبلَ أن تنطلق إلى طريق يا ورد، ضلّت أرواحنا في صحراءِ الألم، ننهلُ من السّراب ونحن نعرف ماهيتَه، فتملأ رمالُ الخوف والرجاء جوفنا.

رفعتْ «ورد» عينيها وهي تسأل:

- وهل سنظلّ نحيا في ظلّ السراب؟

- لوْلا السرابُ في ظهيرة الصحاري لمَا صمدنا لليلها، لا تعلمي ما الذي سيحدُث عندما يجنّ الليل.

- لقد جنّ عليّ ليلٌ بزغ فيه قمرُ محمد، وكلّ ما أخشاه أن يأفل بعد أن يعرف، عندها فقط سأكفرُ بالحبّ، ولن يتلو قلبي كلمتَه يومًا على مسامع أحد.

ثمّ اعتدلت في جلستها، ومسحتْ دموعها برفقٍ، محاولة تغيير ما سبّبته من أنين للقلوب..

- وأنتِ يا أريج، ماذا فعلتْ بكِ الأيام؟

علَا صدر أريج، وهبطَ بشهيق وزفيرٍ برائحة أيام الوحدة:

- لقد سجنتُ روحي ولياليّ سجنَ الرّوح باردة، سرق غطاء صدفتي وتركني عارية وحيدة، فكان عليّ أن أنزوي حتّى لا تتلصّص على عُريي الأنظار، لم يعدْ

يهمّ مذاق الطعام بقدْر ما سأقوى على بلعه، ولا برودة الماء بقدر ما سيجفّف ظمأ قلبي منها، لم يعد يهمّ الفراش بقدر النوم، فكم مِن فُرُش بسيطة حملت نومًا هنيئًا، وكم من فُرُش وثيرة ضجت بكوابيس أهلها، وأنا لم تتخلّ عنّي كوابيسي، كانت وفيّةً كعاشق ملازم لن يملّ ولن يهجر!

امتعضتْ «ورد» وهي تسألها:

- وأبوكِ لم يحرّك ساكنًا؟

أخرجتْ أريج تنهيدةَ حسرةٍ محمّلة برائحة السخرية:

- حرّك ساكنًا فابتعد أكثر، اعتبرني وأمّي نقطتَه السوداء في عالمه الأبيض الذي صنعه معَ ياسمينته الجديدة!

قاطعتها بتول:

- أتابع كتاباتِك يا أريج، وكم كانت سعادتي عندما نجحتِ في نقش ألمك في وضحِ النهار على عقولٍ تجاوبت مع أنين قلمك، أمّا أنا فحفرته بأظافري على جدارِ قلبي الذي نما في ظلامٍ دامس، خوفًا من قلوب جلدتني بكرباج ألمي.

- مَن ينشأ في القيد يا بتول لا يرغب إلّا في الانطلاق، وأنا انطلقتُ بقلمي، فقط بقلمي! وعشتُ أترقب حدثًا واحدًا؛ موت الظلم لا الظالم.

قالتها أريج، ثمّ حدقت فيهن:

- هل فعلتها إحداكن؟ مَن منكنّ حرّرت أرواحنا المحبوسة في خزانة دمائه؟

هنا فقط تحوّل مروان وعمار إلى صقور، فحدقا بأعين ترى فرائسها عن بُعد، وأرهفا السمعَ بآذان تهفو لإيقاع القاتل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بتول تجلسُ مع صديقات طفولتها تتشاركنَ كأسَ الوجع، ترتشفن ألمه وتستعِذْن تذوقَ مرارة جرعاته، بينما زوجها زيد يدور حولَ والدها كالأسد الحبيس الجائع، يحاصره بأسئلةٍ حداد وشكٍّ أحدّ، ووالدها لا يجد مفرًّا من حصارِ صياد يخشى أن يُحكم عليه شباكه، المراوغة فنّ يتقنه بالقسوة لكن معَ زيد لا سبيل إلّا للمهادنة الشاقة على روحه.

- لماذا لم تتصلْ بي واتصلت بك؟

أغمض والدُ بتول عينيه، وشدّ على جفونه، وأطبق شفتيه وكفّيه امتعاضًا، ثمّ بصبر وحنق شديدين قال: - اتّصل بها أنتَ يا زيد إنْ حاق بك الغضب لأنّها اتصلت بأبيها!

- الهاتف مغلق! كان يجب أن تكون هنا منذ يومين، اتصلت بي وهي في طريقها للمطار، فكيف لم تصل؟

- قلت لك إنّها قابلت صديقات طفولتها في المطار صدفة، فألغت السفرَ لتقضي معهنّ يومين في القاهرة بعد أن استأذنتني.

- تقضي معهنّ يومين! بدون إذن زوجها؟ نكرة أنا!

- قلتُ لك مرارًا إنها هاتفتك وكان جوالُك خارج نطاق الخدمة.

تلوّنت عينَا زيد باحمرار، وبدأ يفور بداخله بركانٌ يبدو أنه كان يغلي منذ فترة، ويوشك الآن على نشْر حمَمه، هزّ رأسه بتعجب وهو يضرب كفًّا بكف، ثمّ بدأ يعدّ على أصابع كفّيه: - صامتة كالجبال فلا أسمع لها صوتًا، عابدة كالقانتات فتقضي أغلب وقتها في ركن العبادة الذي صنعته لنفسها، لا تشتاق ولا تحنّ ولا تتلهف، لا تثور ولا تغار، لا تعرف للحبّ سبيلًا، لا تتبادل عشقًا أو رغبة، لا تتزين أو تتدلل كالنساء، كلّ شيء عندها متساوٍ، لا تفرح بهدية ولا تحزن لمنعها، أحيا مع ظلّ جسدها فضلًا عن روحها المفارقة، لم يفِضْ رحمُها بطفلٍ منذ عامين، كلّ هذا ولم أنطقْ كلمة، دومًا في إعذار لها لخشونةِ تربيتها التي جعلتني أختارُها من بين كثيرات، وتقديري لكونها من أسرةٍ أعرف طيبَ أصلها، وأطمئنّ لحُسن مَنْبتها وطُهر شرفها، لكن أن تتّصل بك لتبلغكَ عدم القدوم وسببَه وتتجاهلني، أن تذهب مع صديقاتها اللّاتي لم أشتمّ ريحهنّ يومًا؛ فهذا ما لن أفوته أبدًا حتّى إن وصل الأمرُ للطلاق، لكنّه لن يكون بالسهولة التي تتوقعانها.

انصرفَ، لكنّه ترك كلماته تهوي على مسامع أبيها كالزجاج المكسور، يخدشُ كبرياءه ويزعزع أمانَه الذي تخيل أنّه استقرّ بعد تلك الحادثة اللّعينة، لقد حمَّلها كلّ الوزر واتّهمها أنها لم تستطع الدفاع عن شرفها، ولم تبحْ بما حدث، شكّل مع أمّها وإخوتها فريقًا لنبذها عقَابًا على نبذ المجتمع لهم، عاني الكثير حتّى يفرّ ويستقرّ بعيدًا عن العيون التي مزقته نظراتها والألسنة التي انْتهشته حيًّا، ليجيء مقتل هذا الجبان فيعيدُ إلى فمه مذاق الخزي والعار، وإلى عقله وقلبِه الخوفَ من الفضيحة التي قبعت في الظّلام كلّ تلك السنوات، ويبدو أنّها تتأهّب للخروج.. أخرجَ زفرة حارقة وهو يحدث نفسه: - ما بالُ ذاك الحيوان المقتول بي، هل سُخّر ليهاجم حياتي حيًّا وميتًا، زيد محقّ في وصْفه، فهي الحاضرُ جسدُها المفارقة روحها!

لكنّه لا يعي كيف اغْتيلت هناك في غرفةٍ مظلمة وهي في التاسعة تحت جُنح الغدر، وأنه لم يقفْ بجانبها ولم يساندها، تركوها جميعًا بلا جوارٍ فاستجارت بالله، هامت روحُها في ملكوته ولم تعدْ لجسدها، فارتاح هو لانزوائها، حتّى أنها عاندتهم وقاومتهم كثيرًا في خدعتِهم، يعرف جيدًا أنّه هو مَن اقتادها

كالذّبيحة رغمًا عنها لجراحة مُخزية لتسقط بضعَ قطرات على ملاءة هذا الزّيد الذي وقف أمامَه ليشيد بطيبِ الأصل وحُسن المنبت وطهر الشرف، فكيف به لو عرف! هل سيعذر؟ هل سيستر؟ أم أنه سيدفع ثمنَ خدعته المؤجّل دفعةً واحدة؟ غاب في أفكاره، ثمّ عاد محدثًا نفسه: - يجب أن يقفّ حدّ علمه هنا، مهما حدث لن يعرفَ حتّى لو كان الثمن الطلاقَ كما قال، لكن هل يمكن أن تكون قد فعلتها؟

ثمّ أقامت الأفكارُ ملعبًا في رأسه، وركلته بكلّ مُخيف، هي على تواصل بشيوخ كثر سمعتها يومًا تتحدّث عن القصاص، واهتمّت لفترة بالسماع لفتواهم، هل كان إصرارُها على التواجد في مصر قبلَ زفاف ابنة عمها بأسبوع حجّةً لتقتله أو تشاركَ في قتله؟ هي لا تحبّ «هند» وقد تعجّب من الحاحِها للحضور، ثمّ برقَ في عقله وميضٌ أرعد فرائصه: - هل يمكن أن يكون أخي سعيد قد شاركَها قتله؟ ولمَ لا؟! هو مَن كان يكرّر دومًا أنّ من حقّها رؤيةَ عنقِ رضا مدلًّى من حبل المشنقة، فهل شنقه ليحقّق لها ما تمنت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتبهتِ الفتيات لسؤالِ أريج في ذات اللحظة التي كانت تسنيم تسألُ زينب عنْ حالها، وكيف وصلَت لمَا هي فيه، فالتفتت الآذان لزينب مؤجّلين سؤال أريج، ممّا جعل دماءَ الغيظ ترتفع في رأس عمار فاحمرّ وجهه وهو يزفر بحُرقة، رفعت زينب كفّها في وَهَن، ومسحت به جانب وجهها: - بعدَ فراقي عنكنّ ببضع سنوات ماتتْ أمّي ولم يعدْ أبي من الخارج، لم أعرفْ هل حجزه حبّه للمال، أم فراره من عاري!

أسرعَ جميعُهنّ بفعلٍ تعجّب منه عمار ومروان، أخرجنَ من صدورهنّ دلّاية حجرٍ زرقاء متلألئة كالتي ترتديها زينب، وترحّمنَ على والدتها وهنّ يقبّلن الحجَر، لتكملَ زينب تحتَ ضغط صمتهنّ وعيونهن المستفسرة المُغْرورقة بالدموع: - ضمّني خالي لبيته فكنتُ أعيش بينهم وأخالُهم سيشيرون عليّ بأصابع يتساقط منها نزيفُ براءتي، فلمّا لم يعرْنِ أحدُهم أدنى اهتمام بدأت أهمسُ لنفسي «لم يشعر أحدٌ بك، الكلّ مُنشغل بحاله، فما بال وغْدنا انشغل ببضع فتياتٍ صغيرات» لم يعدْ أحدٌ يدري عن الألم الذي تمتلئ به أعماقي وتفيضُ بكاءً بلا دموع، صراخًا بلا صوت، ألمًا بلا أنين، فشكّل زلزال بداخل أرضي كان لا بدّ له يومًا من حِراك، بدأت أولًا رغمًا عني في مُحادثة نفسي، ثمّ باتت أمّي تأتيني فأحادثها، لم يصدّق أحدٌ أنها تجيء، فاتّهموني بالجنون.

تعجّبت «ورد» من قولها:

- الجنون!

- نعم يا ورد، ويبدو أنّهم محقّون، باب واحد باتَ يفصل بيني وبينه لكن قبضة عقلي لا تكفّ عن الطرقِ عليه، وأحسبه أوشكَ أن يلبّي النداء، لم يعدْ يشغلنى كيف أسيطرُ على هواجسي وهذياني حتّى لا أكون أضحوكةَ مَن حولي، لم أعدْ أهتمّ لتلك النّفضات التي تتوالى على جسدي، كلّ ما يملؤني ألّا تهزمني ذاكرتي لأنسى أنّي السبب فيما تعرّضتُنّ له.

ثمّ راحت في بكاءٍ عنيف، كسماء منعتْ قطرها لأعوام، ثمّ استجابت للدّعاء ففاضت، اعترضَ جميعُهنّ في صوت واحد على كلامها، لكنّها رفعتْ كفّها بوهن لتُسْكتهن وتكمل: - مهْما قلتنّ لن يفرق عندي مثقالُ ذرة، هل تعرفنَ أنّني عندما علمت بموتِه تمنّيت لو أنّي امتلكت القدرة على فعلها!

دارتْ أريج بعينيها بينهنّ بنظرةٍ لم يفهم عمار لها مقصدًا:

- أعادتنا زينبُ لسؤالنا، كم تمنّيتها لكنّي لم أفعلها، فهل فعلتها إحداكن؟

لاحقتها زينب:

- باستثنائي طبعًا، فأنا لا أقوى على سماع اسمِه، فكيف برؤيته!

ردّت تسنيم بغيظٍ وصلَ حدّ الاستهتار، فغالبًا ما تكون اللامبالاة مشكاة زيتٍ يغلي أسفلَ الأنوار المتلألئة: - أقتله! لو تمكّنت منه لأفقدته ذكورتَه كما أفقدنا عذريّتَنا، ليحيا ما ذقناه من مرار، القتلُ لمثله مرحمة، في الخارج تلك عقوبةُ المغتصب، أراها عقوبة عادلة.

قاطعتْها بتول:

- لا، العقوبةُ العادلة في ديننا هي الموتُ للقضاء على الفساد، قال تعالى ﴿ڇ ڇ ڇ ڃ ڄ ڄ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڳ ڳ ں﴾.

ارتفعتْ ضحكاتُ تسنيم:

- هنا عقوبتُه عامان أو ثلاثة أعتقد، هذا إذا عُوقب! ليخرج من السجن أشرسَ ممّا دخله، ويقطف بكاراتٍ أكثرَ ممّا نزع!

قالت «ورد» وهي تقبض على يدها:

- لوْلا لقائي بمحمد لوددتُ لو فعلتُها، الحبّ هو قوة عجزي.

التفتْنَ جميعًا لبتول التي ظلّت صامتة، التقتهنّ بنظرات لم يستطع عمار تفسيرَها، دقّقت في كفّيها باستمتاع ثمّ رفعتْهُما لأعلى كأنها تسقط دماء لا يراها إلّا هي، وهمست بابتسامةٍ صدرتْ عن كيانها كله: - كمْ حلمت أنْ أحنّي كفّي من دمه، وأصبغَ به جدراني كعقيقة لتجديد مولدي.

ثمّ أفاقت من غيبوبةٍ قصيرة وهي تديرُ عينيها بينهن لتكمل كمَن يلقي على المستمعات ما يردن: - القيدُ وحده هو مَن حال بيني وبينها، لوْلا قسوةُ أبي ولا مبالاة أمّي وزواجي من زيد لفعلتُها.

هزّت أريج رأسَها بهدوء، وبصوتٍ خفيض قالت:

- لكنّ وكيل النيابة يتّهمنا، ولا أعرف على أيّ دليل يستند!

ارتفعَ صوتُ تسنيم بعصبية:

- معنى عدم توجيهه اتّهام علنيّ أو أمره بحبسنا أنّه لا يمتلك أيّ دليل إدانة ضدّنا، هذا الرجل يرفع درجةَ حرارة دمائي فتفور في رأسي كلما رأيته، برودُه وثقته التي تصلُ حدّ الغرور تجعلني أحتاجُ بعدها ألفَ سيجارة لأهدأ.

ثمّ أكملت بضحكة خبيثة:

- لكنّه شديد الرجولة، عنيد، مع نظرة ودّ فتّاكة.

ارتفعتْ ضحكاتهنّ على جرأتها التي لوّنت وجناتهنّ بدماء الخجل، قاطعتْها بتول وهي تضع كفّها على صدرها وتتنهّد بعمق: - كلّ ما أخشاه الآن معرفة زيد، ليتَه سيطلقني، أشتمّ فضيحة فُتحت زجاجتَها، وانتشر ريحُها.

اندفعتْ «ورد» لتؤكّد كلامها:

- أنا أيضًا أخشى معرفةَ محمد قبلَ أن أبوح، سيكون الفارق عظيمًا، كنت سأعترفُ لكنْ سبقني الوغدُ وقتِل، حياته كارثة وموتُه مصيبة.

ربّتت أريج على كتف «ورد» مواسية:

- لماذا لم تحاولي التمهيدَ له طوال ذلك العام؟

- هل يعقل أنْ أعترف لكلّ مَن عانق قلبي قلبه؟ كان لا بدّ من وقت أتأكد فيه، ليس من موافقته بل مِن رجولته حتّى لا يفضحني بسرّي، أتأكد من مشاعره التي ستكبّل فمَه حتّى وإنْ رحل، لا أريد من رجلٍ آخر جبنًا وغدرًا حتّى لا أكفر بمعشرهم.

لم ينتهِ اللقاء بينهنّ، لكنّه انتهى بالنّسبة لعمار، فالتفت إليه مروان متسائلًا بلهفة: - ما رأيُك فيما قيل؟

- لا أدري يا مروان، هل لاحظتَ نظراتهنّ المتبادلة أول اللقاء؟ حدْسي يُخبرني أنهنّ يعلمنَ بالمراقبة، وأثقُ أنّ ثلاثة منهنّ فقط قتلنَ رضا، وباستبعاد زينب ستكون أخرى مُستبعدة، أين حسني؟

- ينتظر بالخارج.

اندفعَ عمار ومروان حيث يقف حسني وقفتَه الأليمة المتكررة، دخل ثلاثتهم حجرةَ اللقاء، ليفاجئهنّ عمار بسؤاله لحسني: - مَن منهنّ رأيتها في بيت رضا الشالي؟

تكوّرت زينب على نفسها بخوفٍ عند سماع الاسم، وبدأ العرقُ الغزير في النّضوح على جبهتها، وبدَا أنّ الغثيان يناوش وجهها وجسدها، التفت حولها «ورد» وأريج وبتول تربّت كفوفهنّ على كتفيها، واتّجهت عيونُ الأربعة تجاهَ عمار تحمل غيظًا وحنقًا، بينما هزّ حسني رأسه في نفي: - لم أرَ أيّ واحدةٍ منهنّ من قبل.

دارتْ نظرات عمار حولهنّ بشكّ وريبة وهو يشدّد:

- ولا واحدة! تأكّد يا حسني.

- ولا واحدة. أنا لم أرَ عنده رجلًا أو امرأة كما قلتُ سابقًا يا باشا.

زفرَ عمار بيأسٍ وهو ينظر تجاهَ الشرطي ويأمره- وسط تعجب الجميع- بإخلاءِ الحجرة إلّا من زينب، إلّا أنّ أباها دخل عليه هو وطبيبها ليستفسر عمّا يحدث، فأجاب عمار: - آخرُ حوار بيننا وستخرجُ معكما، وإنِ احْتاجها التحقيق مرّة أخرى سآتي أنا بنفسي مكانَ تواجدها.

وبالرّغم من امتعاض والدها إلّا أنّه لبّى طلبه، اتّجه عمار نحو زينب وجلسَ بجانبها، بينما كانت هي قدِ اقتربت من الوصول إلى ما لا يدري عنْه شيئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتباك

هاتفُ والد «ورد» لا يهدأ رنينُه، محمد يتّصل كلّ ساعة فيُقلِب قلبه على جمراتِ القلق الملتهبة، والتي لا تكوي جرحَه، بل تزيده اتساعًا ونزيفًا، بماذا سيبرّر سرّ تغيّبها؟ اضطرّ إلى كتم صوتِ الهاتف ثمّ أغلق عينيه حتّى لا يلمحَ الفراغ الواسع حوله، لا يعرف لماذا طاوعَ دموع عينيها وقلبها وهمَا يهويان على كفّه تتوسّله في الذهاب إلى البيت لتناول الدواء وقليلٍ من الطعام وتغيير الثياب، ليتَه ما وافق! فها هو منذ دخل بيته الموحِش الخاوي منها يشعر أنّه يتجوّل بين أطلال عمره، ركام وغبار، هذا ما تراه عيناه ويشتمّه أنفه، لم يستطعْ تناول لقمة واحدة لن تشاركه فيها، ولا أن يتحمّم بماء يعرفُ أنّه لن يسقط عليها لفترة لا يعلمها إلّا الله، يحتضنُ فراشها الذي يحمل عبقَها، الحيرة تلتهمُ فؤاده، وقف أمام صورة والدتِها بعيون ملؤها دمعُ الهوان يحدّثها كما يفعل دومًا: - هل يُعقل أن تشترك «ورد» في مقتل رضا؟ «ورد» عاقلة ومتّزنة حقًّا، لكنّها مثلك كمُهرةٍ بريّة ما أن ترغمها إلّا وتفاجئك بالرّكلات، وهو أرغمها يا وسام، هل ركلتْه لتخرج شبحَه القابع بداخلها والذي أخافها عمرًا كاملًا؟

لكنّه عاد يطمئنُ نفسه ويهمسُ لزوجته وهو يربّت على زجاج صورتها: - لكنّها لن تفعلها كما قالت بعدَ ظهور محمد، أليس كذلك؟ أعلم أنها أهدته قلبَها المغمض كوردةٍ لم تخرج من برعمِها بعد، ولن تمنحَه لسواه فهي نسختي، فمنذُ وقعت عيني عليك إلّا وأقسمتْ لقلبي وقلبك أنه لن يدخله غيرك، أتذكرين! ولقد حافظتْ على وعدي وعهدي، وصورتك بين ثناياه ترتسمُ على مقلتيّ مع كلّ نبضة، فكيف ستكشف سترَ موضع ذبحها بدلًا من أنْ تواريه؟!

تائهٌ هو في بحرٍ متناقضات ورد الهائج حتّى أنّه لم يسمع جرس الباب، انتبَه عندما تواصل الرنينُ مع دقّات عالية على الباب الخشبي، يشعر بجسدِه كشكارة رمل ثقيلة تحتاجُ آلة رفعٍ لتحرّكه من مكانه، يا للثّقل الذي يضعُه البشر على أكتاف بعضهم البعض! تحامل على ضعفه وقام يترنح كالسّكران من صاعقةٍ ضربت حطامَ قلبه فدكّتْه، ولدهشته كان هو! فرّ منه فوجدَه أمامه: - خيرًا يا عمّي، لا أنت ولا «ورد» تجيبون على الهاتف، القلق ناوشني فاضطررتُ للحضور.

وكمكّعب ثلج خرجَ لتوّه من مبرّدٍ بدأ والدُ «ورد» في الذوبان تحت حرارة شوقِ محمد وقلقه، ماذا سيقول له؟ لم يعتدِ الكذب لكنّه أيضًا لن يستطيع البوح! قد لا تتعقّد الأمور ويتمّ توجيهُ اتّهام مباشر لها، وعندها ستكون وحدَها فقط مَن تمتلك حقّ إخباره بما تريد كيفما تشاء، لكن! ماذا لو وجّه لهنّ الاتهام وانتشرتِ القضية على صفحاتِ الجرائد ومواقع التواصل الاجتماعي،

عندها سيجرّ مقتل ذلك الكلب وراءه ذيلَ الحادثة القديمة، وسيعيدُ الناس كرَّة تذوّق لحمِهما الذي لم يتبقّ فيه ما يُنهش، فالمتبقي يستر هيكلَهما بالكاد. أفاقَ من شروده على عيني محمد تحدق فيه: - ما الذي حدث يا عمّي؟ وما تلك الحال التي أنتَ عليها؟!

الكلمات تنزل كطبقةِ شمْع على أذنيه تمنع وصولَها لمسامعه، كيف سيُنصت ويفكّر في آنٍ واحد؟ حتّى لاحتْ له الفكرة التي لن تكون كذبًا ولا صدقًا، ارتبك قبل أن يجيب: - صديقة دراسة «ورد» الابتدائية تمرّ بأزمة نفسية شديدة، تحاول بكلّ الطّرق التخلصَ من حياتها، الحلُّ الوحيد كان استدعاءَ صديقات طفولتها ليمنحْنَها بعضًا من أمل.

- وأينَ هي الآن؟

- اجتمعنَ معها بأمرٍ من طبيبها، حالتها تتدهور بسرعة غريبة، لم يستطع أحدُنا خذلان دموع أبٍ يتابع نهاية فتاتِه البطيئة، محاولة أخيرة لإنقاذها، قد لا تنفع لكنّها ستريح الضمائرَ من العذاب، فالفتاة مُصرّة على الانتحار بأي طريقة.

- لكن «ورد» لم تتّصل بي ولم تخبرني!

- اتّصلت بك لكنّك لم تجب، وبأمرٍ من الطبيب صادر الهواتف على باب غرفة اللقاء.

- وإلى متى سيستمرّ هذا اللقاء؟

أخرجَ والد «ورد» ضيقه في تنهيدةٍ حارقة، يعنّف نفسه، لكنْ ما الحيلة!

- لا أحد يعرف، اتّصلت «ورد» بالعمل وأخذت إجازة، كلّ همّها إنقاذ صديقةِ طفولتها فحسب، حتّى أنا تركتني وحيدًا، ألا ترى حالي بدونها يا محمد؟ ألا ترى الشوقَ الذي ينخر قدمي، حتّى اقتربت أن أخرّ ساقطًا بدون منسأتي!

نجح والد «ورد» أن يسحب محمدًا بعيدًا عن بحيرة التمساح الذي كبّل «ورد» بين أنيابه ولا ينوي إفلاتها، أسرع محمد ليخفّف وطأة حزنه، فقال وهو يبتسم: - هل تسمح لي أنْ أكون عصاك حتّى تظهر تلك الـ»ورد».

نظر له والدها بابتسامة لم يستطعْ أن يخفي الألم الذي يقطر منها، وامتلأت عيناه بدموعٍ حسبها غيضَتْ مع طوفانِ اغتصابها، ذلك الطوفان الذي حال بينه وبينها في قبرٍ عميقٍ بجدارِ الموت الفاصل بين حجرة النساء والرّجال، ثمّ رفع رأسَه لأعلى محاولًا التماسك: - هل تعرفُ يا محمد مدى شوقي لزوْجتي، أخالك لا تدري، لكن لو خيّروني بين عودتها وعودةِ ابنتي؛ لاخترتُ «ورد».

في الأمرِ ما يريب وما لم يستطعْ والدُ «ورد» إخفاءه برغم حذره، ما سرّ حزنه العميق؟ ومَن تلك الصديقة التي ظهرت فجأة لتسحب «ورد» من

بستانِه، تعلم أنّه لا يطيق فراقها كما لا تستطيع هي، عامًا كامًلا لا يغرب أحدُهما بدون شروق سريع، ولولا تأجيلُها المبهم لارتباطهما لكان إشراقها في بيته، فما الذي يمكنُ أن يكون قد حدثَ فبدّل نظام كونهما؟ سيصبر على حجّة غوص يعتقد أنها واهية حتّى تطفو على سطح بحْره، وعندها فقط سيعرف مِن مجرّد النظر لعينيها المستور حتّى بدون كلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أربعتهنّ يقفنَ متذمّرات، الخوف يقتلهنّ على زينب، بينما عمار يجلس بهدوءٍ أمامها، تبدو مختلفة ومُنهكة لكنّه سيحاول ألّا يثقل عليها، أطيبهن وستستجيب، الوحيدةُ التي لا تقابل حواره بهجوم: - زينب، أعلم أنّك من المستحيل أن تكوني قد شاركتِ في قتل....

نظرَ إلى الأرض ولم يكملْ كلماته، فمِن الواضح أنّ اسمه هو الكلمة السحرية التي تنقلها من حالٍ لحال، فكيف بصورته! هي تفهم ما يريد، هزّت رأسها بوهنٍ وضعف وحِدة بدت في صوتها لأوّل مرة: - هل تتّهم صديقاتي بمقتله؟

- لن أكذبَ وأقول لا، لكنّه إلى الآن مجرد افتراض.

- والحادثة القديمة هي ما دفعتك إليه؟

- لا يمكن إهمالها.

- هل تبحثُ عن قاتله بيننا!؟

- سأصدقكِ القول، أعتقد أنّه بينكنّ.

أشاحتْ بوجهها عنه، وتمتمت:

- هل تغيّرت القوانين، أم أنّ لكلّ وكيل نيابة صبغةً مختلفة يطبعها على قماشةِ قضيّته، لماذا لم يبحثْ أحدُكم عن قاتلي بتلك الهِمّة؟!

تساءلتْ وهي تشير بسبّابتها نحوَ صدرها بأصبعٍ يبدو من الهزال كأصبع طفلةٍ في مجاعة، فأجاب: - لكنّك على قيدِ الحياة يا زينب، ويجب أن تقبضي على أيامك!

رمقتْه بيأسٍ وضحكةٍ ساخرة لم تتمكّن من شفتيها الجافتين حتّى لا تسيل دماؤهما، بلّلتهما بريقٍ أذيبتْ فيه ثمرةُ الحنضل قبل أن تقول: - قيد الحياة! أنت للأسف لا تعي معنى أن تعيش لا تعرف لشيء مذاقًا! كلّ ما كان يصيبك بغثيانٍ يعقبه قيئ، ثمّ لا يبقى في قائمته الطويلة ما يمكن أن تقعَ عيناك عليه بدون اشمئزاز، أو كيف يتساوى معك الليل والنهار، سنواتك تعْدو بلا ربيع، خريفٌ متواصل هي، تتساقط أحلامك وأمانيك بعد أنْ جفّت وتحطّبت سيقانها

بنزيفِ قطرات بوّابة العالم السحري، فتصير العدمَ ذاته، لا واقعَ لك، تسحبك حبالُ متاهات الخيال بجياد الوهم، لا تعرفُ اليدَ التي ستمتدّ إليك من أين جاءت، وإلى أين ستصل بك!

أثقلَ عمار على قلبها، فأراد بذكاءٍ التخفيفَ عنها:

- ما قصّة ذلك الحجر الأزرق يا زينب؟

لم يكنْ يدري أنّ زينب بالكاد تحاول تجميعَ صورته وصوته المشوّش، لكنّه ما أنْ سأل عن الحجر حتّى رفعت كفّها لتمسكه، ثمّ اقتربت به من شفتيْها وقبّلته: - أمّي رحمها الله ورثتْ عن أمّها حجرَ توباز متوسّط الحجم، فوجئنا بعد الحادثة وقد قطعتْه إلى خَمسِ قلادات صغيرة في سلاسل فضية، ألبستنا إيّاها وهي تبكي وتقول «حجرُ التوباز يرمز للهدوءِ بعد العاصفة، أتمنّى أن يمنحكنّ هدوءًا بعدَ ما مررتُنّ به، ثمّ للغرابة أنّ اسمه جمع أول حروف أساميكنّ تسنيم، ورد، بتول، أريج، زينب، فلا تخلعنَ القلادات عن صدوركنّ لتجتمعنَ مهما فرّقتكنّ الحياة».. ثمّ نظرت زينب للفراغ وهمست: - وها أنتِ قد صدّقتِ يا أمّي، لقد جمعتنا روحُك التي دبّت في حَجَرك الأزرق.

صمتتْ قليلًا، ثمّ ابتسمتْ بطفولة، ولمعت عيناها ببريق:

- كم أنتِ جميلة ورقيقة.

كان عمار ينظرُ إليها ويحسبها تكلّمه، تأهّب للرد إلّا أنها وقفت بهدوء وتباطئ كعروسةِ ماريونت بدأ صاحبُها في تحريك خيوطِها ليبدأ عرضه السّحري: - هل أتيتِ! أنتِ الوحيدة التي تشعرُ بما أنا فيه رغم ابتعادك، الأحياء ينشغلون، ينسون، في كلّ زيفٍ يهيمون، قطراتُ النّدى هي دموعك سالت على أوراقي، ولن يوضّئني ويعيد طهارتى إلّا يداكِ.

مدّت يديها نحوَ طيفٍ لا يراه، بينما هو يراقبها في ذهولٍ، كالمسمار الذي ثبّتته المفاجأة على جدار الرهبة..

- ما بالُ عيونك تلمحني بانكسار...

صمتتْ لترهف السمعَ مرّة أخرى، ثمّ رفعتْ كفّيها ليلمسَا عينيها: - هل أرعبَك هُزالي وخطّا الحداد اللّذان تكحّلت بهما عيناي، أم روحي التي زهقتْ بلا موت، أم وجناتي اليابسة وشفاهي اليائسة، وبسمتي الخرساء.. لا عليكِ، خُذينس إلى أحضانك.

رفعتْ يديها تتأهّب لاحتضان، ثمّ أشارتْ إليه وهي تقول: هل تسمع؟ قطراتُ عيني أمّي المتلألئة تهمس «أخاف عليكِ من الألم».

ثمّ ابتعدت بعينيها عنه لتكمل حديثها مع الطيف:

- وهل تُنزع الورود من على أغصانها إلّا بالجرح والألم يا أمّي؟ لقد نزف الوغدُ دماءه، وحانَ دوري.

عمار صامتٌ واجم لا يعي ما يحدث، الدهشة شلّته وعقدت لسانه وأخفقت قلبَه، ولجمتْ جسده بلجامِ التّجمد، فمرّت الدقائق كثوانٍ، كادَ يهزّها لتفيق من هذيانها، إلّا أنّها فاجأته وأخرجتْ من ثوبها خنجر أدواته المكتبية، وانْهالت على شرايين يديها الاثنتين تمزيقًا، في ثواني الدهشة يسرق منك الزمنُ ما لا تتوقعه. بدأت تتهاوى مستندةً للجدار، أسرع لتقييدها وارتفع صوتُه الذي جعلَ الجميع يُهْرَع إلى الحجرة، لتسقط زينب أرضًا مضرجة بدمائها وسطَ ذهولهم، وارتباك عمار ومروان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بتول تقف منكّسة الرأس تجاهدُ دمعها، تستند لجدار أصمّ، أحنّ عليها من البشر، تلمح بكاءَ «ورد» المرير على زينب، بينما تسنيم لا تكفّ عن نفث سجائرها التي خنقَ الجميع دخانها بأيدٍ مرتعشة وعيون زائغة. أريج سقطتْ على كرسي فيبدو أنّ قدميها لم تعدْ تقوى على حملها، وعندما تسقط أريج- الأمّ العاقلة المتزنة- هذا لا يعني بالنسبة لهن إلّا أن الإعصار قدْ بدأ. ألقت برأسها هي أيضًا لجدار سينأى بما تحمله، كأن لحظة سقوط زينب هي ذاتها لحظةُ استسلامهن، عندما لامست كفّه كتفها: - بتول، كيف لا تتّصلين بي بُرغم ما حدث؟

التفتتْ لتجده أمامها:

- عمّي! يا للمفاجأة!

قالتها، ثمّ انهارت في حضنه، وسمحت لدموعها بالانسياب، ارتفعت عيناها لتلتقي عينيه، وتقذف ما حملتْه من أنهار خوفٍ ووحدة، لو تمثلت كلمة حصن في رجلٍ سيكون هو «سعيد الحسيني»، التفّت يداه حولها بحنان فغاصتْ في عمقِ صدره تتلمّس الأمان، ليتهم تركوها عنده عندما حاول استبقاءها، لكنْ أبوها أصرّ- بعناد- على رحيلها معهم، ظنته سيحررها بعد اعتقال، لكن ما كان منه إلّا أنْ ألقاها لصندوق الوحدة المحكم بلا ثقوب فاخْتنقت.. واثقةٌ هي أنّ قلبَ عمّها كان سيصل لجرحها ويكويه بجمْرِ العطفِ وسيفِ الحكمة، بدلًا من النّزيف المستمرّ الذي لوّثها ولوّث حولها، حتّى طال زيدًا!

- لماذا لم تتّصلي بي؟

- لم أرغبْ في إزعاجك أيامَ عُرس هند الأولي، تعلم أنها تتّهمني بالاستحواذ على حبّك، فلم أردْ أن يزداد الاتّهام حدّة.

التقطَ أنفاسه بصعوبة من ثقل كلماتها:

- أنتِ في محنة شديدة، جريمة قتل، وتقولين لي هند واتّهاماتها! هل يُعقل هذا يا بتول؟

- مِن أين عرفتَ يا عمّي؟

- اتّصل بي أبوك أخيرًا، زيد يحاصره هناك فلم يستطع القدوم حتّى لا يثير شكوكه.

- حتّى بدون زيد لم يكنْ ليأتي، هو لا يخاف على حياتي مع زيد، هو يخافُ من فضيحته أمامَه أو أمام غيره، لطالما كنت له رمزَ العار، مذعور هو مِن خروج خدعته للنّور، لكن يبدو أنّ الستار السميك سينزاح قريبًا عن عرضٍ مسرحي لم يتوقعه، ولن يحظى فيه أحدُنا بتصفيقة واحدة.

هزّ رأسه بأسفٍ وتمعّن في أحساسها، مُحقة بتول، فليس كلّ مَن بذر نطفة مِن ظهره شعرَ بحركتها في قلبه، وليس كلّ رحمٍ لفظَ جنينًا ظلّ على اتّصال به بعد خروجه!

- المهمّ الآن، إلى أيّ منحنى وصلَ الأمر؟

الارتباك والخوف يحتلّان ملامحها:

- إلى منحنى الخطر.

أرعبَه المعنى، فأسرع بلهفة:

- هل هناك دليلٌ لاتّهامكن؟

- لا أعرف، لكنّ وكيل النيابة مُصرّ على أننا مَن فعلنها، لم يواجهنا بدليل أو غيره، زينب صديقتنا المُستثناة الوحيدة من بيننا مزّقت شراييها ونقلتها سيارةُ الإسعاف يحوم حولها ملكُ الموت، وأنا...

مسحتْ عينيها بكفّيها تمحو كثافة الدموع لتكمل:

- أنا لا أخشى الاتّهام! بل أخشى ظهورَ زيد خلفي ليعرف أنّ ما أسقطَه ليلة زفافنا لم يكنْ إلّا زورًا وبهتانًا.

- لا تهتمّي لأحد. اهتمّي بذلك الخسف الذي سيبتلعك وصديقاتك إن كان هناك ما يُدين.

أسرعت بقوّة وحسْم:

- تلك الإدانة ليست خسفًا، بل علوًّا وشرفًا يا عمّي!

تجمّدت مقلتي سعيد أمامَ عينيها كأنّهما حجران صغيران:

- هل فعلتِها، أو اشتركتِ في فعلها؟

عادتْ بتول تدسّ رأسها في صدره:

- ليتني كنت.

- سأوكل محامي عنك، وعن صديقاتك.

- لن أحتاجه، وكيلي هو الله، وقد فوّضته ولنْ أوكّل غيره، لو طالني الاتهام فهوَ فخر، وإن لم يكنْ فلي السعادةُ أنّه سمعني واستجاب.

تنهيدةٌ ثقيلة بحجم الألم لم يستطعْ سعيد حِملها بين ضلوعه فأطلقها، لترفع رأسَ بتول وتخفضها كتلك الحياة التي تتراقص بها على شوك الأنين والدّم، يحاول عمّها أن يتأكد من ملامحها هل فعلتها لتقتص من مغتصبها، اندهشَ بشدّة لحضورها المفاجئ غير المرتّب لفرح ابنته، فهل هربت إلى صدره حتّى لا تهمس له ملامحها بما تخفيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتبهَ الجميع على صوتِ أقدام عمار ومروان المُسرعة قادمان من المشفى الذي تحاول زينب فيه معانقةَ الموت بعد محاولات مستمرّة لم تفلح إلّا في غرفة عمار، كان يبدو على وجهيْهما الانزعاج لكنّهما أسرعا بالدخول لحجرة التحقيق. ألقى عمار جسده للأريكة أمام مكتبه ثمّ أسند وجهه بين كفّيه، يضغط بجفونه على مقلتيه اللّتين مازالتا تحملان مشهد انتحارها، كيف تسمّر؟ كيف تجمّد في تلك الدقائق الفاصلة؟ اللوم يمزق أعصابه التي أرعشتْ منه القلب قبل الجسد..

- ستكون بخير يا عمار، المهمّ أن تفكّر في تلك المسؤلية.

صرخَ عمار:

- أيّ خير! الفتاة كوردةٍ جميلة بريئة تتأرجح على مشنقة الموت بدون تهمة أو جريمة.

لم ينته عمار من كلماته إلّا وارتفعَ رنين هاتف مكتبه، تدرجت ظلال الألوان تباعًا على وجهه وهو يستمعُ للمتكلم من الأصفر للأحمر لينتهي بالأسود. عرف مروان مِن تتابعهم أنّ المتصل رئيس النيابة، احتفظ بهدوء وصمت، وترك الخيارَ لعمار؛ يكتم أو يبوح! لكنه يعرف جيدًا ما يمكن أن يكون قد قيل، وجْه عمار الممتقع يشي بالخبر.

وبغير مقدّمات خرج صوت عمار بعصبية:

- يجبُ توجيه الاتّهام المباشر، أريد كلًّا منهنّ على حدةٍ لمرّة أخيرة.

هزّ مروان رأسه بالموافقة:

- تعجيل الأمر سيخرجنا من ورطة الاعتراض، القضية ستأخذ منحنى الرّأي العام، ولا سيّما بعد محاولة انتحار زينب.

- المهمّ أن نحرص في الوقت الحالي على عدم نشر أيّ تفاصيل إعلاميًّا.

رنّ عمار جرسَ مكتبه وأمر حارسَها بإحضار ورد محمود سامي، ستكون الأولى ليقتنصها قبلَ ظهور محاميها، لاحظت «ورد» فور دخولها نظرة الغضبِ التي تكسو وجهه، تمنّت أن تسأله عن زينب إلّا أنه بادرها: - ما علاقتُكِ بالمدعو رضا الشالي؟

لقدْ ربط سؤاله عنقَها بحبل خشن في ساقية لن تضخ إلّا العذاب، لكنها ستكون أقوى مِن أن يحوّلها لثوره المغمض الذي سيسقي أرضه فتنبت له جانيًا، فرفعت هامتها بمنتهي التحدي: - كان مدرّسي للتربية الرياضية، اغتصبني وأنا في التاسعة، ولم تفلح مواد قانونك المتربّع على عرشه في سجنه يومًا واحدًا!

لن ينكر عمار أن تحدّيها أطفأ شيئًا من جمْر الانفعال الذي التهب بعد تأنيب رئيسه، فهدأت نبرته: - أعلم أنّه وغد، لكني أحقّق في مقتله، تلك قضيتي.

- وأين قضيتنا؟ قضيةُ خمس نبتات اجتزّها جسده العابث الذي تبحث له عن قاتل، مثله يجب ألّا يُدفن في قبر، بل يجب أن يلقى في أقذر مكان لتعبث بأشلائه الكلاب، والتي أظنّها ما أن تتذوّق عفونته ستنفر وتلفظه، كما لفظتنا الحياة بعد فعلته.

يتمنّى إفساح طريق ولو بقدْر شريط بينهما:

- كيف لفظتْكُم الحياة يا ورد؟

حدجتْ عينيها كأنّها تستدعي مشاهد مقيتة من مقلتيها بإبر مسنّنة: - أوّلها كان اتّحاد مدير المدرسة مع كلّ العاملين بها بعد الحادثة على إنهاء تواجدنا، رحلَ الوغد وتمنّى المدير رحيلنا بعده ليتخلص من ذكرى المأساة وينظّف مدرسته من براءاتنا المهْدرة، السبيل كان مضايقتنا لدرجة الفرار، عامانا الخامس والسادس الابتدائي نبذنا فيهما المدرسون والمدرسات وألقوا بنا كالمخلّفات في الركن الأخير من الفصل، أولياء أمور زميلاتنا لقنهنّ درس الابتعاد عنا حتّى لا تلمسهنّ رائحة عارنا، كان لي صديقة تحبّني بشدّة ابتعدت عنّي، وعيناها تفيض بالدّمع عندما اقتربت منها وقالت «سيعاقبني أبي عقابًا شديدًا إنْ حادثتك».

أطالَ النظر إليها بعينين خرّت راكعة أمام تمثال صمودهن فأكملت: - هل تراني قوية؟

هزّ رأسه موافقًا:

- أقواهنّ.

فهمست:

- تعلم أنّه بعد دخولي غرفة الأدوات الرياضية بثوان فُتح الباب ورأيت شبحَه قادمًا نحوي، قفزَ في صدري الفزع ولم يخرج منه حتّى اليوم الذي عرفت بمقتله.

صمتت، ونكّست رأسها، فعاجلها:

- أكملي ما حدثَ يا «ورد»؟ اخْرجي من الثوب الضيق الخانق للبراح.

تمزّق رداءُ القوة، ولم تعدْ تقوى على رتْقه، فسالت دموعها:

- سمعت أصوات زميلاتي آتية من الخارج، عيناه اللامعة خلف قناع أسود في الظلام كانت مُخيفة، حاولت المراوغةَ للمرور من الباب إلّا أنه أغلقه فأظلمتِ الغرفة، وأظلمت أيامي بسوادٍ لم ينقشع ولم يبزغ عليه فجر، ذلك الفزع وتلك العينُ لا يُفارقاني لا في صحوي ولا منامي.

اتّسعت عيناها بقسوة تشدّ على قبضة كفّها بكلّ ما أوتيت من قوة لتكمل: - أدمنتُ أفلام الرعب فقط حتّى أمحو ذلك المشهد الملتصق بشبكية عيني، لكنْ أيّ مشهد ذلك الذي يستطيع!

دبيبٌ قويّ يجتاح قلب عمار:

- ألم تفكري للحظة إنْ كنت أنت الأولى، أم أنّ هناك أخريات؟

- تساءلتُ عندما ألقاني في جبّ الفزع، هل هناك حكايا استترت بين ثنايا جدرانه الموحشة، أم أنّني أولى الهالكات، لقد لوث قميصي بدم الذئب ليمحو رائحةَ طهر براءتي، ومَن سيصدق أنني والذئب براء، وأننا سنعاقب على ما لم نفعل.

- ومَن سيعاقبك؟ أنت أبرْأهن، الوحيدة التي أبلغت فور الحدث.

أشاحتْ وجهها وقد حملَ سخط الكون:

- ألا تعرف أنّ أعتى سوط، وأقسى معتقل هو زنازين البشر وأنت مطعون في شرفك.

ثمّ نظرت له باستخفاف لتكمل:

- أنت لا تعرف معنى فتاةٍ في مجتمعنا التّعس تساقطت منها دماء براءتها، فتحوّل جسدها لأضحية تثير نهمَهم لتوزيع أنصبتها.

- لتلك الدرجة!

- حاولتُ لسنوات أن أصفّي مجرى أعماقي، لكن شوائبهم ظلت تلقى وتلقى حتّى تحوّل داخلي إلى بركة راكدة، لا يستطيع حجرُ نظراتهم صنع دوائر موجيّة تبتلعني بداخلها، اكتشفت عندها أنّ الصفو والتجمد لا يختلفان كثيرًا عن بعضهما.

- كيف لا يختلفان يا ورد؟

- الصّفو يُحرك طمعهم، والتجمّد يثير حقدهم.

- وبين الطمع والحقد ماذا حدث؟

- اجتمعتْ في قلبى كسرَات الحنين إلى روحي قبل اغتيالها، لكنها أبدًا ما استدارت رغبًا يشبع نَهمى إليّ، عشتُ جائعة مني حتّى تلك اللحظة التي وعيتُ أنّ الظّلم قُتل، وأنّ العدل لن يأخذ مجراه.

احتوى كلماتها المصوّبة نحو عمله بهدوء، يعرف أنهنّ ظُلمن فقال: - ولماذا لن يأخذ مجراه؟

- لأنّ مجراه متعرّجٌ، كالماء بين الصخور، تسدّ طريقه كلّ يوم صخرة، وما يصلُ للعطشى ما هو إلّا قطرة من فيض نبعه.

كلماتها ساخطة، تلعن الظلم والظالم، أفرغت «ورد» شحنتها المحتبسة في وجهِه فتجهّم قليلًا قبل أن يفاجئها: - هل غادرتِ البلاد في الفترة ما بين ١٥ أبريل و١٧ أبريل؟

- لا.

- آنسة ورد، السؤال صريحٌ وأريد أجابة، هل قتلتِ رضا الشالي أو اشتركتِ في قتله؟

استدعتْ كلّ ما استطاعت من إرادة لتهتف:

- لم يحدث.

تابعها بطرفِ عينيه وهو يشير لها بالتوقيع على أقوالها:

- انتظري بالخارج.

أكملَ وهو يُملي على الكاتب:

- ثمّ أمرنا بإحضار السيدة بتول سيد الحسيني.

دخلتْ بتول يلفّ ملامحها حزن عميق، جلست أمامَه وأصابعها لا تغادر عصر رأسها: - هل تعانين الصّداع؟ تريدين مسكّنًا للألم؟

هزّت بتول رأسها بالموافقة، تناولت المسكّنَ وهي تنتظر الألم الأكبر الذي سينطلق مع كلماته: - ما علاقتك برضا الشالي؟

لم تنتظرْ ليكمل فأجابت باستخفاف:

- مُغتصبي، هل سيجدي هذا المعنى؟

اتّسعت عينا عمار وضمّ شفتيه، عجبًا.. لا تنكر واحدة منهن الكلمة، كأنها طريقُ حياتهن الذي لا عودةَ منه، لم تمنحه بتول الفرصة ليسأل فأكملت: - لم يغتصبْ براءتي فحسب، لقد ارتشفني فلم يسمعْ أحدهم لضحكتي صوتًا، كنت في بعض اللحظات أحاول أن أتناسى لأبتسم، فتتقابل عيني بعيني أبي فأنحّيهما في انكسار.

- لم يقف بجانبك أحد؟

يبدو السؤالُ في ظاهره الرحمة، ومن قبله العذاب، يريد عمار أن يلمح ظلًّا لرجل من أصحاب بصمة الأحذية..

- ذلك المدعو لم يغتصبني بمفرده، لقد بدأ وهم أكملوا ما لم يتم.

- هل يمكن أن تكون قد فعلتْها واحدة من صديقاتك؟

بُهتت بتول من قوله:

- وبمَن تشك؟

- ورد مثلًا، ألمح في روحها نارًا متقدة.

ارتفعَ صوتُ بتول قليلًا بعصبية، وأصابعها تتسابق بخفة على مكتبه: - الوحيدة التي لم يدقّ جسدها وشم الخجل كانت ورد، بينما نظرات الحياء كانت قد غزلت لأربعتنا ثوبًا فضفاضًا نتململ فيه، فيطرحنا أرضًا كلما هممنا بالسير ولم نقوَ على النهوض.

- لماذا هي بالذات؟

- جُبن البوح يا سيدي، هي الوحيدة التي اعترفت مع أول مرة فأنقذت مَن بعدَها، تخيّل لو أنّ زينب فعلتها، تخيّل لو أيًّا منّا! لا أتصور لو لم تفعلها ورد،

لكان عددُنا الآن فاقَ أصابع يديك التي تشير بها إلينا بالاتهام.

- وهل تلك اليدُ ظالمة، ألم تشتركي في قتله؟ ألمحُ في شخصيتك تدينًا لا يتّفق معه كذب!

تعجّبت من قوله:

- كذب! هل ترانا نسوة المدينة.

ثمّ ابتسمت بسخرية فرمقها بخبث:

- سيدة بتول، كيف تزوّجتِ على تلك الحال؟

- بالكذب، أليسَ هذا ما تريد سماعه، لكنها لن تكون قرينة إدانة.

أذهلته كلماتُها الواضحة كلطمةٍ سافرة لوجه العدالة، فقال:

- هل قتلتِ رضا الشالي، أو اشتركتِ في قتله؟

- كم وددت!

وبنفْس تلك النظرة الخاطفة لمحَها وهي تضع توقيعها على الأقوال، هزّ رأسه بهدوء وثقة، مشيرًا لها بالانصراف، ليستدعي تسنيم التي باتت الآن البراءة تتأرجح بينها وبين أريج.

قالها عمار محدثًا نفسه سرًّا:

- ليتها تكون أريج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما كان عمار يعتصرُ أربعتهن، كانت والدة محمد تعقد له محكمة بدون قضاة أو مستشارين: - ما بك يا بني؟

أفاق محمد من شروده الذي يصاحبه ويأبى فراقه طيلة يومين، تنهد قبل أن يجيب بهدوء: - لا شيء.

حدقت أمّه في وجهه بعدَ نظرة خاطفة لأبيه وأخته سلوان:

- كيف لا شيء، لقد مزّقت الرغيف بين يديك إلى قطع ولم تأكل منه لقمة واحدة، طبق طعامك كما هو لم تلمسه أصابعك!

هزّ محمد رأسه بضيق، هل يُسر لهم بما يعتمل في قلبه أم في الصمت الخير، لكنّه اعتاد مشاركتهم في كلّ ما يخصّه! ولم يشرْ أحدهم عليه يومًا إلّا بالرأي الصائب، غطّى عينيه بكفه ثمّ زفر بضيق: - ورد، لا أعرف أين هي!

التقطَ والده كلماته مشيرًا لأمه بالصمت:

- ما معني ذلك؟ فسّر.

- مُختفية، لا تذهب للعمل، لا تردّ على الهاتف، حتّى أبوها متغيب عن البيت بعد ما كان لا يفارقه.

تردّد أبوه قبل أن يسأل:

- ألم تسأله عنها؟

- سألته، لكنّي لن أخفي عليك.. إجاباته لم تكن مقنعة، قال إن لها صديقة طفولة مريضة نفسية وتحاول الانتحار، جمعوا لها صديقاتها في المشفى ليرفعوا معنوياتها، وسحبوا هواتفهن.

تعرف أمّه كم يحب «ورد» وكم تحبهّ، فمن أين جاء الشك!

- ولماذا لم تقتنع بكلامه؟

- «ورد» لا تختفي ساعةً واحدة بدون إخباري، في الأمر سرّ، لكني لن أستطيع الضغط على والدها لمعرفته.

قاطعته سلوان:

- «ورد» وأبوها لا يكذبان، طالما قال هذا فهي الحقيقة.

امتعضَ وجه محمد من كلمات أخته، يعرف علاقتها الوطيدة بورد، صديقتان بدرجة امتياز، تأخذ جانبها عند أيّ خلاف بينهما: - لا يا سلوان، لم أقلْ إنّه يكذب، لقد أزاح لي فقط ما يريدني رؤيته وترك الباقي يرتعُ في الظلام، وأنا لا أحبّ الجهل، أعشق النور وهذا ما ربطني بهما.

أسرعت أمه بقلق:

- وماذا ستفعل؟

- سأسحب طرفَ الغطاء على ما يلتف تحته، وسأعرف.

ألقى ما قبعَ في كفّه من كسرات الخبز الممزقة كرأسه، خرج وأغلق الباب ليخلفَ وراءه وجومًا يكسو وجه الجميع، فمحمد إذا دخل قلبه الشك فهذا لا يعني إلّا أن اليقين قادم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتحَ الحارس باب الغرفة لتدخل تسنيم، في عينيها لمعة لا تخفى على مثل عمار، تلك الفتاةُ اللعوب تستر في جعبتها ما ستخرجه لكنْ على حين غرّة،

جلستْ أمامه تُحدقه بابتسامةٍ مستفزّة، فبادرها: - ما علاقتك برضا الشالي؟

أثارتْ بالفعل حفيظته، وهي تردّد اسمه مرّات، بينما أصابعها تتلاعب بخصلات شعرها: - رضا الشالي، رضا الشالي، آاه تذكرت، أول ذئب صرعني فكشف للذّئاب عن لحمي.

هزّ عمار رأسه ليمنح عقلَه نبضة إفاقة، فخرجت كلماته بدون وعي: - ما تلك الجرأة!

- أين الجرأة؟! ألم يخبروك في عالمك الأنيق القادم منه على متن قاربك الذّهبي أنّ الذئاب تهاجم المجروحات بضراوة، وتتبع رائحة دمائهن!

وبنبرة ضيق قاسية قال:

- ما أعرفه أنّ الذئاب تتبع الجرحَ العاري، ويمكن للفتاة أن تستر جرحها كما فعلت صديقاتك.

جلجلت ضحكاتها:

- نحنُ والغابة سواء، لا نختلف عنها كثيرًا، البعض يختبئ والآخر يفتعل طريقته للفرار، والقويّ المتوحش يهاجم، وأنا كنت ملطّخة بدماء براءتي منذُ طفولتي، وكان أقصرُ طريق للدفاع هو الهجوم، فهاجمت حتّى لا تمزّقني الأنياب.

- وماذا فعلتِ؟

- ببساطة، كان عليّ إمّا أن أتحاشى الذئاب وأتخوفهم فيشتمون رائحة خوفي، وينقضون عليّ في غاراتهم الليلية، أو أنْ أربي بداخلي سنداوة رمادية هي من تنقض.

ثمّ علتْ ضحكاتها مرّة أخرى تجلجل في المكان برنين حفز الدم للارتفاع مِن أوردته إلى شرايينه، ليصلَ إلى رأسه فيحتنق باحمرار الخجل والأسف والاشمئزاز، فرمقته بنظرةٍ مُختلسة، وبنبرة شفقة تمثيلية قالت: - يبدو عليك الاشمئزاز، أنت لم تمرّ بما مررنا به، ولتنسى أمرًا مثله ما عليك إلّا أن تمنح جسدك الترنّح والغياب، وهذا لا يوجد إلّا في الإدمان، أو الاهتزاز المستمرّ حدّ السقوط، فأيهما أفضل؟

- وأنت اخترتِ السقوط؟

- لا، بل الاثنين، الإدمان حدّ السقوط.

صمتتْ فترة غطّت فيها وجهها بكفّها، ثمّ أطلت عليه بوجه غير الذي اعتاد: - قلْ بربك مَن ذلك الذي يستطيع أن يحتفظَ بروحه كما كانت بعد الانتقال بيْن

حالتين، كنت صلبة فأصبحت سائلة ولن يعيد صلابتى إلّا التجمد، لكن أينَ لي به بعدَ أن فقدت قطراتِ عفّتي، لقد تحوّلت إلى إنسان آخر بعد الدّقائق الأولى من الاعتداء، لم أستشعرْ روح التغيير ولا مردوده إلّا بعد عدّة سنوات، أصبح التلاعبُ بالرّجال متعة تُخدر أنين شوك جسده الذي غرزه في كياني، فأسال دمي ورجّ أحشائى، لم يعد قلبي ينبض إلّا بفرحة رجلٍ مهزوم في الحب، أُبكيه ليخرسَ صوت دمعي، فأهدأ ثمّ ما ألبث أن أعود.

تلك الفتاةُ على الرغم من جرأتها واشمئزازه منها إلّا أنها محقة، كلهنّ انصهرن وتجمّدن لأخريات؛ الثورة، العقدة، التصوف، الجنون، وهي كان قالبها الفجور، حزين هو مِن أجلهن: - ولماذا لا تحاولين تصحيحَ مسارك، فالحياة ما هي إلّا مجموعة أخطاء، ثمّ تصحيح، ثمّ وصول آمن.

رفعتْ تسنيم وجهَها إلى أعلى تلوّح وقد ارتفعت ضحكاتها الساخرة فامتقع وجهه..

- لوّح معي لطائرة القلوب الصافية التي هبطت لتوّها على أرض غرفتك.

ثمّ تبدّلت ضحكاتها إلى نوبة غضب لتكمل:

- وصولٌ آمن إلى أيّ محطّة يا سيدي؟ إلى محطة رجل يخزيني بإرادته بما فقدتُ عنوة، ليشرّح لحْمي نسيلة نسيلة مع كلّ كلمة، وكلّ موقف، وكلّ معايرة!

- أليس الوصول أفضلَ من الضلال!؟

أخرجت واحدة من سجائرها التي لم يعدْ يُهدّئ أعصابها غيرها، استأذنته بلمحةٍ من رأسها لإشعالها فأذنَ، لكن على ضيق وحنق، ثمّ نفثت زفير احتراق أول أنفاسها: - ولمَ محطة! طالما يمكن أن تكون محطات.

لنْ يكمل معها في تلك البركة الموحلة التي تخوض فيها، ظهر على وجهه الأسف: - أنسة تسنيم، هل قتلت رضا الشالي أو اشتركتِ في قتله؟

- لا، لم أفكّر يومًا في أن أقتل نفسي أو أقتله، كلّ ما كنت أبحث عنه كيف أقتلُ ذاكرتى؟ تلك المُعانِدة التي تأبي أن تهترأ، العاهرة التي ترفض أن تُستتاب فتنجلي وتشعّ ببريق النسيان، تنزف طيلة الوقت كرهًا وحقدًا على مَن يحملون تلك القطعة الزائدة، هل هي مَن أعطتكم لقب رجال كما تزعمون؟ أم أنّها فقط منحتكم الذكورية واغتصبت منكم المعنى الحقيقي لوجودها.

اتّسعت عيناه بدهشة، تأهّب أن يرد إلّا أنها أسكتته بطلقات رصاص فمها: - لم أكنْ أريد لك الراحة، أردت أن تتّسع دائرة شكك فتغتالك، لكني لم أعدْ أقوى

على احتمالك.

صرخَ عمار في وجهها بعصبية:

- لست وحدك.

فاجأته تسنيم بفتح جعبتها، وأخرجت جواز سفرها من جيب بنطالها، ومدّت له يدَها به، انتزعه عمار ليفرّ أوراقه بتوتر، التقت أعينهم في نظرة ثابتة، لم تكنْ تسنيم داخل البلاد عندما قُتل رضا، أغلقت الدائرة، وعلا صوت جرسِها في عقله، لكنها أصابته بشررٍ كهربي في قلبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكلّ طريق وعورته، ولكلّ استقامة تضحياتها، أصعب استدعاء! لا يعلم كيف تغلغلت في أعماقه بتلك السرعة، كيف يتمنّى ألّا يبرح صوتها أذنه ولا صورتها عينيه، بينما يرهب استدعاءها، لكن لا مجال، سمعت أريج اسمها فدخلت عليه بعيون متحفّزة كنمرة شرسة، ستغرز أنياب حبها لصديقاتها في قلبه، أشار لها بالجلوس: - قبل أيّ تحقيق، كيف حال زينب؟

- لنْ أخفي عليكِ، حالها ليس بخير، يمكن أن تتجاوز خطر الانتحار، لكن عقلها.

ثمّ ظهر على وجهِه الأسف، فهزّت رأسها بأسى وهي تقول:

- كلّ منّا خبأت الخوف في طيات روحها، أنا في قلمي، وورد في ثورتها، وبتول في قربها من الله، وتسنيم في لهْوها بالرجال، إلّا أن زينب خبأته في عقلها فذاب.

- هل تعتقدين أنّ هذا هو السبب؟

وبعدَ زفرة ألم قالت:

- في الطرق الصحراوية الوعرة تجد راكبي السيارات المحترفين يخفضون ضغطَ هواء العجلات حتّى لا تنفجر، وهذا ما لم تستطعه زينب.

- ولماذا لم تفعل مثلكن؟

- لأنّها ببساطة كانت أول الفرائس فنهشها السافل الجائع عن آخرها، ثمّ حمّلت نفسها إثمَ ما حدث لنا، والجبان حمّلها ما لا تطيق لتجد الآن من يحاول أن يبحث عن قاتله.

- إنسان، ومن حقّ القانون أن يعرف.

- لقد قُلتها، إنسان، هذا وجه الخلاف بيننا وبينك، أنت تراه بعين لا نراه نحن بها.

لم يجدْ عمار ما يمكنُ قوله فبادرته:

- هل يمكن أن أطلبَ منك أن تذهب إلى المدرسة ثمّ الدخول لحجرة الألعاب الرياضية، ستجدنا وتجده، وستعلم أنّ جميعنا قُتل هناك، حتّى هو وإن تأخّر إعلان مقتله سبعة عشر عامًا.

- هل هذا اعتراف منكِ بقتله؟

- أرأيت! لقد سمعت كلامي كما تريد لا كما أقصد، ونحن أيضًا نراه من حيث لن تراه، الفارقُ بين الحقيقة وصداها بعيد بعمق الوادي الذي ضخم صوتها.

- سأكرّر عليك السؤال ذاته، هل قتلتِ رضا الشالي أو اشتركتِ في قتله؟

ظهرَ على وجهها اليأس والألم قبل أن تقول:

- تعرف لو كان لديك دليلًا أو شبهة دليل لسارعتَ بإخراجه، لكن من المؤسف أنّك تبحث عن قاتل الذئب وسط الحملان!

احتلّت الدهشة والتكذيب وجه عمار فأشاحت بوجهها عنه ثمّ عادت: - تعلم، لقد جمعنا همّ فقدان عذريتنا، كنّا نلتف حول ألمنا وعارنا الذي أطفأ محاقَ العيون فلم تتحوّل حدقتها بدرًا، كلّ منّا تلمح الأحجار الأربعة في صدور الأخريات، بينما عيناها غائبة عن رؤية حجرها، كنت ألمح اهتزازَ زينب، وذبول ورد، وكبْت بتول، واهتراء تسنيم، لكني ما لمحت ذاتي إلّا عندما فقدتُها بالكلية، عشت أتعجّب على الأوطان التي تفقد عذريّتها على أيدى الظالمين ثمّ تتجدد.

تاهتْ قليلًا بينما هو يرقبها بعين اللهفة، ثمّ عادت لتقول:

- أليستِ المرأة وطنًا يؤنس وحشة، أرضًا تنبت المستقبل، سماء تقمر وتشمس على مَن تحنو، ما الذي تفرقه المرأة عن الوطن ليأتي مَن يجدد عذرية روحها؟

التقطَ خضار نبتة حنينٍ اقتربت أن تشقّ صدرها:

- ألا تحبّين الحياة؟

- كلّنا عشاق للحياة، لكن الحياة لا تعشق أحدًا.

- كيف؟

- لأنّها بلا قلب، فكيف لها بالحب؟ تطرحنا من كفّ رحم إلى كفّ قبر، نحن مَن نحاول في منتصف رحلتنا بين كفّيها أن نكون، علها تبادلنا حبًّا بحبّ، ونظرة شوق بنظرة رضا، لكنها أبدًا ما فعلت.

- هل يمكن أن تكون بتول أو ورد؟

عاجلته بابتسامة ماكرة هادئة كعادتها:

- هل تعتقد أنّه في استطاعتك أن توقع بيننا؟

- على الأقل ّلتتخلّصي من الأسر.

ولأوّل مرة تعلو ضحكتها:

- تظنّ أنك ستضغط لتسقط أحدانا قطرةَ اعتراف، نحن في محبسك أحرار.

- وبتول؟

- وبتول.

همّ ليقاطعها إلّا أنها أسكتته:

- وورد، إيّاك أن تظنّ أنّ خوف بتول من زوجها وارتعاب ورد على والدِها سيرجفهما، الرماد لا يخشى الاحتراقَ يا سيدي؟ ونحن بنات الرماد بامتياز، لن تشتعل في عظامنا نارٌ بعد احتراق.

عثت عيناها في قلبه، فتوقّفت نبضاته للحظات وتجمدت أوصاله:

- لكنكِ لن تنكري أنّكِ كنتِ بحاجة لمحنة لتكونِ ما أنت عليه، كلّ يوم تفرز الإنسانية نساءً يتزوّجن ويلدن ويمُتن، أمّا أنت فأفكارك حية ولن تموت.

- قد تكون محقًّا، لكنّ تلك المحنة ليست كغيرها، لا تترك للنساء خيارًا، الفضيحة والألم هما المدار، لا التفاف إلّا حولهما، بدون فصول أو نهار، هو ليل وشتاء بارد فحسب.

هزّ عمار رأسه وأغمضَ عينيه مخفيًا تحتَ جفنيه نظرات أسى، محقة هي، المجتمع جلّاد للمظلومين، وهنّ تمزّقت جلودهن بما يكفي، لكنه لن يكفّ عمله وسينجزه: - هل غادرت البلادَ في الفترة بين ١٥ و ١٧ أبريل؟

هزّت رأسها بالرفض:

- لا، لكني أيضًا لن أستطيعَ حصر أماكن تواجدي لثلاثة أيام.

- ألم تقتربي من منزل رضا قط؟

- وهل يقترب الجنودُ من حدود المغتصبين!

دقّق بعينيه وبنظرة حادة قال:

- نعم، في حالة الحرب.

- ومَن يعطي الإذن بها؟

- القيادة.

- والسبب؟

- العدوان.

- إذًا أنت تقرّ أننا كنّا في حرب مع رضا بسبب عدوانه، وقيادتكم الرشيدة أفسدتِ النتائج.

استنكر أقوالها، فعقّب:

- فقرّرتنّ أن تقمْن بحرب استنزاف لجريمتكم الكاملة.

لمعتْ عيناها وابتسمت بسخرية:

- إذًا أنت لا تمتلك دليلًا ضدّنا.

كلماتُها القليلة أجرت دماءَ الغيظ في جسده، لم يفلت منه جانٍ ولن يفلت، حتّى ولو كان هذا المدعو يمتلك قلبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كشفُ المستور

حفيفُ أوراق الشجر يشقّ سكون الشارع الطويل الذي سيقطعه على قدميه ليجدَ ما يمكن أن يُقله إلى نيابة جنوب الجيزة، منعه الطبيب من القيادة بعد أنِ اهتزت أعصابه وهي ترفرف بين يديه كفرخ الحمام المذبوح، ورد هي مَن حملت على عاتقها مهمّة القيادة، قدماه تلتفّ حول بعضهما كما تلتفّ أفكاره حولَ قلبه كحية رقطاء لن تتركه حتّى يعتصر، يحمل بين يديه حقيبةً صغيرة بها بعض الطعام وزجاجات ماء وعصير لها ولصديقاتها، لن ينسى يومَ ركضن نحوه بضفائرهنّ الناعمة المتشابكة بالشريط الأبيض النّاصع كلوْن قلوبهن وقتها، وأصواتهنّ ترتفع بالنداء المتلهف «أتى والدك يا ورد»، لتظهر من بعيد وهي تلملمُ ألوانها داخل حقيبتها، تحمل ورقة بيضاء بين يديها، وكلّما اقتربت تشكلت، حتّى رأى صورته بداخل قلب كبير، اتّسعت ابتسامة عينيه بينما ضحكتها الخجلة لونت خديها الناعمين بحمرة، التففن حوله: - كلّ عام وأنت بخير يا عمو.

وهي تهمس له:

- كلّ عام وأنت كلّ ناسي يا أبي.

كنّ قِطات صغيرات نبشَ فراءَهن كلب، فأصابهن بجرب مجتمعي أطاح بأحلامهن، ذكرياته تتخلّل جسده كخدر لن يزول، بينما حذاء أسود رياضي يتبعه بخفّة دون أن يدري، وصل والدُ ورد بعد مشقة إلى حيث وجدها تقف بجانبِ صديقاتها يتهامسن، يلتفّ حولهن ثلاثة رجال شرطة، مقيدات بأغلالٍ عدا تسنيم التي تقف مواسية، تَعرف من قبل إلى عمّ أريج: - هل من جديد؟

هزّ سعيد الحسيني رأسه بأسف:

- خرجت صديقتُهن تسنيم من دائرة الشك، ووجّه وكيل النيابة الاتهام لورد وأريج وبتول، وأمرَ بحبسهن أربعة أيام على ذمة التحقيق.

ناغشه السقوطُ لولا تلك اليد التي أسندته، التفت لتتقابل أعينهم: - محمد!

هزّ محمد رأسه بامتعاض ولم يعقّب، ألقاه وراء ظهره واتجه صوبها كطلقةٍ طائشة خرجت من فوّهة سلاح تعرف من ستصيب لكنها لا تعرف حجمَ ما ستخلفه من أشلاء روح، انتفضَ جسد ورد ثمّ تصلب وشدت هامتها وهي تتابع إقباله بكبرياء، شعرتْ أريج بحالها فألصقت كتفها بها تنظر لذلك القادم الذي يبْدو كنمر أرقط يستعدّ للانقضاض على فريسته: - ما الذي يستتر هنا؟

أشاحتْ ورد بوجهها، قاومتْ دموع الضعف بشراسة فابتلعتها مع ريقٍ جافّ امتزجَا ليصنعَا سائلًا شائكًا يكاد يمزّق حنجرتها فأخرسها، رمقته أريج بنظرة

حادّة، وحاجبٍ علا عن آخر: - متّهمات نحن في قضية قتل.

انزعجَ محمد من كلماتها واتّسعت حدقتاه وفتح فاهه للحظات وهو يشير بأصبعه نحو أريج كأنّه يسأل «ورد» هل ما قالته حقًّا، أفاق على صوت ورد: - نعم، هذا ما حدث.

دنا منها وهو لا يدري، هل يختطفُها بين ذراعيه فيخفيها عن الدنيا، أم يدفعُها بهما وهو يلومها على الكذب ويتحقّق من صدق الاتهام وسببه، التشتّت يقتنص ملامحه بخيوطٍ حريرية رقيقة لا سبيل لقطعها قبل أن تشنقه إلّا الحقيقة.

- من المقتول، وما علاقتك به؟

نكّست وجهها أرضًا، بينما بدأ الشرطيّون في جذبهن لترحيلهن للاحتجاز في قسم جنوب الجيزة، هرول خلفها وهو يردد: - يجب أن أعرف.

وجّهت «ورد» نظرها تجاه والدها:

- أخبرْه بالحقيقة التي أسرعتْ وكشفت عن نفسها قهرًا.

أغمضَ والدها عينيه وهو يتنهّد بعضًا من أنفاسه المحتجزة داخل صدره الممزّق يقاوم السقوط حتّى يغيب عن ناظريها، بينما هي تلتفت كلّ ثانية لتلمح تجاعيده التي شقّت في وجهه نهر عذاب جافّ لا يابس على جانبيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يرقبُه بعين بومةٍ حذرة، تتمنّى الانقضاض على حقيقة ما يعتمل في صدره: - أراك بالرغم من تحقيق ما أردت، إلّا أنك لست مرتاح البال.

أومأ عمار برأسه:

- نعم، لأوّل مرة لا أجد بداخلي متعة حلّ غموض الأحداث.

- الأمرُ لم ينته بعد، قد تكون على يقين، لكنْ لكلّ يقين أدلة، بدونها يجعله أصغرَ محامٍ هباءًا منثورًا.

أطالَ عمار النظر إليه بتوجّس:

- هل تتمنّى إفلاتهن؟

غابَ مروان في بعيد، ثمّ عاد بشهيق عميق:

- عندي طفلة يا عمار، تخيّلتها في كلّ واحدة منهن، لو اقترب منها أحد سأقتله، كلّ ما أتمنّاه أن يكون بيقينك موضع ضعف ليستطعن اختراقه والمرور.

- أنا على ثقةٍ منه، لكن ليس ذلك ما يزعجني.

- ماذا إذًا؟

- يؤلمني غطاءُ السّتر الذي سيرتفع عنهن، امرأة مثل بتول ستفقد حتمًا زوجها.

رفعَ مروان حاجبيه، وهزّ رأسه بدهشة:

- في يدك أن تفرجَ عنهنّ، وخصوصًا أنه لا توجد قرينة اتهام واحدة.

هزّ عمار رأسه بأسف:

- لا، هذا عملي الذي أقسمتُ على شرفه، قد يهتزّ قلبي لهن ويرق، لكنه شعورٌ إنساني بعيدًا عن واجبي بُعد المشرقين، وجّهت لهنّ الاتهام لكني لن أتركهن، سأقفُ بجانبهن إن حقّ عليهن القول.

- لو صحّ اتّهامك سيكون القتلُ مع سبق الإصرار والترصد.

صمتَ عمار قليلًا، ثمّ فاجأ مروان:

- هل تعرف لقد اكتشفت أنّ بتول عسراء.

دهشَ مروان من براعةِ عمار ودقّة ملاحظته:

- كيف عرفت؟

- عندما وقّعن على الأقوال.

ردّد مروان كلمات عمار:

- القصير أعسر.

- نعم، كثّف تحرياتك يا مروان، اعتصرْ مَن حول رضا من جيران في البيت والشارع، لا تترك أحدًا، لنْ أستطيع إبقاءهن بعد الأربعة أيام إن لم يكنْ في يدي دليل. ثمّ وكأنه مرقَت في عقله بادرة: - وابحثْ في نطاق واسع حول منزل رضا عن عامل نظافة، وجد ثلاثة أحذية رجالي وخمس سكاكين، أو أيًّا منهم.

هزّ مروان رأسه مؤكّدًا على ما أراد:

- هل يوجد في التقرير ما يمكن أن تستند عليه في اتهام؟

- للأسف لا؛ لذلك لن توقعهنّ إلّا التحريات والضغط النفسي، سأباشر التحقيقَ معهنّ مرّات ومرّات حتّى تنهار إحداهن وتفتح لي طاقة المرور.

- وإن لم يحدث؟

- لن أستطيع عندها تقديمَهنّ للمحاكمة، وسيفلتن كما أفلت، وأعتقد أن هذا هو تحدّيهن، دم بدم، وإفلات بإفلات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك الخطواتُ القصيرة بينهما تشدّهما بحبل طرفيه اللوم والخجل، اندفع محمد نحوَ والد «ورد» لينفث في وجهه شرر احتراقه، ليلقي عليه مزيدًا من الحطب، وهو لا يتحسّب أن قلبه كان قد هوى بالفعل في حفرة السعير وما تبقّى إلّا الجسد، سقط الأبُ المكلوم على غفلة من الجميع بين أيادٍ لم تنتبه لتتلقّفه، سقط كما تمنّى دومًا لينهار جسمانه المتشقق المتواري خلف ثيابِه لسنوات، لقد كان حبّ «ورد» هو السائل السحري الذي يحول بينه وبين التهشّم، وها هي تتبخر من أمامه بدون حول له ولا قوة، أسرع الجميعُ بما فيهم عمار ومروان إلى نجدته، لكن الوقت كان قد حان للاستسلام، دويّ عربة الإسعاف يضغط على أذني محمد وعقله وقلبه، التناقض كلمة لم تُطلق إلّا لما هو عليه الآن، عرف ما كان من عمّ بتول الذي لم يتوقّع جهله بالأمر، هل يُعقل ما هو فيه! وماذا سيكون الخيار؟ الفضيحة ستفتح لها صفحات الجرائد ومواقع التواصل الاجتماعي أبوابها غدًا، وليس بعدَ غد، رأى الصحافيّين يلتقطون الصور هنا وهناك ويتقصّون الخبر من كلّ مَن يعمل بالنيابة، العناوين الرئيسية ستتسابق، المائدة متّسعة بكلّ ما يثير اللعاب، اغتصاب وقتل! وما أشهى تلك الطعوم بين أضراس البشر! حين تقع بين فكيهم تجاهد حتّى لا تكون لقمة سائغة لأضراسهم حيث رائحة أفواههم النّتنة، يلوكونك كالعلكة، يمتصون حلاوة أيامك، ثمّ يلفظونك حيث موضعُ أقدامهم، ولن يتورّعوا عن سحقك أسفلها، بينما ألسنتهم تُطلق شعارات الرّحمة والحب والتسامح والإيثار، لكنك فقط ومِن موقعك المهيض تُهدم عليك أحجار قلوبهم القاسية لتؤدك حيًّا.

الطريق كأنه لا ينتهي، يتّسع ويضيق، يرتفع وينخفض كصدره المضغوط ببالون الغضب، استقرّ والد «ورد» على سرير بالعناية المركزة بمستشفى التّطبيقيين، تتصارع عليه الحياةُ مع الموت، تذكره بورد ووحدتها وتهمس له أنِ انهض، والموتُ يرقبه وهو يمدّ يده لزوجته أنِ احتضني أشلائي علّني أرتاح.

ووسطَ الحيرة والألم اقترب محمد من الطبيب:

- كيف حاله؟

- جلطة دماغية، من الواضح أنّه تعرّض لصدمة.

هزّ محمد رأسه بالموافقة، انصرفَ الطبيب وبقيت أفكاره تحدثه: - لن أتركَ جوارك حتّى تستقر في بيتك.

دخلَ محمد بيته شاردَ الذهن معكّر الصفو، تشي ملامحه بما هو عليه، ليرتفع صوت أمه: - ننتظرُك على الغذاء، لمَ التأخير، مرّ أكثر من أربع ساعات على عودتك وهاتفك مغلق!

وجهه الشاحب يتكلّم بدلًا من لسانه، لا يقوى على فتح فمه، ماذا سيقول؟ هل يخفي الأمر؟ لكنهم حتمًا سيعلمون.

- عرفت ما كانت تخفيه ورد:

دخلَ والده من الشرفة منزعجًا فورَ سماعه لكلماته:

- طمّني، ما الأمر؟

لم يستطعْ والداه بعد ما سمعا النطق بكلمة لفترة، العيون تتلاقى ثمّ تتباعد، والصمتُ التهم أوتار الحناجر، حتّى قطعته الأم: - قرأت حادثَ اغتصاب «ورد» وصديقاتها منذ سنوات، لم أكن أعلم أنها هي، تفاعلت بشدّة مع شجاعتها وقتها، تمنيت أن ألقاها لأربّت على كتفها، لكنّي لم أعلم هل سأهنئها بجرأتها وإنقاذها لمَن قد يأتين بعدها، أم سأواسيها فيما فقدت؟ هل سأضحك في وجهها مشدّدة على النهوض أم سأبكي لقسوةِ السقوط؟ لكني ما توقّعت أبدًا أن يكون صراعي ما أنا فيه الآن؟ الأختبار من أصعب ما يكون.

هزّ والد محمد رأسه متأسفًا لتلك النماذج التي ترعى كالدود في جسد المجتمع فتنخره، لكنّه هو أيضًا لا يعرف بما ينصح ابنه: - القرارُ كله ملكك يا محمد، لك قلب وروح هما من سيحسمان ترددك لا أنا ولا أمّك، لكن إنْ كان قرارك بالبقاء إيّاك وجرحها يومًا، وإن كان ما سواه فارحلْ بهدوء، فكفاها ما لاقت، كنْ رجلًا وتحمل اختيارك.

تلقّفت أم محمد كلمات أبيه لتعقب:

- لستُ معترضة على الاستمرار، لكني وبكلّ صراحة ما تمنيت أن تُلقى في ذلك البحر الخضم الذي لا أعلم أينَ ستقذفك أمواجه، الرجال قد يتغاضون عن البكارة لمثل تلك الأسباب لكنّها لا تغادر عقولهم، ترعى بداخلهم كالبركان، قد يخمد لكنّنا لا نستطيع الجزم بعدم ثورته.

تاهَ محمد في كلمات أمّه التي وكأنّها أزاحت ضلوعه، وشفّ لها قلبه عما يحتدم به، ابتلع ريقه وهو يهمس: - هل ترجّحين الابتعاد؟

هزّت رأسها بضيق:

- ورد فتاةٌ لا غبار عليها، وكما قال أبوك القرارُ كله ملكك، فكن رجلًا واختر، لكنْ إيّاك وباب التردد، فمَن يقف عليه لا يصل، لكن قل لي هل قتلته «ورد» وصديقتاها بالفعل؟

- لا أعرف.

شردتْ به خيالاته وهو يتنهّد تنهيدة بحجم ألمه، حقًّا هي قضيته التي لن يصدر حكمها إلّا من منبع فكره وعقيدته، الاختبار قاسٍ، والحلّ يقبع بعيدًا، لكنّه سيستدعيه ويسطّره بكلّ حسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غرفة الحجز ضيقة، لكنّها أبرح من أيّ مكان سبق، بتول منكسة الرأس تشتمّ رائحة فضيحة، وللعجب محمّلة بأول أنفاس الحرية، ورد تذهب وتجيء تهزّ عودها القوي رياحُ الخوف على أبيها ومحمد، أريج تجلس صامتة كالجبل الشامخ، لا خوف على أهل أو زوج أو حبيب، وتدٌ هي؛ لن يزعزعه هزّة أرضية مهْما علا قياسها، المكانُ رائحته تضج بالأدخنة والهمهمات، لكنّ التحامهنّ شكّل حائط صدّ ضدّ من حولهن، واللاتي يثقن أنّ بينهن جاسوسات لعمار. أدارتْ أريج نظرها على الوجوه قبل أن تهمس: - اعلمَا أنّ أعلى وسام شرفٍ ستتقلده فاعلتها، فهل منكما مَن أعادت كرامتنا بسيلان دمائه؟

هزّت بتول رأسها بالنفي، وتبعتها ورد، رفعت أريج كتفيها عجبًا: - فما بالُ ذلك المحقق يصرّ على إلصاق التهمة بنا؟

علّقت بتول:

- لو كان لإحدانا بصمة أو حمض نووي في مكان الجريمة أو أيّ دليل يستند عليه الاتهام؛ لواجهنا به.

همست ورد:

- أعتقد أنّه يتعمّد الضغط على أعصابنا، يستنزفنا فحسب.

أسرعت أريج:

- ولمَ الاستنزاف بلا دليل؟

قاطعتها بتول:

- أنا مع ورد، حدسُه كوكيل نيابة يشدّه نحونا، وكل ما يريده سحب الحبل لتنهار واحدة وتعترف، لا تنسَ يا أريج أنّ الحبس ليس هو الضغط الوحيد علينا، الأهمّ هل سنوكل محامي؟ عرض عمّي ورفضت، أريد أن أبتعد عن الخداع والمكر والضغط، أنا هنا بينكما حرّة أكثر من ذي قبل.

أشاحت أريج وجهها بعدم الاهتمام:

- لستُ في حاجة إليه، على النقيض، حبسي بسبب مقتله منحني حرية من اعتقال ذاتي.

همست «ورد» بضعف:

- إذا اتّفقتما على عدم الحاجة فأنا معكما.

هزّت أريج رأسَها بالموافقة، ثمّ سبحت في أفكار لم تفق منها إلّا على يد بتول تهزّها: - شعوري يحدّثني أنّ قدوم زيد اقترب، الخجل يدثّرني فأتصبّب بعرق الأسف، قولي لي ما الذي عليّ فعله يا أريج؟ دومًا ما كنت عقلنا الواعي المتقد.

- ما نعيشه اليوم ما هو إلّا نزيف لسقوط جنين مشوّه، استمرّ حمله سبعة عشرَ عامًا، لا هو يريد الموت ولا المخاض، اليوم فقط سنتحرر من رِقّ الماضي، سيطهر لهيب التجربة القاسية حياتنا من أيّ زيف أو خداع ويصفو جسدنا من الشوائب، ألم تفكّرن لماذا طالت ثلاثتنا المحنة بدون زينب وتسنيم؟

انتبهَا لها وهما يهزّان رأسيهما بعدم الفهم، فأكملت:

- زينب وتسنيم لم يُشيدَا حياة، كلاهما اختارت الموت بطريقتها، أما نحن فكنّا كالطيور التي تعاند لتصنعَ الأعشاش في أشجار الغير، وسينهار اليوم الزّائف منها وسيصمدُ الصلب، أريدكما بالقوّة التي تتحمل الفراق، تأهبَا له حتّى وإن لم يأت على عجل، فهو حتمًا قادم.

بكتْ «ورد» حتّى انتفض جسدها بعد ما سمعت:

- إلّا فراق أبي!

بادرتها بتول وهي تربّت على كتفها، بينما أريج ترمقها بحزن: - ومحمد، ألا تحبّينه؟

زفرتْ كمَن تصعد روحه:

- أحببته عامًا بكلّ الأعوام.

قطع حديث «ورد» صريرُ باب الحجز، وصوت الحارس يعلو بأسمائهن، نهضنَ ظنًّا منهنّ بالفرج، إلّا أنه سارعَ وناولهن لفّة طعام وتُرمس شاي وأكوابًا بلاستيكة وماء، ثمّ أغلقَ الباب مرّة أخرى ليفتح معه حيرتهن، مَن أرسل كلّ هذا؟ قالت بتول: - يمكن أن يكون عمّي، أو والد «ورد».

ابتسمتْ أريج وهي توزّع الطعام، ثمّ قالت وهي تصبّ الشاي وتشتمّ بخاره بعمق: - لا يهمّ عندي مَن! المهمّ أننا كنّا جوعى وفي شوق بالغ لكوب من الشاي، وجبتي الأولى التي سأستمتع بمذاقها. ثمّ وجّهت نظرها لورد وهي تقول: - احكي كيف قابلتِ محمدًا، ليلُ الأسر وحش لن يقتنصه إلّا الحكي.

غابت «ورد» بعينيها كمَن يسحب شريط الذكريات، ثمّ عادت:

- ليلة من أوائل الشتاء، كانت السيارة في الإصلاح، فاجأتني السماء بإعصارٍ فورَ خروجي من العمل، وكان المكتب قد أغلق أبوابه، كنت أرتعد وأنا في انتظار ما يقلّني إلى محطة الحصري بمدينة أكتوبر، وجدته أمامي يمدّ يده لي بمعطف، تراجعت للوراء بخوف لكنه ابتسم وعاد بمدّ يده، تناولته بتردّد، ثمّ لبسته على عجل، منحني نظرةَ اطمئنان فاسترخيت بداخلي، ثمّ سمعت صوته الذي وقع على قلبي كنقش في الحجر: - اسكن تلك الشقة، رأيتك ترتعدين فخشيت أنْ تصابي بنزلة برد.

هاجمته فورًا:

- وكيف ستضمن عودته؟ ألا تخشى من استيلائي عليه؟

ارتفعتْ ضحكاته بخجل:

- لا، لن تفعلي.

أثارت ثقته انتباهي، فقلت بهدوء:

- ولمَ لا؟!

زادَ خجله وتوقفت ضحكاته:

- أرقبك منذُ فترة، أعرف أنّك تعملين في مكتب تصميم د سامي.

انتبهتْ بتول وأريج أكثر، ولمعت عيونهنّ بشعاع الحب الذي مرق من عيني ورد، لقد ألقتْ بضيّ قلبها لقلبيهما فأنارَا، وضعت أريج كفها على وجهها، وبتنهيدة قالت: - وماذا بعد!؟

اتّسعت ابتسامة نادرًا ما تلوح على وجه «ورد»:

- تواعدنا لأردّ له أمانته، لكننا لم نتوقّف بعدها عن اللقاء، جمع قلبينا دفء معطف الحب، لم يكنْ قد حصل بعدُ على فرصة عمل جيدة، فسعى له والدي في وظيفةٍ مرموقة أراحت حاله ونفسَه، كنّا نتأهب لخطبة رسمية، لكنّ الحياة عاجلتني بلكماتها كعادتها.

صمتتْ طويلًا فاحترمت أريج وبتول حزنها الذي قطر من عينيها قبل أن تكمل:
- إعصار جاءَ به، وآخر قد يرحل به، وما بينهما أنا في دوامة.

أسكتت كلماتها الأفواه، وارتفعتِ العيون إلى الشباك الصغير ترقب خيوط الفجر التي تنسابُ بين ثنايا الليل، تنهدنَ بأنفاس تهمس: «علّ الفرج يكون قريبًا»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفعتِ العناوين في الصّحف، وعلى وسائل التواصل الاجتماعي، والمواقع الإخبارية تنهشُ لحومهنّ مع صور لهن «ثلاث فتيات يقتلن مدرسًا بُرِّئ من اغتصابهن منذ سبعة عشر عامًا»، «ثلاث فتيات يواعدن مدرسًا في شقّته ثمّ يقتلنه»، «برغم براءته من جريمة الاغتصاب ثلاثة فتيات يقتلنَ مدرّسهن»، «كاتبة مشهورة متورطة في فضيحة اغتصاب وقتل»، حكمتْ محكمة الصحافة بإدانتهن، لوكهنّ الناس بين فكوكهنّ قبل أنْ تقول المحكمة كلمتَها! رنّ جرس الباب وهو يجلس كالصنم على أريكته متجمّدًا أمام الكارثة التي ضربت جدرانه، تحرّك نحوه كآلة قديمة صدأت تروسها بعدَ إلحاح الرّنين، لم يتوقع قدومه! أفسح الطريق ثمّ تركه عائدًا إلى جلسته، جاءه صوته: - لم يكنْ في مقدورنا غير ما حدث يا زيد.

رفعَ عينيه لتواجهه نظراته المشمئزة، فأضاف:

- بتول رفضتْ وبشدّة، أنا مَن أجبرتها ولن أخفي أنّ الإرغام تطور إلى الحرق الجسدي.

بُهت زيد وارتفع صوته:

- أنتَ مَن أحرقتها! قالت لي إنّ الماء المغلي وقعَ على يديها وترك لها ذاك الأثر!

- لا، لم يكنِ الأثر إلّا بقايا عنفي تجاهها.

- ولماذا أتيت؟ تعرف.. لقد توقّعت منك الهروب، فمثلك لا يقوى على المواجهة.

- جئتك لتطلقها بهدوء، وسأوقّع لك تنازلًا عن أيّ حق لها.

هزّ زيد رأسه بأسف:

- بالرغم من كلّ ما حدث وسيحدث؛ كلّ ما يعنيك نفسك، متى ستفكر فيمن حولك، ألا تعي ما فعلته بي؟ ألا تشعر بحجم الخداع؟ لقد دمرتني ولا ذنب لي! متى ستفكّر في ابنتك القابعة الآن بين المجرمات في انتظار محاكمة.

وبابتسامة ساخرة أكمل: - تعرف! لم أذهب إليك لأنّي ظننتك سافرت إليها، أحاول الآن أن أتوهّم أن مَن يقف أمامي ما هو إلّا خيالك الذي استدعاه غيظي.

- هي مَن جنت على نفسها.

هاجَ زيد وثار، هبّ من جلسته كالمجنون يضرب كفيه ببعضهما: - وأنت على مَن جنيت؟ ألم يلقّنك أحدٌ أن أول حماية للفتاة حب والدها، خوفه عليها وتوعيتُه لها، تعلم أولئك الخمسة لم يغتصبهن مدرسهن، البيوت الممزّقة هي من اغتصبتهن.

أشاحَ والد بتول رأسه بعِناد وتكبّر:

- ما الهراء الذي تقول؟

- هراء! الهراء هو أنْ أترك فتاتي بلا وعي أو تحذير، أن أدعها لقمة سائغة للالتهام.

تجمّد وجه والد بتول:

- أيّ تحذير سيفتح بابَ براءتهنّ مبكرًا!

ارتفعتْ ضحكته اليائسة بالسخرية:

- وعدم التّحذير ماذا فعل؟ لم أقلْ أن نفتح باب عقولهن على مصراعيها، بل نطرق عليها طرقًا خفيفًا بالتخويف والإفهام ومنح القوة، لا أن نغتالهم بإرساءِ الضعف كما فعلت، ففُهِرت وفضّلت جحيم الوغد عن سعيرك.

زفرَ زيد شهيقًا محمّلًا بالغضب، زادت عصبيّته وارتفع صوته: - لماذا لا نعطي بناتِنا بذرة الخوف وسببها لننبت في قلوبهن الحرص والحذر، «لا أحد يلمس جسدك؛ رجلًا كان أو امرأة»، «لا تدخلي غرفة مُنفردة مهْما حدث، وتحت أيّ ضغط»، «كوني دومًا وسط زميلاتك ولو طلبَ منك مدرّس الذهاب لغرفة هاجميه بأنّك لن تفعلي ثمّ تعالي وأخبريني وأنا سأتصرّف»، بضع جُمل تتكرّر لتمنح الفتاة إرادة وتوعية بدون خدش أيّ حياء، وتلك القوّة لن يمنحها إلّا الأب.

امتعضَ والد بتول، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة:

- أصبحتُ أنا المخطئ!

تغيّرت ملامحُ وجه زيد كجمرة مشتعلة غضبًا:

- نعم أنتَ المخطئ، وسأحمّلك فاتورة ارتفاع هامَتك على رقاب غيرك.

- أفهم ما تشيرُ إليه، لكن أيّ انتقام تفكّر به لن يفيدك، طلقها بهدوء وسأتنازل لك عنْ كلّ مستحقاتها، وإنْ أردت فوق ذلك سأعطيك.

أطالَ زيد النظرَ لوجهه، ثمّ رفع حاجبيه وهو يردّد:

- بكمْ تشتري المغفل؟ قل لي كم مغفلًا اشتريت؟ وبكم؟

احتدّت نبرةُ والد بتول، وقست ملامحه:

- يجبُ أن ينتهي الأمر هنا، لصالحك قبل صالحنا، كثرة الكلام لن تفيد.

هزّ زيد رأسه موافقًا:

- صدقت، كثرةُ الكلام لن تفيد، لكنْ تذَكر أنّ العاقبة ستكون بقدر الفعل.

خرجَ والد بتول ليعودَ زيد لجلسته المتجمّدة، توقّف عقله عن العمل، قلبه يكاد يندفع من بين ضلوعه من شدّة نبضه، الغيظ أقام له حفل شواء هو فريستها بلا آكلين، أدخنةُ الغضب تتصاعد لتعتم الرؤية، وضع كفّه على عينيه لتعمى عنْ ذكرى زواجه بها، صرخ بكلّ ما استطاع وهو يطيح بمطفأة كريستال أمامه: - مغفل.. مغفل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأربطةُ البيضاء تحيط بمعْصميها، أنفاسها الهادئة حدّ الموت لا تحرك لها صدرًا. عمار يجلس بجانبها في هدوءٍ ينتظر استيقاظها، يتأمل وجهها الشّاحب وجفونها المغلقة وجسدها المستسلم في هوان، كوردة مغمضة قطفتْ قبل أن تتفتح، فلم تشرق وريقاتُها للحياة فبقي نور الشمس لقلبها مجرّد أسطورة، انتظرَ ساعة حتّى يزول تأثير المخدر المتناوب على عقلها ليخمده، ارتفعتْ جفونها في هدوء ليفاجئها وجوده: - حمدًا لله على سلامتك.

نطقتْ بوهنٍ وكلمات متقطعة:

- ماذا فعلت بصديقاتي؟ هل قسوت عليهن كما قسوت عليّ؟

- هل تسمّين محاولة إنقاذك قسوة يا زينب؟

- الرّحمة المتأخرة عن وقتها قسوة، المرْحمة الوحيدة لحالي كانت إطلاقي للموت.

- وتتركين أباكِ وحيدًا؟

هزّت رأسها بأسف:

- هل تظنّه كوالد وردا! كثيرًا ما أتخيّل الأمر لو أنّه منحنٍ قليلًا من الحبّ والوقت.

حاولتِ النهوض لكنّ جسدها الواهن لم يسعفها، ساعدها عمار بوضع وسادةٍ خلف ظهرها لتستندَ عليها، نظرات عمار تحمل شفقة وعطفًا: - هل لي في سؤال؟

هزّ عمار رأسه بالموافقة:

- هل هناك دليل ضدهن؟

- تسنيم خرجتْ من دائرة الشك، وبتول وأريج وورد محتجزات، كلّ ما أطلبُه منك يا زينب أن تساعديني في إنقاذهن.

كرّرت زينب سؤالها:

- إجابتك ليست لسؤالي، هل هناك دليل ضدهن؟

لم يجدْ عمار بُدًّا من الاستسلام، زينب تحاصرُه في نقطة يريد المراوغة فيها، لكنّها ليست في حال لتحملها: - إلى الآن، لا.

حدقتْ جفنيها، ونظرت له بمكر:

- وكيف أساعدك في إنقاذِ مَن زججت بهنّ في سجن الظلم؟

- لو عرفت الحقيقة عندَها يمكنني ربطُ الحادثة القديمة بالجديدة والأمل في برائتهن كبير.

أشاحتْ بوجهها المُمتعض عنه، وهي تهمس:

- يا لها من أحجية! تتّهمهن ظلمًا لتبرئهن!

رفعَ عمار حاجبًا دون آخر، وبنبرة حاسمة ونظرة ريبٍ، قال: - ليس ظلمًا يا زينب، وأظنّك تعلمين، أليس كذلك؟

تأسّفت زينب على شعورها سابقًا نحوه:

- كنت أظنّك مختلفًا، شعرت لوقتٍ أنّك تفهمت ما جمعنا.

- تفهّمت يا زينب.

هزّت رأسها بيأس، ثمّ شردت قليلًا كأنّها تسحب حبل ذكرياتها: - لوْ كنت معنا! جرس انتهاء الفسحة كان يعني لنا التمرد والسخط على قصْرها، لم نعرف بعدها معنًى لتلك الكلمة، انزوينا وتدثرنا بالصمت إلّا عند اجتماعنا، كنّا نتكلم كجوعى كلام، فالمريضُ لا يشعر بالأمل إلّا وسط المرضى، والأسيرُ لا يتناسى

الحرية إلّا وسط المساجين، فهل تظنّ أني لو كنت أحمل سرّهن سأبوح لك به؟

- كلامك لا يعني إلّا أنّهن القاتلات؟

- ألم أقلْ لك لا فائدة!

انتبه عمار لملامح الألم التي احتلّت قسماتها:

- أعرف أنّ قضيتكم كانت ظالمة، والمؤلم أن قضيتي تتعارض معها.

رمقته بطرفِ عين تجعد شبابها:

- قضيتنا أنّ حُلمنا بالعدل وقعَ في يد الملك حيث الأحلام أضغاث، ولم يقع في يدِ سيدنا يوسف حيث حصحصَ الحق. ثمّ تنهدت تنهيدة شعر عمار أنها مزّقت صدرها وصدره لتكمل: - ليتك لا تأتي مرّة أخرى إلّا إذا كان التحقيق رسميًّا، قناع الصداقة الواهم سقط مبكرًا.

ثمّ أشاحت بوجهها بدون عودة، لقد أعلنت له انقطاع الخيط الذي حاول تمريرَه بينهما، ومن مثل زينب لا يمنح الثقة مرّتين، فسقوطك لا يعني إلّا أنّه لا قيام لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يومان مرّا كعامين من أربعة أيام حسومات، محمّلة برياح الغضب المهلكة بلا فتور أو انقطاع، الدّقائق بطيئة وقاتلة كالرجم بذرات الرمال، لا استدعاء، لا أخبار، لا أمل! القلق يحشو أجوافهن الجائعة للاطمئنان..

- لم يصلني خبرٌ عن أبي، القلق ينهش أحشائي.

ربّتت بتول على كتف ورد:

- الصّبر يا ورد، إن الله مع الصابرين.

حدقتها «ورد» بنظرات بدتْ جنونية مخيفة:

- أيّ صبر! عدم ظهوره لا يعني إلّا كارثة.

أشارتْ لها أريج بكفها متعجبة:

- ولمَ لا تقولين إنّ عمارًا هذا منع عنّا الزيارة كوسيلة ضغط كما قلنا سابقًا! عمّ بتول أيضًا لم يأت.

ابتسمت بتول لورد وهي تقول:

- لم تُطلق على أريج الحكمة من فراغ، فهي في القلق أمان، ووقت العاصفة وتد، وعند الألم ترياق، ووقت التفكير رجل.

ارتفعتْ ضحكاتهنّ مع صرير بابِ الحجز المعتاد، ظنَنّ الحارس جاء بالطّعام اليومي الذي لا يعرفنَ مصدره إلى الآن، إلّا أن صوته ارتفع بأسمائهنّ كاملة يقرؤها مِن ورقة استدعاء، العربة تتحرك نحو النيابة، وأفكارهنّ تتسارع معها، في تلك اللحظات يختلط الأمرُ فلا تدري، هل جسدك المتلهّف هو مَن يحرك السيارة أم هي مَن تسرع به؟ النظرات تلتقي لتتباعد، الكلماتُ قطفت من على الشفاه، ولم يتبق إلّا شوك الصمت والخوف، أمامَ حجرة وكيل النيابة وقفت ورد تتلفت يمينًا ويسارًا علّها تلمح أحدهما بلا جدوى، الفراغ تشكّل دخانًا اخترق عينيها فأدمعهما، مسحت خدّيها فور سماع اسمها، فتح لها الحارس الباب لتلتقيه: - تفضّلي يا أنسة ورد.

جلستْ ورد بثقل لحظات الأسْر، ونظرات الحقد تلمع في عينيها، التردد يتأرجح برأسها، فكّرت للحظات أن تسأله عن أبيها؟ لكنها عادت من ذلك الطّريق الذي لن يعني إلّا أنه عرف كيف يضغط عليها، نظر للكاتب وقرأ عليه تاريخ اليوم واسمها ووقت التحقيق لتبدأ الأسئلة.

- بالرجوع لعملك وسؤال صاحبه اتّضح أنّك يوم الخميس ١٣ أبريل استأذنتِ بالانصراف ثمّ عدتِ مرّة ثانية.

هزّت «ورد» رأسها بثبات:

- نعم، استأذنت لساعةٍ واحدة لأدفع اشتراك النادي.

- وأين يقع النادي؟

- في مدينة ٦ أكتوبر حيث أعمل.

- وهل تتواجدين فيه باستمرار؟

- نعم، فأنا مِن أبطال السباحة والجري، وحصلت على ميداليات فيهما.

- وهل اشتراك النادي يدفَع في أبريل؟

- لا، دفعتُه وغرامة تأخير.

ثمّ واتتها فكرةٌ تحصل بها على ما تريد بدون خضوع، فأكملت: - لو دقّ رجالك بابَ أبي سيمنحهم إيصالَ النادي بالتاريخ والمبلغ المدفوع.

ارتبك عمار فورَ ذكرها والدها، فلم يخف عليها ارتباكه:

- ما الذي حدث لوالدي؟

زفرَ عمار شهيقًا كان يعبث بقلبه رفقًا بها وهو يُنحّي عينيه، لكنها ثبتت نظراتها بجمودٍ وإصرار، فاضطرّ للنطق بالقليل: - مريض بمستشفى التّطبيقيين، أتابع حالته وهو اليوم أفضل.

ألقت «ورد» وجهها لكفّها الأيسر، واستسلمت لبكاء عنيف شقّ قشرتها الصلبة التي تتزمل بها: - سأسمح لكِ بزيارته بعدَ التحقيق في حراسة، فدعينا ننهيه سريعًا.

كلماته لا تعني إلّا المساومة، لكن على ماذا؟

- هل ذهبتِ إلى منزل رضا الشالي من قبل؟

خفضتْ رأسها ثمّ رفعتها تفتعلُ ضحكة مصطنعة تحمل معاني الاستهزاء، في لحظات ارتفاع الأسى عن المؤشّر المقبول ينفجر إلي سخرية، رفعت وهي تقول: - نعم، أنا وصديقاتي في سنّ التاسعة لما أذهلنا حسنه الملائكي وقطعنا أيادينا بسكاكين الرّغبة راودناه ولم يستعصم، كبرنا وكبر حبه بداخلنا، كنّا نواعده ونذهب عنده على فترات، مَن قتلته مِن المؤكد غارت من الأخريات، مَن هي؟ لا أعرف.

تجمّد وجه عمار وتسمّرت حدقتاه، وارتفع حاجبيه وعلا صوته: - هل تسخرين في تحقيق رسمي.

هبّت من جلستها، وضربت مكتبه بكفّها وهي تصرخ:

- ما نحن فيه هو السّخرية بعينها، لو كان لديك دليل واحد ضدنا لغرسته في قلوبنا كالوتدِ الفضي لتقتل مصّاصي دماء رضا البريء، لكنك فارغ تحشو داخلك بأوهامٍ لن تصل بنا إلّا إلى الهاوية، بتول ستُطلق، وأنا سأفقد حبّ عمري الملقىً على فراش الموت، وأريج ستفقد سمعتها ككاتبة، من أجل مَن؟ مغتصب؟ أم مِن أجل أن يصدق حدسك، غرورك سيهوى ببقايا أشلائنا، وأقسم أنّه لن يهتز لك جفن على ما خسرنا وما سنخسر.

كان يرمقها بعيون صقرٍ يتمنّى التقاط فريسته على غفلة منها، تركها لتفرغ شحنتها علّه يجد بين كلماتها حرفَ إدانة فإذا بها تقتنصه، ساد الصمت فهمست: - هل انتهتِ الأسئلة؟ هل سأذهب لأرى أبي؟ أم سأحرم من منحتك المَلَكية لأنّي لم أعترف بقتل البرنس رضا؟

لنْ يفيد معها العنف أو العناد، خسرَ زينب وتسنيم، فلا داعي لخسارتها، هزّ رأسه بهدوء أخجلها، ثمّ نظر إلى الكاتب: - هل كتبت ما قيل من هراء؟

نفى الكاتب كتابته للحوار الساخر، أشار إليها بالتوقيع على أقوالها وهو يستدعي حارسَ حجرته: - أرسل لي بكر درويش ليصحب الآنسة «ورد» إلى

مستشفى التطبيقيين بالهرم.

خرجت «ورد» منكّسة الرأس، مكبّلة في قيد واحد مع شرطي، تشعر بالحنقِ على حياة لم تسامرها منذُ صغرها إلّا بالقلق والخوف والألم العظيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فراقٌ مؤجّل

غيبوبتُه لم تكنْ إلّا هدنة قصيرة تمنّاها جسده ليغيب عن عراك استمرّ تسعة عشر عامًا منذُ وفاة زوجته وحبيبته، ثبت في وجه الحياة فغافلته بالضّربة القاضية لابنته في حلبة غير عادلة، سبعة عشر عامًا من الترنح حتّى خرّ وسقط، صفاراتُ الأجهزة لا يختلط بها إلّا صوت محمد: - عامٌ من الخداع! كيف يمكن أن يجتمع الحبّ والمراوغة، النقاء والتعكير، الشفافية والغباشة؟

صمتَ قليلًا ليكمل:

- أين خبّأت عيونكم المكرَ خلف حدقات الطيبة!

الغضب يلتهمه، يمزّق قلبه، لقد اشتعل فتيله ولم يجدْ أحدهما فانفجر بداخله، انتبهَ لأصوات مرتفعة خارج حجرة العناية المركزة، وما كاد يحرّك مقبض الباب إلّا ووجدَها أمامه والشرطي يفكّ قيْدها، أفلتت شفتاها اسمه: - محمّد.

أشاحَ بوجهه عنها ثمّ ابتعد، نكّست رأسها وهي تقترب وتهمس: - محمد، لم يكن خداعًا.

جاءها صوته لكنّه لم يلتفت:

- وماذا كان؟

- حيطة من أيام علّمتنا كيف نُحصي أصابعنا بعد السلام، خوفًا من تسلق جبلٍ شاهق قد انزلقَ من قمته.

التفتَ لها وقد تجعّدت ملامحه بقسوة الكون:

- فاخترتما انزلاقي!

- عن أيّ انزلاق تتحدّث؟ لم أخدعك، لكنّي....

- لكنك ماذا؟

ارتفعَ صوتها:

- كسيرة.. ثمّ فرّت من عينيها دموعٌ توسّلت لجفنيها أن يمنعاها السقوط: - كما لن تُسمعك الطيور صوتها إلّا وهي باسطة جناحيها على غصن يتمايلُ به النسيم، كذلك المرأة لن تمنحك كيانها إلّا عن طيب خاطر، وعندما أُجْبَرت طفولتي فقدتُ حريتي وكسرت روحي.

- والبديل كان أنْ تجبري روحك بكسري؟

انتبهتْ «ورد» للضّعف الذي ارتفع ليبتلعها وهي التي تجيدُ اجتيازه حتّى ولو بقلبٍ أعرج، شبّت بهامتها وقد كستْ ملامحها الحِدّة: - تلك أصابعي لا تحمل خاتمك، لا قيد عليك ولا أغلال، الأقفاص مفتّحة الأبواب، ما الذي يمنعك الانطلاق بعيدًا عن شرَك الفضيحة!

علتْ ملامحه الدهشة، ورفع حاجبيه:

- أهكذا يكون الدفاعُ عن موقفكما المبهم؟

- ما لك وأبي! عتابك مع مَن تقف أمامك، تلك الناقصة ببضع قطرات عن من ستقترن بها بعدي، لكنّها أبدًا لن تسقطني لأتذلل أو أتوسل، كلّ ما عليك أن تفتح ذلك الباب ثمّ تخرج منه ولا تعود.

وبنظرةٍ صامتة تتراقص على حبل الفراق تردّى قلبها، سراب الحبّ رحل معَ ظهيرة طيفه، وجنّ عليها الليل، هل أظلمت الحجرة أم أن نور الحياة هو مَن انطفأ؟ قبضت كفّيها تقاوم السقوط، انتبهت لأبيها المُلقى على سرير الوهَن. ألقت برأسها على صدره واشتمّت أنفاسه المتقطعة، انسابت دموعُها الحبيسة على موْضع قلبه فأيقظته، هتفت بضعف: - حبيبي ونور عيني، مَن لي غيرك في تلك القاحلة؟ انهضْ أبي.

ربّت بخفّة على كتفها وهو يبتلع ريقه الجاف، احتضنته بشوق خوفَ الرّحيل، همّت لتضغط على زرّ استدعاء التمريض إلّا انه أمسك كفّها: - لا تهْدري الدقائق الباقية، أعلمُ أنّ تحت ظلّ نارك رماد محترق، فلا تنثريه، بل اخْلطيه بالماء علّه ينبت يومًا ثمرًا بطعم الفرح.

- أنت شجرتي العملاقة، وبدونك ينكسر غصني وتجفّ أوراقي.

- أنت منبتّ لا فرع يا ورد، أريدُك أن تدبي جذرك بعنادٍ في صخر أيامك، لا تدعيها تخلعك وتقذفك جافّة على قارعة طريق القنوط.

ماذا ستقول! هل تسرّ له أنّها وصلت لنهايته وفازت بجائزته بعد أن حطّمت رقمه القياسي في العدْو، رفعتْ كفّيها ليسترا ألم الخذلان، تمنت أن تمسح بهما أثرَ الفراق وتبتسم، لكنّها انتبهت على صفارات الأجهزة تعلن موعدَ الفراق والوحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجلس أمامه بطمأنينة تُشعل في قلبه الغيظ، تسبح وتتمتم بالحمد والاستغفار، كان يتوقّع أن تكون أكثرهنّ قلقًا، الوحيدة المعتقلة بأغلال الخديعة، وبدون أن توجّه نظرها إليه قالت: - زواجي من زيد لن يكون نقطة اختراقي.

اجتاحَ الدّهشة والوجومُ ملامحه، كيف عرفت ما يدور بخلده؟

- ألا تخشين قدومه؟

هزّت رأسها بالرفض:

- بل أتمنّاه، لأقفز حاجزه، وأعْدو في البراح، حتّى وإن كسرت قدماي.

- ألنْ تخشي الطلاق؟ الفضيحة؟

زفرتْ ضحكة محمومة بِحَرّ دواخلها:

- أنا لم أعد أخشى شيئًا ولا أحدًا، قد يكون مقتله في ظاهره العذاب، لكن صدقًا هو بالنسبة لي باطنه الرحمة.

رمقها بعينين آسفتين:

- للعتق من قيد الخداع؟

ارتفع صوتُ زفيرها وشهيقها:

- بل لأتنفّس.

- ألم تفكّري مطلقًا في قتل رضا؟

- لو قلتُ لم أفكر وأخطّط وأتخيل؛ سأكون كاذبة. ثمّ عادت للوراء من حيث تقدّمت لتكمل: - لكنْ ظلت الفكرة كالطائر المَهيض الذي ينقر عقلي فأتخيّلها وأعيشها وأستشعرها بكلّ كياني المتّقد فيهدأ، ثمّ وذاتَ يوم اقتنصته بومة الحقيقة ونتفت ريشه وأكلته حيًّا.

- أيّ يوم؟

- يوم زفّ جسدي لزوجي، وخلع روحي البيضاء مع ثوب زفافي، يوم كتفني الخداع وذبحني الخجل.

ظهرتِ الدهشةُ على وجهه فأكملت:

- أتتعجّب، على مدار خمسة أعوام بعد الحادثة حاولت طفولتي انتقاء كلمات قليلة خجلًا، لم يكنْ لساني يطاوعنى فأتلعثم وتبدأ السخرية، أيام مُتراكمة كغبارٍ كثيف يصيبني سعاله إلى أن فرّ بي أبي إلى مجتمع آخر، ظننتُ أنني سأملأ رئتيّ بالهواء، لكنّي عشت وسط أسرتي كطفلة لقيطة، فصارتْ كلّ الوجبات بطعمٍ وحجم الطعام عند الغرباء، التقمت لساني فلم يُسمع لي صوت، واستراحوا هُم لهذا، باتت حلقتي تضييق حول عنقي ككلبٍ يلهو به الأطفال في الطرقات، موتُه هو من أزال قيدي.

غابَ عمار بمقلتيه، أيّ اعتراف عنْ ضغط هذا الذي يرجوه منهنّ! يبدو أن محبسَه لم يكن إلّا انعتاقًا من حياة فُرضت عليهن، عاد ليسألها: - لم يكنْ هناك ولو بصيصُ أمل في تلك الحياة؟

- ربّي ومرآتي! فررت إلى الله فألجأني، وتحوّلت مرآتي صديقة تكشف لي ذاتي حيث دُفنت، أرأني هيكلًا أو جسدًا متعفنًا، أو قد أراني من الأولياء التي لن تلتهمَ أجسادهم الأرض، المهمّ أن أرأني كما أنا، لا كما يريدون.

أسندَ رأسه لكتفه الأيسر، نظر لها طويلًا بامتعاض:

- هل يمكن أن تثبتي أماكن تواجدك ما بين ١٥ و١٧ من الشهر الماضي؟

- ثلاثة أيام مضروبة في أربعٍ وعشرين ساعة، هل يمكن أن تثبت أنت أماكنَ تواجدك فيها؟

بادلها السخرية بعناد:

- لكني أثقُ أنكنّ من قتلنه، وأثق أكثر أن لكِ طعنة في جسده.

تحوّلت ملامحُها الباردة إلى حِدة تحمل في طياتها ما لن يُقال، وبصوت هادئ همست: - الثقة قفلٌ يلزمه مفتاح يستدير مرّة أو مرتين لتفتح أمام وجهك خزانة الأسرار، أين مفتاحك؟

- سؤالك يعني الثقة في جريمة كاملة؟

ولأوّل مرة منذُ التقاها يرتفع صوت ضحكتها رغمًا عنها:

- ثقة بثقة، وميزان عدلكم يشهد.

- هل تشكّكين في ميزان العدالة؟

- ليس الميزان، ولكنّ القائمين عليه، الميزان رمز مبصر لعميان، كلّ ما عليك أن تختبئ في الظلام بعيدًا عن كفّتيه، يقولون المجتمع لا يعاقب مَن يخطئ؛ بل مَن يعجز عن إخفاء أخطائه.

- هل هذا اعتراف؟

صمتتْ ويبدو أنها لن ترد، أطالَ النظر لوجهها البريء الوضاء، نور خفي يغْزوه بقوة، فهل هو نور الرضا الإلهي، أم نور الرضا عن النفس بتحقيق الانتقام من رضا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخطّ المستقيم لرسم القلب يظهر على الشاشة، وصفارات الرحيل تعلو، بينما «ورد» تهرول خلف الطبيب في طرقات المشفى بعد أن استدعت التّمريض، انزوت في ركنِ الحجرة تستشعر اليتم قبل حدوثه! كطفلة هدمت طائرات الغدر أمنها، ترقّب باطنِ كفّ الطبيب تضغط على صدر أبيها فيضيق صدرُها، أغلقت رئتاها أبوابها خوفًا فمنعت أنفاسها من الخروج فكادتْ تختنق، لتكتشف أنها تضع كفّها على فمها وأنفها، وكأنّ روحها أمرتها بتتبّع روحه، حتّى دموعها انحبست في مقلتيها فتحجرتا، ارتفع صوت الطبيب وامتدّت يداه للمساعد بجانبه ليناوله صاعقًا كهربائيًّا ليبدأ عمليةَ إنعاش القلب؛ ضربة.. ضربتان.. لكن لا إجابة، بينما هي حائرة أين تذهب بكفّيها! هل تضعهما على عينيها لتمنع ذلك المشهد من التسرّب إليهما؟ أم تضعهما على أذنيها لتُجنّبهما صوت صفارات إعلان الوفاة؟ كيف سيتركها جسده وحيدة، قطعًا لن يذرها ولن تراه مفارق الروح. هزّ الطبيب رأسه ألمًا وهو يتابع حالها بشفقة، ثمّ عاجل صدره بالضّربة الثالثة، فهل لَطَف الله بها فأعاده؟ سمعت صوت ضربات القلب مرّة ثانية فأسرعتْ نحوه كالمجنونة لتهوى عند موضع أقدامه تقبلها: - لن أقوى على تلك الحياة بدونك.

ثمّ رفعت رأسها:

- اللّهم حمدك على لطفك بي.

انهمرتِ الدّموع من عيون الجميع، دقات متتالية على باب حجرة العناية المركزة لتدخل ممرضة تعلنُ أنّ الحارس بالخارج يطلب من «ورد» الإسراع، فقد حان وقتُ الرحيل، الذهول يجتاح كيانها: - كيف سأغادره؟

ربّت الطبيب على كتفها:

- سيكون بخير، أعدك، هو أبونا جميعًا حتّى تأتينَ مرة أخرى أو ينهض هو ليأتيكِ.

ابتسمت له وجفونُ الحنين تمطر حزنًا وشقاءًا، نهضت ليكبّلها الحارس بقيد، لو رأت عمار تلك اللحظة لخنقته به.

وبينما «ورد» عائدة إليه كانت أريج تتأهّب للدخول عليه، حاول جاهدًا ألّا تنفلت من وجهه لمحة شوق أو ضعف. هزّ رأسه تحية وأمرها بالجلوس، أملى على الكاتب المعتاد ثمّ سألها: - هل يمكنك تحديدُ أماكن تواجدك ما بين ١٥ و١٧ من الشهر الماضي؟

ابتسمت بمزيجٍ من السخرية والهدوء، فاختطف من عينيها لمعة أنارت قلبه: - هل تريدها بالدّقائق أم بالثواني؟

تمنّى الابتسام لكنه منعَ شفتيه من الانفراج بزمهما:

- الموقف لا يحتمل سخرية؟

دلّكت ذقنها بسبّابتها اليسرى لدقيقة، ثمّ قالت:

- السؤال الساخر لا يمكن الردّ عليه إلّا بمثله.

أطال النظرَ إليها قبل أن يقول بحدّة:

- فلنسأل السؤالَ الذي ليس بساخر، هل قتلتِ رضا الشالي؟

عاجلتْه بدون تفكير:

- سأكرّرها عليك لكنْ بمفهوم آخر، أنا لم أكن جائعة للحم العدل لأمزق جسدَه، ولا إلى دماء الحقيقة التي نزفتْ من خلاياه، ولن يعيد قتله إنسانيتي التي أهدرتْ بين يديه بدون عقاب، فإن كنت قتلته فهل سيعيدُ هذا ضالتي التي أنشدها؟

- وما ضآلتك؟

أشاحتْ بوجهها متردّدة بين الرد والصمت، احتضن وجهه بكفّه، وتسمّرت عيناه تجاهها فاضطرّت للرد: - فطرتي في تقبّل الجنس الآخر سالتْ مع دمائي، وأحسبها لن تعود.

هَالهُ إقرارُها بعنصريتها، فرمقها بعينين تحملان من المعاني الكثير: - ستعود، يلزمُك فقط رجلٌ حقيقي يعرف كيف يعيدها، المهمّ ألّا يكون مقتل رضا كان اختبارك لعودتها.

هزّت رأسها بيأس، ثمّ أغلقت فمَها بقوّة، ليكمل:

- إن لم تكوني قد اشتركتِ، لماذا لا تكون «ورد» أو بتول فاعلتها، أو مجتمعتيْن.

رمقته بعينِ المكر وهي تحدب مقلتيها:

- حسنًا، سأستدرج لك صديقات الشّقاء للحفاظ على روح العدل الذي أطاح بنا على قارعة الظلم.

تلك المرأة داهية! تعرف كيف تهاجم بهدوء وحكمة، تعرف كيف تُلجِم خيلها، وأين تضع سرجَها لتقوده نحو ما تريد، لو صدق حدسُه فستكون أريج هي رأس التدبير لا غيرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظراتُ الذّهول اخترقت عينيها، وباعدت بين جفونها فاتّسعتا عن آخرهما، الوجوم حلّق حول وجهها فاختطفَ لونه وترك له الشحوب ليوشك على السّقوط، وكلّما اقترب منها خطواتٌ ابتعدت خطوة للوراء خوفًا، لكن أين ستفر؟ استسلمتْ للحائط خلفها تتمنّى أن ينشقّ ويبتلعها وهي ترمقه بنظراتٍ تتأرجح بين التوسّل والخزي، وكلّما دنا شعرت بالتهاب وجنتيها حتّى قبل أن تصفعهما كفّاه: - زيد.

التفّت يداه حول كتفيها بقوّة، وعيناه قد ضاقت من فرط تدقيق: - كيف تحمّلتِ كلّ هذا الألم بمفردك يا بتول؟

كسَا كيانها الوجومُ فتسمّرت كتمثال شمعي نحتَه صاحبُه ليعبر به عن الذّهول، حتّى مقلتاها تجمّدت نحو وجهِه بلا حراك، احتواها بين ذراعي حنان، فذاب شمعُها وألقتْ برأسها المحموم بلهيبِ العذاب ليبرد في صدره ويتشكّل بطفولتها قبل ما حدث، تنهّدت بقوة حتّى حسبت الهواء سيمزق ضلوعها، همّت لتتكلم، إلّا أنّه وضع أصابعه برفق على شفتيها: - لن نتحدّث عمّا مضى مطلقًا، ما مرّ فات وانقضى، أنا هنا من أجل الحاضر والمستقبل.

ملامحُها تدور حول قسماته متلهّفة بصمت، إلّا عينيها هي مَن كانت تتكلم بزخّات الدمع: فأكمل: - أنتِ زوجتي وحبيبتي، ولن يغير ما حدث موقفي.

أسرعت بألم:

- حتّى وإن كنتِ قاتلته!

هزّ رأسه بالموافقة:

- نعم، هل أسرّ لكِ بأكثر من هذا.. ثمّ اقترب من أذنها هامسًا: - لو كنت أعرفُ لقتلته معكِ، فقط لو كنت أعرف!

أغمضتْ عينيها تستردّ كلّ ما انفلت من عمرها، لقد أعادت كلمات زيد غزلَ خيوط روحها الممزّقة، بضع حروف نسجت لها رداء الطمأنينة بعد خوف، شيّدت لها خيمة أمان بعد أن زحفت طويلًا في كهف الرعب، وضعت كفّها على صدرها لتثبتَ قلبها قبل أن تنشق ضلوعها عنه، عرفت عيناها وشفتاها طعمَ دموع الفرح لأوّل مرة، مالحة كدموع العذاب لكنها وللعجبِ منبتة، أينعت في قلبها نبتة الأمل التي دهستها الأرجل الحمقاء، تنهّدت بعمق: - يا الله، ولله جنود السموات والأرض، أنت مَن كنت أخشاه وأنت مَن جنّده الله لي!

ابتسم لها بحنان:

- سأنتظرك فترةَ العقوبة وأحضر لكِ خبزًا وحلاوة، ولن أملّ الانتظار، سنلتقي خلفَ الأسوار لتتشابك أيادينا التي تفرّقت؛ فكم من حواجز تُدني، وكم من براح يُضني.

مسحتْ ملامحه الودودة بشعاع سرَى من قلبها لعينيه، رفعت أصابعها لتلامسَ وجهه بلمسة الحبّ الأولى، بكتْ بشدّة، ومن بين دموعها زفرت: - وأخيرًا سند، كم دعوت «اللّهم عونًا وسندًا»، لكني ولنْ أخفي عليك لم أتوقّعه فيك.

- حجزكِ عن معرفتي جدار خوف سنهدمه معًا.

أخرجتْ من بين شفتيها ضحكة لم تداعبْهما لسنوات:

- نهدمه! لقد انهارَ بالفعل يا زيد، أنت رجل قلّما تهبه الحياة.

ربّت على كتفها:

- لا تخشي شيئًا، عرفت من عمّك أنّه لا دليل ضدّكن حتّى الآن، وسأوكل محامي ماهر مهْما كانت تكلفته لكِ ولصديقاتك.

هزّت رأسها بارتياح وطمأنينة، تأهّبت لتقول له تصرف كما يحلو لك، أنت رجُلي الذي لن أراجعه في رأي، إلّا أنّ خروج أريج من حجرة التحقيقات أوقفها، أسرعت نحوها تهتف: - أريج، هذا زيد زوجي.

بُهتت أريج وتلعثمتْ أحرفها داخلَ فمها، إلّا أن بتول تداركتها: - جاء ليقفَ بجانبي، قال لي أنتِ زوجتي وحبيبتي، ولن يغير ما حدث موقفي.

اتّسعت ابتسامة أريج وهي ترحّب به، ها هو أول الغيث، علها قطرات يتبعها فيضان مركبهنّ بطوفان النجاة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كم هي ثقيلة أيامُ القلق والحيرة! هل مضى يومان آخران؟ كيف مرّت دقائقهما على ورد؟ نقص وزنها بشكل ملحوظ، الأرقُ اصطادها في شباكه فحرّم على عينيها النوم، تتساءل كلّما تفيق من شرودها: - ترى كيف حالُ أبي؟ ثمّ تبدأ في النّحيب الذي لا يخرسه إلّا تهدئة أريج، وتذكير بتول بذكر الله، لتعودَ من شرود آخر منهزمة: - كيف باعني محمد بتلك السهولة؟

لا حيلة وقتَ الموت إلّا الصمت، قطعتْه أريج بتنهيدة طويلة: - مَن كان يظن أنّ زيدًا سيرقّ لحال بتول، مَن كان يعرف أنه لن ينطق كلمة واحدة عن عذريتها.

ربّتت بتول على كتفها:

- لا تيأسي من روح الله، لو تعلمين كيف كان حالُ زواجنا فلن تصدقي ما كان، لقد كنّا غريبين.

زاغتْ عينَا «ورد» بينهما:

- محمد ليس كزوجك، زيد أخذَ قراره ولم يتردد، محمد جلدني بكرباج الشّك والعتاب، توقّعت منه الغضب، الصراخ، لكني ما توقعت ذبح الفراق.

توقّفت أريج لحظات قبل أن تردّ:

- ردودُ الأفعال ليست متّفقة عند الجميع، بعضُ الشخصيات يصيبها التردد ثمّ ما تلبث أن تعود.

أريج ذاتها ليستْ على قناعة بما ينطق لسانها، هي فقط تريح صدرها الهائج، فيكفيها ما تعاني من فراقِ أبيها، سبحت «ورد» في صحراء التيه فلمحتها أريج في صفرة عينيها: - شدّي عودك يا ورد، دومًا ما كنتِ صلبة.

عادتْ «ورد» من سراب أحلامها:

- سبعة عشر عامًا مرّوا كشيخ يستند على عكّاز الوهن، لم أعدْ أحتمل، أوشكت أن أخِر.

شدّت بتول على كتفها بعطف:

- كلّ منّا غابت في كهفها، ومقتله كان يوم بعثنا من مرقدنا الذي طال، ستتكشف الحقائق وستشفى قلوب من حولنا عن كفر وإيمان، اثبتي فالقادم ليس بيسير.

ارتبكت أريج من وقْع كلمات بتول، هل يمكن أن تكون فاعلتها، ما الذي تخبّئه في طيّات أحرفها ولم تنفضه بعد، ومن أين عرفت أن القادم ليس بيسير! قطعَ أفكارها صوتُ الحارس يصدح باسمائهن، انقضت الأربعة أيام، وعلى عمار إمّا أن يأمرَ بإخلاء سبيلهنّ أو تجديد حبسهن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحيرةُ عقدت له قلادة أوشكتْ على الانفلات، يعرف أن حباتها ستعرقله أينما ذهب فتطرحه أرضًا، يشعرُ الآن أنّ لمحّه نصفين، ولقلبه أربع حجرات، يصدر من كلّ ركنٍ منهم طنينٌ يتشابك حول رأسه، الكل يعزيه، والبعض يعنّفه ويلومه، والبآقي يؤيّده، فلمَن يركن! دخلت عليه أمه لتجده صامتًا واجمًا أمام صحيفتين، إحداهما اهترأت واصفرّت، والأخرى مازالت تفوح منها رائحة الحبر.

- محمد، ألم تحسم أمرك بعد؟

نظراتُه يغلّفها الذهول:

- لا، ليس بعْد.

أمسكتْ بالجريدتين، إحداهما كانت فيها «ورد» مجني عليها، والأخرى جانية، رمقها محمد بعينين ارتدّت إلى موطنها الأصلي لطفولته فألقى برأسه على صدرها، مسحت على شعره بحنان: - أخرج ما في جعبتك لي، فأنا الوحيدة التي ستتحمّل أسهمك الطائشة وستنحّيها عن مقاتلك. وبتنهيدةٍ حارقة ألهبت قلبها قال: - أحبّها، ولا أعرف كيف أتغلّب على ظلها الذي ألقته ظهيرتها بداخلي، وكلّما طال الوقت التهبتْ شمسُ الفراق وتشعّب ظلها أكثر.

طأطأت رأسها، ثمّ سكتت لدقيقة:

- هل تفكّر في العودة؟

فتّش بين نظرات أمّه عن ما يشدّه لينهض ويهرول إليها مستغفرًا، لكنّه عاد خاويًا: - أنت لا تفضلين، أليس كذلك؟

زفرتْ بيأس:

- بعضُ الاختبارات تكون بالقسوة التي تجعلنا ندخل بقلوبنا دائرة الصفر، في الوقت الذي كنّا بشفاهنا فقط نظنّ أننا سنحصل عليه وبجانبه الواحد الصحيح، عندما قرأت حادثة «ورد» وصديقاتها وشعرت بما سيعانين من حزنٍ وألم تساءلت.. ما العسرُ في أن يتجاوز مَن سيتزوجهنّ أمر البكارة، لا ذنب لهن!

قلتها بجرأة وحماس أحسبهما اليوم كانا زيفًا.

أطالَ الصمت أمام كلماتها ثمّ فاجأها:

- هل ستوافقين على زواجي من ورد؟

أسرعتْ بلا تردّد:

- أوافق، لكنّي لست سعيدة.

أكّد على كلامها:

- وهذا بالضبط ما يجتاحني، أوافق لكني حزين.

- دعْك منّي، هل تعتقد أنّ حزنك سيتلاشى مع سنوات العِشرة، هل تجد في نفسِك القوّة التي ستجعلك تعْدو بعيدًا عن نقصها دون كلمة لوم أو وغْز.

هزّ رأسه وهو يردّد:

- لن يغْفو عقلي لحظة.

ربّتت على كتفه:

- إذًا فلتدعها لمَن يمتلك تحريك جبلِ حزنها عن صدرها، ولا تكن أنت ما تبقّى لها من اغتصاب، فالاغتصاب يا بني ليس جسدًا فقط، أنت بفكرك ستغتصبُ ما تبقى لها من روح وأعصاب، المرأة التي تحيا في القاحلة لن تمنح إلّا الشوك.

- لكنْ أين لي بالنسيان يا أمّي؟

- الحلّ الوحيد هو ارتباطك بمستقبل يجهز على ماضيك.

صدقت أمّه، ليس هو الشخص الذي سيطهر بحيرتها بل قد يزيدها ركودًا وعفنًا، ليس هو مَن سيحفر بئرَ الحب، وينبت لها من الصحراء واحة، سيزيح ظلّها من قلبه حتّى لو اضطرّ أن يجتثه من منبته، سيرتبط بمن ستنسيه حتّى صوتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طالَ الانتظار أمام غرفة وكيل النيابة، القلق والتوتر يعصف بالجميع، الدائرة حولهنّ تتّسع بالقادمين، تسنيم انْدست بينهن كأنها المتهمة الرابعة، زيد كتفًا بكتف يشدّ عضدَ بتول، ويؤكّد على المحامي الذي وكلّه بالآلاف ضرورة عدم تجديد محْبسهن، وعمّها سعيد مُمتنّ لعودة زيد الرجولية التي أصابتْ كلّ التوقّعات في مقتل، ويثقُ أنّها ستسحبها من بحيرة الجني التي اختطفَها، لكنّه مازال قلقًا على ابنة أخيه، ذوبتها الحياة وارتفع جحيم الأهل تحتَ قِدرِها، ويخشى أن تكون قد انفجرت في لحظة غليان، عيناه تحاصرها وهي دائمةُ الهروب من نظرة حقيقية تجمعهما فيعرف، «ورد» تقف وحيدة تنظرُ إلى الفراغ أمامها تستدعي أباها، تعلم أنه لن يجيء، لكنّها ترْجو معجزة من الله، أن تأتي روحه لتطوف حول وحدتها كما سمعت عمّن شاهدوه حجّ ولبّى وهو جالس في بيته، لكن في زمان فساد البرّ والبحر هل يمكن حدوثُ المعجزات؟ أريج لم تتوقّع القادم الذي غاب عن حياتها لسنوات، شدّته فيهم كلّ الأعذار واحتجبت بينهما الأخبار إلّا مِن القليل، فلماذا جاء؟ اقتربَ منها فشملته بنظرة جامدة: - لم أتوقّع قدومك!

نطقَ بوقارٍ وكبرياء لا يمتّ للأبوة بصلة:

- كيف؟ مهما ابتعدنا تجذبنا الدماء الأصيلة في عروقنا.

خرجتْ من بين شفتيها ضحكةٌ ساخرة لم تقصدها، بل هي مَن فاجأتها: - الدّماء التي تسري في شرايين الوحدة أم الغربة أم الشقاء؟ أم تراها التي

تندفع في أوردةِ التخلي والإنكار؟ وهل الدماء الأصيلة هي من أمرتك بإلقائي خلفك كالقمامة في صندوق الذكريات لتبدأ حياة بعيدة عن عفونة رائحتي التي لم يكنْ سببها إلّا أنانيتك.

- مهْما كان، ومهْما حدث أنا أبوكِ.

وضعت كفّها على عينيها لتحجبَ رؤيتها وهو ينطقها:

- متى كنت؟ عندما تركتني ووالدتي للذّئاب! أم عندما هاجت حولي العواصفُ فأغلقت عليّ صحراء وحدتي لأتوه؟

همّ أن يقاطعها إلّا أنها رفعت كفّها، وأكملت:

- لست في الحال الذي يسمح بالمراوغة، ما الرّياح التي ثارت بك؟

أطالَ النظر لقسماتها، محقّة هي، جاء بدافع من زوجته لإنهاء الأمر قبل أنْ يفتضح أكثر من هذا، حتّى وإن كانت قاتلته: - يجب ألّا تخرج القضية من النيابة للمحكمة.

ثمّ أشار للرجل الواقف بجانبه، وأكمل:

- وكّلت لك محاميًّا شهيرًا.

هزّت رأسها وقد ارتفعت ضحكاتها، ثمّ همست:

- هكذا توضَع الأمور في نصابها، أتيت بدافعٍ من زوجتك وأخواتي غير الأشقاء خوفًا من الفضيحة واهتزاز مراكزكم الاجتماعية!

همّ أن يردّ إلّا أنها ابتعدت بظهرها، وعيناها تقذفه بشرر الاشمئزاز، ارتفع صوته: - يجب أن تعطي توكيلًا للمحامي، كفانا فضائح.

تردّدت كلماته في جنبات الطرقة الطويلة كأنها وادٍ عميق، انبعث الخوف من داخلها كجنّي عملاق سكن جرّةَ قلبها فانتشرت أدخنة غضبها، وقام من سباته الطويل: - لم ترَ فضائح بعد! إن لم تنصرف أنت ومَن معك سأعترف بقتله.

التفت «ورد» وبتول وتسنيم حولها في مشهدٍ جعله يفرّ، لم تعرف هل هرب من خزْيه أم من عارها كما اعتاد. قطعَ غضبها تهللُ وجه «ورد» التي قفزت كطفلةٍ تجري وراء بالوناتها الملوّنة المربوطة بكفّها فطفت بجسدها الخفيف وهي تهتف: - أبي.

كان قادمًا من بعيد يستندُ بوهنٍ على كفّ شابّ لم تتذكره «ورد» سريعًا لكنْ ما أن اقتربا حتّى سالت دموعُها وهي تحتضن جسد أبيها الذي احتواها وشدّ عودها: - دكتور خالد، لا أعرف كيف أصف امتناني.

هزّ د. خالد رأسه بأدب:

- ألم أعاهدك بالاطمئنان، وبأنّه أبي الذي ما أنْ طلب رؤية ابنته إلّا ولبّيت.

لم تقوَ العيون على التماسك، فانهارت ببكاء صامت، و»ورد» تلفّ يديها حول رقبة أبيها، وتلقي برأسها على صدره وتهمس: - ها قد جئت؛ فجاءَ معك الاكتفاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سترَ وجهه بكفّيه وهو يستنشق نفسًا عميقًا قبل دخولهن، لا يجد في جعبته سببًا لإبقائهنّ إلّا ثقته الكاملة التي لن تهتزّ في أنهن من قتلنه، لقد أمر بالتّشريح ثلاثَ مرّات علهم يعثرون على أيّ حمض نووي، إلّا أن جميع المحاولات باءت بالفشل. التقريرُ الأخير خالٍ تمامًا حتّى من بصمة، عاد من شروده بضيق وحنين، كيف سيسمح لها بالمغادرة قبل أن يستتب له الأمرُ في قلبها، ما قدّمته يداه سيجعل لقاءه بها خارج تلك الحجرة مستحيلًا، المقبض يتحرك وقلبه يندفع: - تفضّلن.

انطلقَ المحامي في الدفاع، أذناه لا تستمع لدويّ كلماته، يعرف كلّ ما سيتلو، يعرف أنّه سيوقّع حالًا أمرَ الإفراج، نظرات الشماتة والثقة التي تحدّد قسماتهن تشقّ صدره بسكين الفشل لأوّل مرة، رفع كفه للمحامي علامة الصمت. نظرَ للكاتب بجانبه ليتلو علَيه كلمات تحريرهن، ومع أول أحرف والعيون تلمع ترقبًا لم يتوقع أحدهم أن يتحرك مقبض الباب بعنف، وفي أقلَّ من ثانية كان مروان يلهث وسط الحجرة ومعه رجل خمسيني يلبسُ جلبابًا رماديًّا يعلو رأسه شال أبيض: - انتظرْ يا عمار، عمّ خليل صاحب دكان بقالة صغير أمام بيت رضا الشالي، ولديه ما يقول.

اجتمعت في وجه عمار أشعةُ شمس الأمل فأشرقت عيناه بومضات الحق الذي كان على وشك أنْ ينطمر، جالَ ببصره بينهنّ ليصطاد مشاعرهن المُتفاوتة في شِباك حدسه، الوحيدة التي هزمها الخبر بتول، تلك المرأة يشعر أنّ وراءها الكثير، فهل أمرها تعمّقها في الدين بالقصاص؟ التقت عيناه بأعينهن، فنحّتهما بتول بعيدًا، بينما رفعت أريج أحد حاجبيها بعناد وهي تهزّ رأسها بتعجب، أمّا «ورد» فقد شدّت قامتها ولم تظهر أيّ اهتمام، ورمقته بنظرةِ استهزاء متبجّحة، شدّ نفسًا عميقًا وهو يوجّه كلامه لعم خليل: - مَن منهنّ رأيتها هناك؟

جذبه مروان تجاههن، فحدقَ عمّ خليل فيهنّ لدقائق ضاقت بصدر عمار، فأعاد سؤاله: - مَن يا عمّ خليل؟

اقترب عمّ خليل من مكتبه وهو يهزّ رأسه:

- ولا واحدة منهن يا باشا.

رمى عمار مروان بنظرةٍ مستفسرة، فقطعها مروان بكفّه علامة الصبر: - قلْ ما لديك يا عمّ خليل.

سعلَ الرجل بهدوء وهو يقول:

- كان آخر يوم فتحت فيه الدُكان هو الأحد ١٦ أبريل، جاءني يومها الأستاذ رضا واشترى منّي العصائر والحلوى بكثرة، فعرفت أنه ينتظر مجيء ضيف.

استوقفه عمار:

- ضيف، أم ضيفة؟

سعلَ الرجل مرّة أخرى بامتعاض:

- الله حليم ستّار يا باشا، سافرت الصعيد بعدها ولم أعدْ إلّا منذ يومين فعرفت بمقتله.

كان يتلو شهادته كمَن يتلو كلمات الوداع على قبر عمار، الغيظ يلتهمه من هدوءِ أعصاب الرجل، فبدأ في النّقر بأصبعه على مكتبه وهو يهزّ قدمه بتوتّر، ويحفز الرجل بإشارة من كفّه ورأسه بالاستعجال، فأكمل: - ذلك اليوم شاهدت ثلاثَ نساء يرتدين نقابًا أسود يهبطن من البيت، وهذا أمرٌ غير معتاد، فذلك البيت لا يسكنه منتقبات.

فرّ خيطُ الأمل الذي كاد يمسك عمار بطرفه:

- قلت يهبطن، فهل دخلنَ معًا؟

- لا أعلم، فأنا أغلق المحلّ من الرابعة إلى الخامسة عصرَا، شاهدتهن عند الخروج فقط في الخامسة والنصف تقريبًا.

ضاقَ صدر عمار عن آخره، فلم يعدْ به متّسع، زفر بقوة:

- هل تفاصيل أجسادهنّ طولًا وعرضًا تتّفق وهؤلاء الثلاث؟ ثمّ أشار إليهن.

هزّ الرجل رأسه بالنفي:

- سيكون ظلمًا أنْ أحكم عليهن بتلك الثياب.

لقدْ منحه الرجل ما أراد، تجديد الحبس على ذمة التحقيق، تأهّب المحامي للاعتراض، إلّا أن عمار أسكته: - لن يخرجنَ قبل العرض، وسماع شهادة جيران رضا الشالي فيمّن يتردّدن على البيت من المنتقبات.

كان يملي على الكاتب قرارَه برفع الأوراق للقاضي الجزئي لتجديد حبسهن، وهنّ يتبادلن نظرات لن يفهمها غيرهن، فهل هي نظرات السعادة بالاجتماع مرة أخرى، أم نظرات الخوف من قادم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رائحةُ النّصر

لم يتوقّعه صامتًا متجمّدًا كقطعة الحجر، عيناه تفرّ لبعيد كأنها تتعقب فأر، قدمه يهتزّ بحركة شبه هيستيرية، أصابعُه تتشابك ثمّ تتباعد ليقبض على كفّه بقسوة، يتابعه عمار في صمتٍ طال، فاضطرّ إلى السؤال: - ما تلك الحال يا مروان؟

رفعَ رأسه ليقابله بقسمات حزينة مضطربة:

- التمزّق بين الواجب والاقتناع ينهش قلبي.

توقّفت عينَا عمار عند كلماته القليلة التي تعبر عن سريرته هو أيضًا، فاختطفها خياله، ثمّ شردَ بها على حصان أعرج، يسقطه تارة ويقيمه أخرى: - أعي ما تشعر به، لكنّ الواجب يعلو فوق أيّ صوت، هكذا تعلمنا، ولهذا نعتلي تلك المقاعد.

أخرجَ مروان من علبة سجائره واحدةً بأيدٍ مرتعشة، ثمّ تردّد قبل أن يشعلها، قال وكأنه يحدث نفسه: - شهادة عمّ خليل لن تكون قرينة يا عمار لاستتار الوجه بالنقاب، أليس كذلك؟

ابتسمَ عمار وهو يرسم دائرةً بقلمه في الفراغ القابع أمام وجهه: - لكنّها حددت لنا موعد القتل، فبشهادة عمّ خليل العصائر التي اشتراها رضا هي ما كانت فوارغُها في القمامة بعد أن سُكبت في الكاسات ولم تُشرَب، قُتل رضا يوم الأحد ١٦ أبريل يا مروان، وعلينا التحقيق في أماكنِ تواجدهنّ في ذلك اليوم بالتحديد، دعنا أولًا نجري عرضهن بالنقاب على الشّاهد، واسْتدعِ حسني لعرضه عليه، ومعرفة تواجده ذلك اليوم من عدمه.

زفرَ مروان بحرقة موقدِ جمر بداخله، أشعله بينما كان يريد له الخمود: - تعلم، أشعرُ بحدسك يدْنو من منصة المحكمة، وهذا يعصر قلبي شفقة عليهن، كلّما رأيتهن ألمح فيهنّ فتاتي، أهرول إليها واختطفها لصدري، ألمسُ شعرها وأدْعو أن يحفظها الله من ذئاب البشر، لم أكن أهتم بتفاصيل يومها، فأصبحت أدقّق وأفتش بين أحرفها، لقد تسرب شبح الرعب لقلبي فهزمني، فما بالك بمَن التقينه؟

- حفظ الله فتاتك، أشعرُ بعمق ما تقول، أشبعها من حبك وصداقتك وارفعها في برج حمايتك، فتصعب على الأيادي تلقفها.

نهضَ مروان وهو يهمّ بالخروج لاستدعاء جيران رضا:

- لا يا عمار، التجربة أمر، والشفهيّة أمر آخر، شفتاك بدون احتراق في موقد الحدثِ لن تَصدُق مهما قالت، قلبكِ لن يتمزّق إلّا لقطعة منك مهما توجّع، ولا

تنس أنّ والد ورد كان كما تقول وأكثر، فلم تفلح الحيطة في نجاتها من ذلك الخسيس.

أشار عمار بسبّابته:

- لكنّه هو مَن منحها القوة المعنوية لتفجير الكارثة.

ابتسمَ مروان بسخرية وهو يفتح كفيه:

- وما الذي أفادها! هجرها خطيبها بالرّغم من شجاعتها وعفتها التي لا يختلف عليها اثنان، تلك الفتاةُ الشجاعة أنقى من الأبكار، لكن من ذلك الذي يعي ويتفهّم!

غادرَ مروان وترك كلماته لتنقش على ملامح عمار وشمَ الخجل من إصرارٍ قد يودي بحياتهنّ الجافة اللاتي عشنها على أطراف صحراء قاحلة لعمقها، ستمتصّ ما تبقى لهنّ من قطرات حياة، يعتقد الجميع أنه يتحداهن، لو يعلمون ما يحترق به قلبُه ما ظنوا به الظنون، لكنّه واجبه الذي بدونه سيفقد معنى الشرف والأمانة.

وقفَ مروان يلمحهنّ من بعيد وسط من تبقى لهن بعد الحريق المجتمعي الثاني، اغتصاب وقتل! ما أبشع البشر عندما تقع بين فكي هاتين الكلمتين، تُغرز أظافرهم الحادّة المسننة في جسدك ثمّ تنهشك أنيابهم عن آخرك فتمضغك بغير ابتلاع، ثمّ يلفظْنَك فقط عندما يتأكّدوا أنّك قد تحولت إلى فتات، ولم يتبقّ لك من مذاق أيامك إلّا المرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعضُ الغرباء تمهّد لهن الحياة بساطَ الود بينما تتعرج بالأقربين، زيد وسعيد التقيا منذُ أيام إلّا أنهما التقيا في مساحة راقية محددة بتضاريس حب بتول لم يجدها زيد في والدها. يتعجّب زيد كيف يمكن أن ينشأ أخوين في بيتٍ واحد ويأكلَا من صحن واحد، وقد يناما في سرير مشترك ليصبح أحدُهما سيد أبو بتول، والآخر سعيد عمّها، الفارق بين اسميهما حرفُ العين الذي يشهد على اختلافهما الجذري. د. خالد ووالد «ورد» تقابلا عند نقطة الشهامة والرجولة، لم يكن يتوقّع أن يسنده طبيبه الذي عرفه منذ أيام ويخذله محمد الذي عاشره عامًا لم يبخل فيه بتقديم الخبرة والسند والدعم المادي والمعنوي، حتّى وإن كان سيهرب من طريقهما المظلم فهل كان من الضّروري أن يفرّ بكامله؟! ألم تتحرّك في خلاياها بقايا لقمة اقتسماها، ألم يتلألأ في قلبه نورُ لحظة فرحٍ تشاركاه! لكن لا بأس؛ فكما تأخذ الأيام تُعوّض، أريج وحدها لا التقاء لها عند أيّ نقاط، وما أصعب الوحدة عندما تلتقيك وجهًا لوجه لتقذفك

للهاوية، همس قلبها لضلوعها: - كيف يمكن أن يخلو العالم من كفّ تربّت على كتفك!

أسندتْ وجنتها لكفّها، بينما تناهى لمسامعها صوتُ عمّ بتول يهمس في أذن زيد: - هل تظنّها قتلته يا زيد؟

- لا أعرف، ولن أضغطَ عليها لأعلم، أرى أنّ تلك المرأة وصديقاتها ما يجب أن يعتصرهنّ أحدٌ مهْما كان السبب، كفاهنّ ما لاقين وما سيلاقين.

زيد يتكلم مع سعيد وشفتاه تحاصر بتول بابتسامة، ووعد، بينما عيناها لا تعْدو عنه، نظراتهما تطهّرت من كلّ شائبة، جاء الصفاء لكنّه أتى متعانقًا والفراق. سعيد يتابعه: - لكنّي أخشى أن تقضي ما تبقى لها خلف الجدران.

هزّ زيد رأسه بثقة أرسلَها لها في نظرةٍ مع قُبلة خفية في الهواء: - لا، وكيلُ النيابة واضح أنه لا يمتلك أيّ دليل، حتّى الشاهد الوحيد رأى منتقبات، التجديد لن يكونَ إلّا حلاوة روحه، حتّى وإن كان، لقد تحرّرت روحها، وهذا يكفي.

- هل تعني أنّك لن تهتمّ إن كانت هي قاتلته؟

- نعم، مِن عشرتي لبتول؛ هي مؤمنة، ولو كانت قتلته فسيكون حقّها، وعاد إليها، لقد انتصرت لشرفِها وأنا فخورٌ بها، وثقْ أني لو كنت أعلم لزادت طعنات جسده طعنات.

لجمتْ كلماته لسانَ سعيد فأغلقت فاه، حقًّا قائد الحياة لا تظهر مهارته إلّا عندَ المنحنيات، وزيد عرف كيف يتعامل مع وعورة طريقها بل ويستعذبه، لن يحجزهما بعدَ اليوم سدّ أو مانع، لقد جرف سيل المعاناة كلّ الردم فاطمأنّ سعيد أن ابنة أخيه قد وجدتْ أخيرًا مَن سيقزم وحش الخوف بداخلها، ثمّ يدحره ليوطّن مكانه الأمان.

والدُ «ورد» لا يعرف كيف يشكرُ لطبيبه صنيعه، كلّ ما يقوى عليه هو الربت على كتفه بدون تفكير أو وعي، حركة تلقائية تشفّ عما بداخله من امتنان، اقتربت منهما «ورد»: - جميلك سيطوّق عنقي مادام عرقه ينبض.

خجلَ د. خالد من الإطراء، فكلّما تعمق جذر الرجولة في قلوب الرجال وهنّ طفيل الخُيلاء: - لم أفعل ما يستحقّ كلّ هذا، كلّ ما أتمنّاه أن تتخطيَا تلك المحنة، وتعودا لهدوئكما.

تنهّدت بعمق:

- هل يمكن؟

ابتسم بهدوء:

- ولمَ لا! الحياة كجسدِ الإنسان مجموعة أعضاء لن تتوقف الفيروسات أو البكتيريا عن مهاجمته، تتمكّن منه فقط في لحظات الضعف، لذلك لا حلّ معها إلّا القوة، لا تهدمي جهازك المناعي بالقلق.

شقّ تعبيره الذي يحمل عبقَ مهنته ابتسامة واهنة على شفتي «ورد»، فقالت:
- والدي وحياتي منذ تلك الحادثة تحيا على المسكنات.

عاجلها خالد كأنّه أمسك بقلمه وشرع في كتابة الدواء:

- المسكّنات أخفت الأعراض، لكنّها لم تهاجم القيح، ما يحدث الآن هو تطهيرٌ كامل لجرح عميق سيندمل، تلك المحنة عملية جراحية ناجحة مهما خسرتما فيها من دماء، أو جزء سرطاني اقتطعَ لكن سيصحّ بعدها جسدكما، ثقي من ذلك.

أطالتِ النظر إليه تتلمّس عمق أحرفه، هل يقصد محمد بالجزء السرطاني؟ لقد كان هناك لحظة قسوته ثمّ فراقهما وانهيارها، ألهذا رقّ لها قلبه وأتى بوالدها؟ هل يمكن أن يمنحنا العابرون ما ضنّ به ساكنونا!؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيجمعهنّ الحجزُ مرّة أخرى لأيام لا يعلمن عددها، ولا يعرفن ماذا ستحمل، رائحة ذئبِ يوسف تدنو منهن، والجبّ قد يبتلعهن جميعًا أو إحداهن، فأين هي قافلة النجاة!

- لا أعرف مِن أين أتى وكيلُ النيابة بثقة أنّنا مَن قتلن ذلك الوغد؟

قالتْها بتول بعصبية، لم تتمنّ الحرية إلّا عندما حاصرها القيد، ورفع زيد عن رقبتها حبلَ مشنقتها الذي تخيّلت أنه التصق بها.

عاجلتها أريج بِحدّة:

- بتول، هل كنتِ هناك؟

ارتبكتْ بتول وأطالتِ التّفكير في سؤال أريج الذي استحوذ على انتباه «ورد»:
- هل تشكّين بي؟ حتّى ولو كان! أليس هذا حقنا وعاد؟

رفعتْ أريج كفّها لتسد فمها وهي تتلفّت حولها، تنهّدت بعمق وقررت تغيير الموضوع بسرعة، في تلك اللحظة فتح بابُ الحجز ليتلقّين المؤنة المعتادة، ابتسمت «ورد» بوَهَن: - لم نعرف حتّى الآن مَن قرّر أن يتنبى ثلاثتنا، سألتُ أبي فنفى.

أسرعت بتول:

- وأنا أيضًا سألت عمّي وزيدًا فأقرّا أنّهما حاولا ولكن باءت كلّ محاولاتهما بالفشل.

- غريب! توقّعت أنه من طرفكما، فمَن عساه يفعل؟

قالتها أريج بدهشة، ثمّ بدا وأنّها تذكرت شيئًا:

- مَن د. خالد يا «ورد»؟

- طبيب أبي الذي يعتني به في المشفى.

وجدتْها بتول وأريج فرصة للمزاح، وتفريج ضيق الفقدان عنها: - لكنْ واضح أنّه مُعجب بأبي «ورد».. و»ورد»!

قالتها بتول ثمّ انفجرت هي وأريج في ضحكٍ أخجل «ورد»، وبعث همّها من مرقده، مسحت وجهها بكفّها وتنفست بصوتٍ عال: - هل تتخيّلن أنّي، وبعد فقدان محمد، سأفتح قلبي يومًا للحب؟

كانت تتكلم وهي تبدو كطائرٍ حزين فقد وليفَه، لا نهاية له إلّا موت عادت من سكراته لتقول: - أنا مرآة أبي، كلانا لا يحبّ إلّا مرة واحدة، بعدها يُغلِق على قلبه سلاسل شداد لن تفتَح مرّة أخرى.

رمقتها بتول بحزن:

- لماذا يا «ورد»؟

أشاحت «ورد» بوجهها وهي تقتربُ من نافذة غرفة الحجز الصغيرة تتلمّس ضياء لتتمتم: - لأنّها بدون أقفال.

لحظات الإبحار في الحبّ مُعدية، تاهتْ كلّ منهنّ في بحر خيالها العميق، «ورد» تصارعها أمواجُ صوت محمد في أذنيها باللوم والفراق فتلفّها في دوّامة طوفان الخذلان بلا ألواح أو دُسُر. بتول تبتسم لما وجدته في قلبها من حبٍّ لزيد، يتراقص قاربُه في قلبها على لحن المؤازرة بعد أن تخلّى عنها الجميع، كيف له وببضعِ كلمات وقد فتح في قلبها كلّ الأبواب الموصدة، وأعاد لأذنيها نشيدَ الحياة. أريج تستدعي طيفه الغارق في أعماقها كسفينةٍ عملاقة تخشى طفوها، هل يحبّها كما تهمس أحرفه؟ أم أنه يحاول استدراجَها ليحظى بالحقيقة؟ هل يكرّر تلك اللعبة معهنّ أم أنه يتعمّدها دونهن. جالت ببصرها بين «ورد» وبتول، أوشكت أن تسألهما لكنّها عادت، فلتترك شكّ الحبّ يداعبها بنسيمه في هجير الأسر، ولتدع يقينه القارس بدلًا من أن يتجمّد قلبها به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحظاتُ كشف الستار بطيئة بعِظم ثقله، عمار يتحرّق شوقًا لنتيجة العرض الذي يتمّ تجهيزه، حسني في الإنتظار ليفاجئه بالشاهد، مروان غائب عن المشهد يتمنّى قدومه، أين هو؟ لم يظهر طيلة النهار، سيصطادهن أو على الأقلّ واحدة منهن، وستكون الطرف الذي سيسحب منه بكرة الأحداث، الشّرارة التي ستندلع وتنيرُ له ما أظلم، عمّ خليل يقف جانبًا ليُفتح باب الحجرة ويدخل منه خمسُ نساء مرتديات النقاب الأسود الذي أشار به، تلك قواعد العرض خمسة دسّ بينهنّ الثلاثة، عمار يرقبهن بحذر: - عمّ خليل، مَن في الخمس يمكن أن تكن المنتقبات الثلاث؟

أطالَ الرجل النظرَ بتمعّن، جال ببصره في أجسادهن ثمّ عاد به: - لا يا باشا.

بُهت عمار:

- ما معنى لا؟

أسرع الرجل بخوف:

- الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، إن ظلمتُهنّ في ذلك العرض فمن سينقذني يوم العرضِ عليه؟ الأخريات اثنتان منهنّ أطول من الخمس، والثالثة كانت بدينة، ولا بدينَة بين هؤلاء.

الحيرةُ تتراقص بين حاجبي عمار فزمّهما:

- أطول! هل يمكن أن يكون بفعل حذاءٍ عال؟

هزّ الرجل رأسه نافيًا:

- لا يا باشا، لقد كنّ يرتدين أحذية بلا كعب.

رمقَ عمار الرجل بنظرةٍ ساخرة من تمحيصه في النساء:

- وكيف لاحظت ذلك؟

سعلَ الرجل خجلًا:

- يا سيدي، جلسةُ الدكان على رجلٍ مُسن مثلى طويلة ومملة، لا علاج لكسرها إلّا التدقيق في كلّ مارّ، أو الكلام مع الزبائن، فما بالك بمشهد غير متكرّر.

أسرع عمار:

- معنى هذا أنّك كنت تتحدث مع رضا؟

عبستْ قسماتُ الرجل وتجعّد ما حول شفتيه بزمهما:

ـ

- رضا هذا لا تجوز عليه إلّا الرحمة، كان رجلًا لعوبًا واجمًا، ملامحه ولسانه جفوا بالمعاصي.

- هل تعني أنه كانت تزوره نساء؟

امتعض الرجل:

- لا يجوز ذكرُ مساوئ الموتى، لكن نعم، على فترات متفاوتة كنت ألمح فتياتٍ يتردّدن على البيت، ولا عازب به غيره، كان يهوى الصغيرات.

أمرَ عمار أريج وبتول وورد بكشفِ وجوههن ثمّ سأله:

- هل زارته إحداهنّ من قبل؟

- لا، أراهن لأوّل مرّة يا سيدي.

زفرَ عمار أنفاسه المحتجزة، ضغط الزرّ بجانبه واستدعى حسني الذي دخلَ كفأرٍ مذعور، رمقه عمار بحدّة وهو ينظر لعم خليل: - وهذا؟

أشارَ عمّ خليل لحسني برأسه علامة التحية:

- هذا حسني خادم رضا، يحضر يوم السبت لتنظيف البيت.

- هل رأيته يوم الأحد؟

هزّ رأسه:

- لا يا باشا، حسني يأتي يوم السبت فقط:

رفع عمار حاجبه وهو يتفرّس الرجل ليسأله:

- وما سرّ تأكيدك على عدم ظهوره إلّا يوم السبت فقط، هل ذاكرتك حادّة لتلك الدرجة؟!

رمقَ الرجل حسني بشفقة كأنه يعتذر منه وهو يقول:

- حسني رجلٌ على باب الله، كان يمرّ عليّ كلّ سبت فنتشارك سيجارة.

نفثَ عمار بعض أنفاسه التي تضغط رئتيه، وما أن همّ ليكمل إلّا وارتفعت طرقاتُ الباب ليدخل مروان ويهمس لعمار في أذنه بما لم يتمنّ سماعه، هزّ رأسه بالموافقة، غاب مروان قليلًا ليدخل مرّة أخرى بصحبة امرأتين مُنتقبتين، علا صوت عمّ خليل فجأة: - هاتان، كانتا طويلتين كهاتين.

تبادلَ عمار ومروان نظرات قطعها المحامي صارخًا:

- أعتقد أنّك حصلت على منتقباتك ولا عمل لموكلاتي عندك، ذلك سيكون تعنّت سأرفع به مذكرة لرئيس النيابة.

لم يبالِ عمار بتهديده:

- والثالثة يا عمّ خليل؟

أسرع الرجل:

- كانت بدينة وأقصرهن.

الأحجية تزداد تعقيدًا، رموزُها لو اجتمعت فلن تعطي إجابة ولن يفتح لها باب، بل ستدخله في معادلة جبرية حلّها لا نهائي، أمر عمار بإخلاء الحجرة إلّا من المنتقبتين، والبقاء على الجميع خارجها في الانتظار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تعدْ عينَا محمد ترى إلّا ظلّ وحش الانتقام، تشعب بداخله، يتمنّى لو تلتقطها أظافرُه الحادّة المسننة حتّى لو التهمها، لكن كلّ الخوف لو أحبها الوحش فمِن أجمل منها ليحبّها! ومَن هذا الذي يعرفها ولا يهواها، لو أن للعشق زرًّا يضغط عليه فيتلاشى ذلك المحتلّ ويذوب بين خلايا القلب وتدفعه نبضاته بعيدًا.. تنهّد تنهيدة قاتلة، نظر لصورته في المرآة، تلك البدلة السوداء ما حلمَ بارتدائها إلّا لها، تخنقه رابطة العنق، حاول التخلصَ منها فشدّها لأسفل لتدخل عليه أخته سلوان: - أمّك تستعجلك يا محمد.

أطالَ النظر لوجهها الصامت الواجم بألم:

- ألن تأتي معنا يا سلوان؟

امتعضت، ثمّ لوتْ شفتيها قبل أن ترد:

- لا، لكن يوم الخِطبة لن أترك جانبك.

التردّد يكسو عينيه، فارتفع صوته غاضبًا:

- هل تريني مخطئًا؟

أشاحت بوجهها:

- لن يفرق الكلام الآن، أنتَ بالفعل ذاهب لشراء شبكة عروسك.

يعرف أنّها غير موافقة، همّت بالانصراف فاستوقفها:

- «ورد» خدعتني.

هزّت رأسها برفض:

- تناقشنا مِرارًا، «ورد» لم تخدعك، لو أسرّت «ورد» بأمرها لكل من تقرّب منها لفضحها الكثير، ولحاول استغلالها الأكثر، «ورد» كانت تستر لحمها المُنتهك من عيون المتلصّصين والجبناء، وأعتقد أنها كانت محقة.

دُهش من تعبيرها:

- أتقصدين أني جبان!

أدارتْ وجهها لتبتعد بعينيها عن مواجهته:

- وماذا يعني فِرارك؟ أنتَ لم تهرب لأنها خدعتك كما تتشدق، بل لأنك تريد الذي فقدته عنوة فيمَن ستقترن.

تجمّد وجهه أمام ملامحها الصارخة:

- إليس هذا حقي؟

هزّت رأسها بالموافقة:

- حقّك لو كانت فتاة عادية تقدّمت لخطبتها فعرفت، لو تزوجتك أو حتّى خُطِبت لك ولم تخبرك، الأمرُ هنا يختلف، أنت تحبّها وتثق أنها تحبك وتثق أكثر في براءتها وعفتها.

- ماذا كانت تنتظر أكثرَ من عام لتبوح؟

هزّت رأسها غير مصدقة:

- «ورد» وأبوها انتشلاك من البطالة، فتحوا لك معبرًا للحياة، ألم تسألها مِرارًا لماذا كانت تؤجّل خطبتها لك؟ لذلك السبب، أرادت يقين الحب قبل الاعتراف.

- تقصدين أرادت تعلّقي بها حتّى أرضخ لمكرها، هذا هو اليقين الذي تتحدثين عنه؟

تنهّدت بحسرة وألم:

- «ورد» أرادت يقين الكتمان يا محمد، لا يقين الاستمرار، من المؤسف أنّك لم تعرف المعدنَ الذهبي لتلك الفتاة لأنه فقط لا يبرق.

قالتها وأغلقت وراءها بابَ الحجرة لكنها فتحت أبواب عقله التي لن تسد، خرجَ مع أمّه، وقطع السيارة سائقًا لمسافة طويلة، جلس بجانب عروسه في محلّ الصائغ تخيره بين القطع الذهبية فيهزّ رأسه كالدرويش في حلقة ذكر، لا يسمع ممّا تقول حرفًا، لم يرَ ممّا اشترته قطعة، هو سابح في «ورد» وخيالها

ذلك الضّيف الذي يأبي الرحيل، عاجز مغلول يشده الحنين فيطرق الباب ويجذبه الغضبُ فيغلقه، وبينهما يقترب عقله من حافة الجنون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمار ينظر لكوبِ الشاي أمامه يراقب بخارَه المتصاعد المتلاشي، يخشى تبخّر القاتل في فضاء الحيطة وقلة الإدلة، جلس أمام المرأتين لا يفكر إلّا في اعتصارهما لتسقط منهما ولو قطرة قد تستدعي أخواتها فيملؤن له كوبَ الإدانة، نظر إلى الكاتب بجانبه وهو يتأكّد من أنه كتب بياناتهما كاملة: - ما سببُ تواجدكما في بيت القتيل يوم الأحد ١٦ أبريل؟

أقرّتا أنهما محفظتان بدار قرآن بالجيزة، وأنّ السيدتين المقيمتين بالدور الثالث استدعتاهما هاتفيًّا للاتفاق على درس جماعي لهما ولأولادهما.

وجّه نظره لإحداهما:

- مَن الثالثة التي نزلت بصحبتكما؟

كانت المرأة في حالةِ ارتباك، فحاول طمأنتهما:

- أنتما شاهدتان فحسب، كلّ ما أريده الصدق لا غير.

هزّت المرأة رأسها، لم تصلها أنفاسُ الأمان، لكنْ لمَ الخوف! هي لا تعرف رضا هذا، كلّ ما في الأمر صدفةُ مرورٍ أمام شقته وهو يُقتَل: - لم تنزل بصحبتنا، بعدَ مرورنا بالدور الثاني وعند منتصف الدرج قبل الوصول للدّور الأول سمعت صوتَ باب يُفتح ويُغلق، ثمّ وجدناها في إثرنا، سارتْ بجانبنا للحظاتٍ بعد الخروج من البيت ثمّ فجأة اختفت.

- وما أوصافها؟

ردّت عليه الأخرى:

- لا يمكن تحديدُ وصفها، لقد كانت ترتدي النقابَ بهيئته الكاملة حتّى أنها كانت تضع على وجهها بيشة.

لم يفهم عمار معنى البيشة؛ فطلب التوضيح.

- البيشة يا سيدي قطعة خفيفة زائدة في النقاب تخفي عين المرأة لكنها تُتيح لها الرؤية.

مسح عمار وجهَه بكفّه يخفي غيظًا استبد به، كلما تخيل أنه اقترب ابتعد أكثر: - وهيئةُ جسدها كيف كانت تبدو؟

- قصيرة وبدينة.

أطال عمار النظرَ، واتّسعت عيناه لدرجة أخافتهما:

- لم تتكلّم معكما أو تُصدر صوتًا أو تهاتف أحدًا يمكنكما من خلاله التعرّف على صوتها؟

هزّت الاثنتان رأسيهما في ذات الوقت، وأشاراتا بالنفي، فقال: - هل كانت تحمل شيئًا يبدو ثقيلًا؟ حقيبة نسائية ضخمة مثلًا!

أشارتِ التي كانت بعيدة عنها للّتي كانت تسير بجانبها لتجيب..

- حقيبتها كانت تحتَ خمارها فلم أتبين، ثمّ إنّها اختفت بدون خطوة أمامنا.

- كيف؟

- أعتقد أنّها دخلت شارعًا جانبيًّا.

أطال عمار النظرَ لهما بهدوء وتفكير عميق، لا توجد بين المنتقبتين وأحد المُشتبهات الثلاث أيّ صلة، هي وحدها الصدفة التي جمعت بينهما وبين تلك البارعة.

- سأُدخِل الثلاث مُنتقبات مرّة أخرى، أريد منكما تحديد مَن منهن يمكن أن تقتربَ من طولها.

دقّ عمار الجرس وأمرَ الحارس بإدخال ورد وأريج وبتول، الغيظ توحش في ملامحه، فشعرنَ به يقفز نحوهنّ، فتبادلن النظرات، بينما هو على يقين أنّ وراء تلك النظرات سخرية عميقة من اقترابِ الفِرار، أشارَ للمرأتين فدقّقتا النظر إليهن، وعادتا لعمار بإجابة واحدة: - كلّهن قصيرات، أيّ واحدة منهنّ يمكن أن تكون هي، الفروق بينهنّ ليست كبيرة.

ثمّ وعلى غفلة من الجميع قامت امرأةٌ منهما وسارت نحو بتول، وقفت بجانبها وهي تقول: - تلك أقربهنّ طولًا، لكنّ الأخرى كانت بالنسبة لها بدينة جدًّا.

أطالَ عمار النظر إليها بغيظ، ثمّ أملى على الكاتب:

- وبسؤال كلّ من ورد محمود وأريج نور وبتول سيد عن أماكن تواجدهن يومَ الأحد ١٦ أبريل ما بين الساعة الرابعة إلى السادسة؛ أجبن..

ثمّ ألقى إليهنّ نظرة حادّة مستفسرة، أسرعت ورد:

- بمكتب الإعلان محلّ عملي بالسادس من أكتوبر ولم أبرحْه إلّا السابعة مساءًا كالمعتاد.

- معنى هذا أنّ إجازة المكتب الجمعة؟

هزّت رأسها نافية:

- المكتب ملكٌ لأستاذي د. سامي رياض، ومفتوح طيلة الأسبوع، هو واثنان من زملائي عطلتهم الأحد، وأنا الجمعة، وعمّ محروس لا يأخذ إجازة مطلقًا، بل ويبيت بالمكتب، ويمكنكم التأكد منه.

واثقة هي، فابتعد عمار بنظره عنها ليوجّهه صوبَ أريج فأجابت: - هذا اليوم والوقتُ بالتحديد كنت في اجتماع بدار النشر مع العديد من الأدباء لتوقيع عقد روايتي الجديدة، وصورُ اللقاء موجودة بالأرشيف بالتاريخ والوقت.

استنشقَ عمار أنفاسَ الراحة، ثمّ عاد لضيقها بعدما انتقل لبتول، الوحيدة التي لم ترفع النقابَ عن وجهها فورَ انتهاء العرض كأنها تأنسه..

- كنت أبحث عن عباءةٍ مناسبة لحضور زفاف ابنة عمّي.

- هل يمكن تقرير مكان تواجدك تحديدًا؟

- مررتُ على أماكن عدة، انتقلت من حيّ المهندسين للزمالك ثمّ مدينة نصر.

أطالَ التدقيق في عينيها:

- وهل تمّت عملية الشراء؟

لم تنحّ مقلتيها عن نظرته وهي تقول بحدّة:

-لا، لم أوفّق، فأعدت الكرة يوم الاثنين.

- أشعرُ أنك اعتدتِ النقاب!

وبمنتهى الهدوء والثبات قالت:

- منحني بابًا طالما تمنّيته، سألزمه من الآن.

كانت ترمقُه بعينين يحيطهما السواد كجني الظلام، هي على يقين أن الأملَ أصبح بالنسبة إليه يمرّ من سمّ الخياط فيخطئ طريقه، يحتاج إلى بصر وبصيرة، لكنْ في ذلك الظلام لن يفلحَ في إدخال خيطه مهما فعل، وعمار يلمحُ قسماتها المتراقصة بالشماتة وفخر الانتصار حتّى وهي خلف ذلك القناع. أمرَ عمار المرأتين بالتوقيع على الأقوال، بينما المحامي يتعهده بملامحَ يعرفها جيدًا، لن يستطيع استبقاءها؛ لا توجد قرينة أخرى تتضافر معَ عدمِ تحديد مكانها فيستطيع لفّ الحبل حول عنقها وسحبها، تنفس شهيقًا طويلًا أخرجه زفيرًا متقطّعًا، ثمّ نظر إلى الكاتب وهو يملي عليه قرار إخلاءِ السبيل بضمان محلّ إقامتهنّ لحين التأكد من أماكن تواجدهن يوم الأحد ١٦ أبريل ما بين الخامسة والسابعة ليلًا بشهادة الشهود، ولدهشته لم تحرّك واحدة منهن

ساكنًا، لم يظهرنَ فرحة أو دهشة أو يصدرن صوتًا، بل كنّ ينظرن إليه بكِبر، بينما أبصرَ في عيني بتول نظرة تسرّ له: - تلك النهاية الطبيعية لما خُطّط له بإحكام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجنَ من الغرفة الواسعة التي ضاقت بهنّ طويلًا مستنشقات رائحة النّصر، انضمّت إليهن تسنيم، والمفاجأة كانت في حضور زينب التي كانت تقفُ مُستندة على كتفي أبيها وطبيبها، تشابكتْ أياديهن في مشهد تأخر سبعةَ عشر عامًا، أخيرًا أطلقنَ مارد الجرة النائم يتقلب في أعماقهن وينشر آثامَه سُمًّا في أجسادهن النخرة، أخرجَ جميعُهن الحجرَ الذي يتدلي في صدورهنّ، ورفعْنَه قليلًا كأنهنّ يصرخن...

- لقد جاء أخيرًا هدوء العاصفة.

بينما كانت الصورُ تُلتقط لتسقطَ العناوين بإخلاء السبيل في الخانات الجانبية، دومًا ما يكون الاتهامُ عنوانًا رئيسيًّا، والبراءة هامشية، تلك هي اللّعبة لمَن يتقنها، إثارة لعاب القارئ بالوجبة الشهية المقدمة على طبق تلطيخ السّمعة الساخن المُزيّن، ولا عزاء للأبرياء! لكن ذلك لم يمنع التّهاني وعباراَت الوداع معَ تمنيات اللقاء بدأت عيني أريج تتابع أسراب الرّحيل في سماء وحدتها، طيورُ النورس تتأهّب للهجرة من أرضها بلا عودة، زينب مع أبيها وطبيبها، وللعجب انضمّت إليهم تسنيم، ابتسمت أريج لتسنيم هامسة: - تتبعي ريحَ زينب، علّ وحشي الحياة والموت داخلكما يتقابلان في نقطة الإنسانية، فتنطلق بكما في خطّ متوازن حتّى وإن لم يخلُ من المتعرجات.

تلألأتِ الدّموع في عيني تسنيم، هوتْ رأسها في رضوخ وهي تدنو منها تحتضنها: - دومًا ما كنتِ قلبًا واسعًا بحجم الكون حتّى في طفولتك، سأقهر سقوطي لأرتفع، وأحاول أن أشدّ زينب من عالم الأطياف ونتقابل.

بينما «ورد» أسرعت وانكمشت تحتَ جناح أبيها، حقًّا مهْما مال جذع الأب الحنون فإنّه لا يسقط. يتبعهما د. خالد الذي يبدو أنّه يفتح صفحة لورد بدفتر قلبه. بتول تتعلّق بذراع زيد، ومقلهما تتعانق من فرط سعادة وعشق طالتْ فترة حمله لكنّه غيضٌ من رحم المعاناة، فصرخ بقوة يُعلن للدنيا قدومَه، وعمّها تغزو صدرَه الطيب أنفاس الطمأنينة على ابنة أخيه مختلطة بخوف مجهول الماضي والقادم، إلّا هي! وقفت كفرخ اليمام الذي عاد إلى عشّ الفراغ يتربّص به ثعبان الوحدة، ترتفع نبضات قلبها فتخنق عنقها، هزّت رأسها بهدوء كورقةٍ خريفية تمسّكت بجذع خواء لن يجنى عليه ربيع: - أوّل عاصفة تهدأ لتُطيح!

لم تنهِ كلماتها لتتقدّم خطوة في هوّة اللاوجود حتّى جاء صوته من خلفها، التفتتْ إليه لتجدَ في عينيه بريقًا، وعلى شفتيه ابتسامة خجل مبعثرة: - هل لنا أن نتمّ حوارنا بعيدًا عن هذا المكان؟

الدّهشة عقدت لسانها، «الرجل الأحجية»! منذ دقائق فقط دسّ وجهها في جوربِ السّواد، وسعى ليربط عنقها بحبلِ المشنقة، والآن هو مَن يسحب طرفَ خيط الوحدة عن جيدها! همست: - ألَم تكتفِ بعد؟

زادتِ ابتسامته، ورحلَ الخجل مخلفًا وراءه نبتة اقتحام: - ومَن هذا الذي يكتفي من حديثك حتّى وإن كان عن جريمة!

لكنْ يبدو أنّ الخجل رفض الرحيل وانتقلَ إليها، ما هذا الإحساس الذي لم تعهدْه، وبدأ يدبّ في جسدها، فيغمره بنشوى كخيوط الفجر تقشع الليل الطويل، لا تعرف أين تهرب بعينيها! تريد ذلك اللقاء بكلّ ما تحمله أيامها من شقاءٍ ووحدة، تهفو لتحطيم جدارِ خوفها من الرجال لكنها تخشى على ما تبقّى لها من الانهيار، طال صمتها، فأكمل: - سنفرد معًا الأحداث والقرائن والتقارير والأدلة لنصطاد القاتل.

تبادلَا ضحكاتٍ قلبية انتقلتْ إلى الشفاه، هزّت رأسها بالموافقة وتأهّبت لتنطق، فقاطعها: - أعرف أنّك تشتاقين لحمّام دافئ، سأنال شرف توصيلك إلى المنزل وسأنتظرُك بالسيارة لنتناول الغداء معًا.

وقفتْ أمام مرآتها لا تصدّق أنّها خلعت عنها تلك الثياب التي كادت تلتصق بجلدِها، مشّطت شعرها ببطء أمام انعكاس صورتها وهي تهمس: - تُرى ماذا يريد؟ ولماذا أنا؟ هل يُعقل أن يلتفت مثله لمن ارْتادت غرف الحجز، امرأة تنهمرُ في شراييها الدّماء إلّا أنها فقدت أغلاها بالنسبة للرجال؟

أطالتِ التفكير ثمّ عادت:

- هل يُعقل أن تكون محاولة للإيقاع ببتول من خلالي؟

ثمّ هزّت رأسها مؤكدة:

- ولمَ لا! أنا الوحيدة الشاغرة، «ورد» مرتبطة، زينب وتسنيم خارج الدّائرة، كلنا الآن يثق أنّها هي مَن.....

توقّفت ثمّ رجّت رأسها بشدة لتُسقط كلّ أفكارها قبل أن تُبذر في رأسها فتنبتَ شجرة يقين: - منذُ متى اعتدتِ الاتهام! ستتحقّقين بعد قليل من نيّته، فلمَ العجلة! عندما يطولُ الصبر سنوات لن تزيد ثقله أيامٌ خفاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنهّدت «ورد» وهي تشتمّ رائحة كفيها المعطرتين بالصابون: - لكمْ ضقت برائحة الهواء المُختزن وأرضية الحجز العفنة، وما خفّف عنّي إلّا أريج وبتول.

ثمّ أرسلت لأبيها ابتسامةً كشفت له سرّ روعة «الموناليزا»، الحزن الذي يملأ العينَ في الوجه المبتسم، ركنَ رأسه لكفّه، فبادرته: - لمَ الضيق الذي يبدو في ملامحك يا سيد محمود، وابنتك القاتلة قد أفرج عنها، ومرّت جريمتها بسلام؟

ثمّ ارتفعت ضحكاتُها الهيسترية تملأ الأركان، نظر لها بشفقة ثمّ نهض ليحتويها في صدره: - لا تفتعلى السعادة، الذين يهبونَ الفرح رُغمًا يموتون من شدة التعاسة يا ورد، بكاؤك تلك اللحظة أهونُ عليّ ممّا تصطنعيه.

قالها وكأنّه تلا كلمة السرّ، ففتحَ مغارة أحزانها، بللت دموعها صدره واخترقتْ قلبه المتعَب فأغرقته، ربّت على كتفها: - محمد سيعود.

أطالتِ النظر لوجهه ثمّ كفكفت دموعها بكفيها الرقيقين: - حتّى لو لم يعدْ، المهم أنك أنتَ لم ترحل، ما فائدة عودة الربيع والبستان أجدبُ خالٍ من الزهر!

ظهرَ الوهن في ملامحه وصوته:

- سأصدقك القول، للّحظة الأخيرة كنت أرتعبُ أن تكوني أنت فاعلتها، لكن اتّضح أنّها بتول.

أحاطته بذراعها وهي تهمس:

- لا يقين حتّى في ذلك، والآنَ هيّا يا حبيبي وسيدي إلى المطبخ لتعدّ لابنتك الجائعة أشهي طعام يمكن أن تتذوقه.

التفتَ إليها كأنّه تذكّر أمرًا:

- كانوا لا يقبلون منّا طعامًا! فماذا كنتنّ تأكلن في محبسكن؟

حملتِ الذّكرى البسمة الصادقة لوجهها:

- لن تصدّق كان يأتينا طعامٌ فاخر يوميًّا، وإلى الآن نجهل المصدر.

قطعَ حوارهما رنينٌ متتابع لجرس البيت، تبادلَا تعبيرات وجه متباينة، هو يظنّه محمدًا، وهي تستبعدُ ذلك. اتّجهت لترى القادم فإذا بها سلوان، خطفت «ورد» في حضنها فور رؤيتها: - حمدًا لله على سلامتك يا ورد.

لفّت الدهشة ملامح «ورد»:

- كيف عرفتِ بتلك السرعة؟

ابتعدتْ سلوان وهي تحاول الفرار من الإجابة:

- قولي لي كيف حالك؟ حمدًا لله على براءتك.

تجمّدت ملامح «ورد» بثباتٍ طالَ، فأجرى الاعتراف على لسانها: - محمد مَن عرف، هاتفني وطلبَ منّي المجيء للاطمئنان عليكما.

هزّت «ورد» رأسها، حان دورها في أرجوحة الفرار:

- هل تناولتِ طعام الغداء؟ كنّا على وشك إعداده.

اتّجهت «ورد» للمطبخ وتبعتها سلوان، تشعر «ورد» أنّ في جعبتها ما تتمنّى إخراجه، ومن الواضح أنّها تضيق بما تحمله، صدمتها «ورد»: - أخبريني الرسالة.

أخرجت سلوان زفيرًا شاقًّا حارقًا محتجزًا من فرط ضيق: - محمد خطبَ ابنة خالتنا.

ابتلعت «ورد» كلّ الألم مع ريقٍ وقف كالحجر العثر في حلقها، لكنّه ظلّ أفضل من اجتراره: - باركَ الله لهُ.

فكّرت سلوان في تعقيبٍ يخفّف حدّة الصدمة، إلّا أن «ورد» استوقفتها: - لم تخبريني هل تفضّلين الدجاج مسلوقًا أم مُحمّرًا؟

انصرفتْ سلوان بعد طعام صامتٍ لم تعرف له مذاقًا، تناولته فقط حرصًا على الخيط المتبقي من الانقطاع. أغلقت ورد خلفها باب المنزل وهي تسدّ طاقة محمد في قلبها بأحجارِ خيبة الأمل حتّى لا ينفذ منها أيّ ما يذكرها به، صدقت أريج؛ تلك المحنة مخاضٌ وجنين محمدٌ سقط قبل تكوينه، فلا عزاءَ عليه ولا صلاة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مِعوَلُ الحبّ

مالتِ الشمسُ للغروب وهي ترسل أشعةَ الوداع على أغرب لقاء، بينما كانت فيروز تغرد «حيرى أنا يا أنا والعينُ شاردةٌ.. أبكي وأضحك في سرّي بلا سببِ.. أهواهُ مَن قال إني ما ابتسمت له.. دنا فعانقني شوقٌ إلى الهربِ»، بينما عمار يتأمّل وجهها بعيدًا عن كلّ ما مرّا به معًا، لم تختلف! هي هي التي امتلكت قطعته الغالية، رفعتْ عينيها لتتقابل بعينيه، ترى ما وراءهما؟ وكأنّ عقلها يحيط به زجاج شفاف..

- لمَ التخوف؟

أسرعتْ بوضوح واجب:

- بل قلْ لمَ التقرب؟

جاهدَ ليستجمع معنًى يمكن أن ينفذَ لعقلها، التعامل مع مَن هنّ مثلها لن يكونَ بالسلاسة المتوقّعة، فضلًا عمّا حدث بينهما من صدام، اقترب هامسًا مُلقيًا ما في جعبته دفعة واحدة: - أشعر أنكِ جئت على قدرٍ لأصطنعكِ لنفسي.

هالتْها كلماته المفاجئة الصّريحة الجريئة التي تقطر إمّا حبًّا أو شفقة، لكن هلْ يمكن أن يولَد الحبّ على فوهة البركان؟ ولو حدث ألن تتلقفه حِمم الخوف؟ وإن كان شفقة، لو يعلم أنّها لم تضع جنبها يومًا في مهد العطف حتّى لو جمّدها صقيع الوحدة! اندفعت بقوة: - هل تحاول أن تمسحَ دموعي المتحجّرة التي تبدو لك على وجنتي!؟

- ولمَ لا؟

في دقيقةٍ نازل كبرياؤها ضعفَها وانتصر، رفعت هامتها وجمدت ملامحها وهمّت بالوقوف: - ولمَ لا تُقر بأنك لا تمدّ يدك لتنتشلني من غيابة الجب إلّا لتبيعني بثمن بخس؟

ابتسمَ لحدّتها وحيطتها وهو يشيرُ لها باللامغادرة:

- هل تعلمين، أثقُ أنّ تحت تلك الأوراق الجافة التي تتزملين بها ساقٌ خضراء، أصابها خريفٌ مبكّر، لكنّ يومًا ما سيظهر برعم أخضر ينبئ عن حياة تدبّ هناك. (ثمّ أشار إلى قلبها).

أشاحتْ بوجهها، تمنّت البكاء فعصت دموعُها وتساقطت أحرف:

- عندما تُكسر قشرتك قبلَ اكتمالها، فأنت تحتاج إلى أخرى أصلب لتستر عُرْيك عن عيون الطامعين في ثمرتك.

عيناها تسطّر ما في قلبها، لكنّ شفتيها تأبى الخضوع، عادت لتكمل وقد بدأ الضعف ينقر كلماتها: - ماذا تظنّني! أمَا تشتاق روحي إلى صَيِّب؟

أظلّت عينيها غيمةٌ أمطرت أرقّ كلمات نقرت أذنَ عمار يومًا:

- لو تعلم، أنا أندرُ من الزهورِ البرية النابتة حول الصخور، وأكثر بريقًا من رمال الصحراء، فأنا لا أحتاج صقلًا لترى معدنَك على سطحي، ولا سقاية لينتشر عطري في أرجائك.

فتحتْ له طريقًا كان ضيّقًا بالأمس القريب وإذا به يتسع ليمرّ:

- هل ستصدقيني إنْ أسررتُ أنّي لمحتني بداخلك فور دخولك، وشممت أريجَك الذي لم ينقطع مهْما ابتعدتِ، فهل لنا أن نعتبرَ تلك المحنة جبلًا شاهقًا وصلنا إلى قمّته، أن تنظري للكون بجانبي؟

الخوفُ والتردّد يتلاعبان برأسها، ستبقى وحدتها أفضل من السقوط لتتناثر تلك المرة بلا تَجمع: - لكنْ تذكّر أنّي مازلت أحتاج لمَن يتغاضى عن نزف موضع حوافره في قلبي وأنيابه على شفتي دون أن أزيّفهم بلوْن وردي خلاب، أنا لم أشفَ تمامًا يا عمار.

تساقطتْ دموعها لأوّل مرّة من قلبها المقيد، أغمض جفنيه ألمًا وحنينًا، لتكمل: - لقد قيّدت قلبي ولم تهدأ أيامي إلّا عندما رسمت زنزانة عالمي الجديد، سياجها، جدرانها، شباكها الصغير البعيد الذي لم يعدْ يطلّ على شيء، فتحت بابها وأغلقته، أوّل زنزانة تغلَق على سجين من الداخل، حبس انفرادي لن يقودني إلّا للإعدام، ببدلة بيضاء لناظريها، حمراء بلون نزيفي الدّاخلي، هل ستقوى على جذبي من مقصلة روحي؟

لم يرد، بل منحها ابتسامةً هادئة وهو يفتح لها كفّه ليستقبل كفّها، كادت تدْنو، ثمّ ابتعدت: - هل تصدّق أني لم أقتله؟ أم أنك ستتزوج من قاتلة؟

ولأوّل مرةٍ تسمع صوت ضحكته:

- نعم، تمنّيت ذلك طيلة حياتي، لكنكِ أفسدتِ الحلم بعدم تقطيعك إيّاه وتوزيعه في أكياس.

ثمّ وكأنه تذكر شيئًا:

- لم تقولي لي، هل كان يُعجبكِ طعام وشاي الحجز؟

بُهتتْ وهي تشير له بسبّابتها:

- أنت؟!

هزّ رأسه وعلاماتُ الحبّ تتراقص على وجهه وداخلَ عينيه، لا تعرف كيفَ وفي ساعةٍ واحدة استطاع أن ينتشلها، ويزيح عنها علقم سبعة عشر عامًا ليمتلئ كيانُها بحلاوةِ وجوده، ترى ما هو سرّ معْول الحبّ، وكيف يُهدَم به حصون الخوف وقلاع الصمت ويحول أطلالهما لواحة غناء، اختطفها ظلّه الطاغي من حرقة الوحدة ولهيب القسوة تحت إحدى أشجارها، ليتَ حنانه نهرٌ عذب فيّاض تطفو على سطحه وهي مستلقية مُغمضة العينين فيُعيد لها فطرتها المفقودة، لكنْ ماذا لو كان سرابًا؟ حينها سيوأد قلبها في صحراء الغدر بلا قيام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضحكاتُ المكر تتفلّت من بين شفتيه، ولا سبيل له من كتمان، المحاولات تذهب كلّها أدراجَ الرياح، حتّى عيناه تبوح بما يعتمل في عقله: - قلْ ما إن لم تقله سينفجر رأسُك.

أطلقَ لضحكاته العنان:

- أريج يا عمار!

جاهدَ عمار ليضفي سماتِ الجدية على ملامحه، عبس بحاجبيه في استنكار: - هل تراقبني يا مروان؟

توقّف مروان ومالت نبرته للعتاب:

- أنساك غضبُك أنّنا لم نرفع المراقبة عن الخمس فتيات وحسني!

تنهّد عمار، ثمّ ردّ له ضحكة هادئة:

- أعرف، لكنّي أردت فقط صدمتك لتتوقّف سخريتك.

ثمّ راح في تفكير عميق قطعه مروان:

- هل تحبّها؟ أم تستدرجها لتوقِع ببتول؟

أرسلَ عمار إليه نظرة استنكار:

- لست أنا مَن يتلاعب بامرأة لأيّ غرض مهما كان سموّه!

- حتّى وإن كانت لوقتٍ ليس بعيد مشتبهًا بها؟

- لم تعدْ! الجميع شهدَ بحضورها حفل التوقيع، الصور والفيديوهات موثقة بالتّاريخ والوقت، حتّى ورد شهدَ عمّ محروس بتواجدها في المكتب طيلة يومِ الأحد ولم تبرحه إلّا في موعد الانصراف المعتاد.

قاطعه مروان:

- وبتول؟

أطالَ عمار النظر لمروان وهو ينطق اسمها:

- بتول! تلك هي الأحجية! الوحيدة التي لم تستطع إثبات مكان تواجدها، لكنّها لن تكون قرينةً بمفردها، وخصوصًا بعد شهادة المنتقبتين ببدانة القاتلة، ثمّ...

- ثمّ ماذا يا عمار؟

- لا تستطيع بتول بمفردها قتله.

تعجّب مروان:

- ولمَ لا؟

- كان يمكنها لو لم تكنْ عسراء، أربع طعنات في اليمين تشير لوجود رجل أيمن على الأقلّ معها إن لم يكونا اثنين، وحسني لم يظهر يوم الأحد، ثمّ أثبتَ حضوره في عملٍ وقتها، وزوج بتول كان في الخارج، عمّها كان بعمله، فمَن سيكون؟

أسرعَ مروان ببهجة:

- سعيد لأنّ زوجها لم يطلقها، بل على العكس ضمّها في عباءة رجولة حقيقيّة، وواضح أنك على ثقةٍ من أنها القاتلة، لكن لا بدّ لها من شريك.

- نعم، لكننا لن نستطيع تقديمها للمحاكمة، سنقف عاجزين أمام انعدام الأدلة وشهادة الشهود، النقاب كان لعبتها كما كان غطاء الرأس لعبته.

- تتوقّع كيف فعلتها؟

- علاقة هاتفية، رسائلُ تواصل، وهذا يؤكّد حرصها على سرقة الهاتف واللّاب توب، موعد، فدخولٌ مطمئن، النقاب الكامل لم يترك لنا أيّ أثر لحمْض نووي أو بصمة.

- لكنْ يبقى السؤال، آثارُ الثلاثة أحذية الرجالي مع عدم وجود أثر لحذاء نسائي؟ ثمّ إنّنا لم نعثر على الأحذية والسكاكين وهي لم تكن تحمل حقيبة ضخمة؟ كما لم يظهر في تشريح رضا أثرٌ لمخدر.

- حتّى وإن تمّ العثور عليها، فلن تكون قرينة إلّا بالبصمات، هي تعلم أنها بالنّسبة لنا قاتلٌ معلوم ولم تنكرْ تصرفاتها أو أقوالها الجريمة بصورة غير مباشرة، وبالرغم من ذلك لن تستطيعَ أيادينا أن تمتد لمعاقبتها، ستقيد القضية ضدّ مجهولٍ للعجز عن الإثبات، ذلك هو التحدي الذي تعمدت ردّه للعدالة التي ظلمتهنّ لبطء الإجراءات وعدم توفّر القرائن لحسابه، دم بدم، وإفلات بإفلات كما قلت لك قبلًا.

- لكنْ في اعتقادك، لماذا هي مَن أخذت على عاتقها القصاص دونهن؟

- في ظنّي أنّ كلهن وجدنَ وسيلة تفريغ لمحتوى ضجّت به نفوسهن؛ زينب تتأرجح على مشنقتها بين الحياة والموت، العقل والجنون، تسنيم تضع قدمَها على رقاب الرجال مهما كانت التّضحيات، أريج أخرجته نقشًا على الورق، ورد أخرجته في الحبّ ما بين أبيها وذلك الشاب الذي تخلّى عنها، إلّا هي! بتول كانت كوعاءِ الضّغط لمَن حولها، ولمّا لم يجد ضغطها طريقًا للصعود؛ انفجرت.

لم يستطع مروان السيطرةَ على قلبه لينبض ما بداخله:

- لكنّها نجحت في القصاص والنجاة.

عمار يلمحُ في وجه مروان فرحة إفلاتها، يشعر به وبخوفه على فتاته، لن يتّهمه أو يلومه طالما لم يقصّر في مهامه، عساه يشعر يومًا بالأبوة لفتاة رقيقة كأمّها التي لن تكون إلّا أريج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا يخشى البشرُ العواصف؟ ذلك المنظور الضيق الذي يقبع في قلوبهم فيمتلك وحشُ الخوف صدورهم، ويتربّص بأحلامهم، لو يعلمون أن العاصفة ما هي إلّا لحظة حقيقة طاغية، تزهي اخضرار الشجر الباهت، وتسقط عنها الأعشاش الواهية فتتناثر أفراخُ الحبّ الواهنة ميتة في مهدها، تُغرق الأرضَ فتزيح ما علق بها من شوائب ماضٍ ممتد، تخفي الشمس فتسطع في القلوب بقوّة بعدَ افتقاد، كلّ هذا كان يدورُ بعقل «ورد» والشهور تتوالى على روحِها المتعبة، تعلم يقينًا أنّ الحياة لن تتوقف على من استطاع أن يحيا بدونها، تلمحُ شرفته وخياله يتبعها، تُرى هل تخلص من معطفِ حبّهما أم أنه سيقطعه ثمّ يشكّله لمعطفٍ آخر على قياس من خطب ويلقي ببقاياه للنفايات، هل سيدفئه كما فعلت، أم سيستر بعضه ويكشف الكثيرَ كما نزع عنها ستره، لكنّها لن تلومه، وهل على الضعيف حرج! ستعتبره جدارًا واهنًا أسقطته عاصفتها ولنْ تقوم له قائمة، لم تتوقع وهي تهبطُ ذلك اليوم على درج المكتب أن تلمحَ شبحه المنتظر الملتصق بسيارتها، تردّدت، تمنّت أن تعود وتنتظر بالأعلى إلى أن يمل، لكنها عادتْ وشدّت جذعها واقتربت، ابتلع ريقًا تظنّه كان جافًا كالحطب فأدمى حلقَه، تنهّد تنهيدة ثقيلة وهو يرفع رأسه المنكسة ويقول: - انتظرتك طويلًا.

- لن يكون أطول ممّا انتظرتك.

ابتهجتْ عيناه، وتراقصت مقلتاه، وفرّ خوفُ الخيبة من قلبه، هل يُعقل أن تغفرَ له «ورد» بتلك السهولة!

‴

- كنتُ على يقين من وعيك وتقديرك، من ثقتك في حبي، ما كان إلّا الغضب الذي كسا القلبَ شوكًا، لا تظنيه وخَزَك وحدك، لقد مزق أضلعي، ففررتُ من قسوة الألم.

ابتسمت فحسِب روحَها تدنو لكنها همست:

- يومًا ما خِلتُك العالم، الصديق الذي لم أصادق، الحبيب الذي لم أواعد، الروح التي خرجت وها قد عادت، القارب الذي سيحمل قلبي إلى شاطئ، الربيع بألوانه، والصيف بدفئه، والشتاء باحتضانه، لكني لم أجد منك إلّا جفافَ الخريف وخيانةَ الصديق وفراقَ الحبيب، لا تحاورني حوارَ عاشق، أنت صحراء وأنا تائهة، ولن أضع قدمًا في أرضك.

- ألا تجدين في رمالي واحة صغيرة تشدّك نحوي؟

أغمضتْ عينيها تستدعي ذكرى أيام الخداع:

- لو أدركت أنّي لم أشعر بجمال الأيام إلّا عندما التقيتك، ناغشتني بين صفعاتٍ وركلات، وأنت كنتَ الهبة الوحيدة التي منحتني إياها بعد أبي، بالون ملوّن لطفلة ولِدت لاجئة.

- لقد فُكّ الحصار، هزمتني نفسي لكني أتيتك برحلي.

- رحلُك الذي تركني دون أن يدْلو بدلوه، بل تركني في قاع الجب، لقد بعتني ببضع قطراتٍ تعلم أني فقدتهن قهرًا.

- لم يكن الأمرُ سهلًا كما تظنّين، لم يكن الدلو ملكي وحدي، ولم أمتلك من الحبال ما يسحبُك من متاهتك، كنت كالريشة تذروها رياح الشتات.

- لو أنك رسمتَ بتلك الريشة عصفورًا على قلبي الميت فيغرد، أو شجرة فتثمر، أو ياسمينة فيفوح عطرُها في أرجاء روحي، لكنت اليوم سيد فؤادي.

- «ورد»، أنت بالنسبة لي لست مجرّد امرأة، أنت وطن.

- وهل يفرّ الأبناءُ البررة من الأوطان المغتصبة؟ هل يسكنون أرضًا أخرى ويحسبونها أوطانًا؟ أم يعيدون له بكارتَه ويقيمون تضاريسه، هنا بحر، وهناك جدولُ ماء، في تلك البقعة تلّ، وفوق التل بيت، وحوله السهول الخضراء.

- ألا تغفرين ضعفي!.

- ومَن أكون لأغفر أو أعاقب، أنا ضعيفة مثلك، ولقاء الضعاف سيثير شهيّة الذئاب، وأنا لن أحتملَ أن أكون فريسة مرة أخرى.

- فلتطلقي جذوةً مِن شعلتك لنهتدي.

رمقته «ورد» بنظرة آسفة على أمل رحلَ قبل مولده:

- ما كنت إلّا بريق نجمة حبّ تمنيت أن تهديّنا، فأظلمت ليالينا معًا.

لم تمنحه الفرصةَ للمزيد، فتحت باب سيارتها كمن تفتح طريقًا ستسير فيه وحيدة، ومهما كانت صعابُه ستكون أفضل من رفقة الخذلان، انطلقت بكل ما استطاعت من قسوة، بينما ابتعدتْ دوّامة جبنه وضعفه تدور خلفها لتغلق الفجوةَ بين عالمه وعالمها ليستحيل عليه المرور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أربعتُهنّ تلقّيْن دعوة لم يتوقّعنها، حروف جعلت الشفاه تنفرج بابتسامة سعادةٍ ابتعدت، تخيّلنها يومًا دربًا من الجنون لكنّها ها هي تخرج من الأعماق لتصعد على سطح الوجوه التي لطالما عبست.

- هل ستصدق الخبر يا زيد؟

- أيّ خبر؟

ارتفعتْ ضحكاتها وركنت رأسها على كتفه بدلال:

- تلك الدعوة؛ زفاف أريج وعمار، هل تصدق؟!

شاركَها الضحكات ولمعت عيناه:

- وكيل النيابة؟!

هزّت رأسها بسعادة:

- نعم، كم تمنّيت لها الفرحة، فأريج وتدٌ لخيمة عملاقة ضمت أرواحنا، كنتُ أخشى عليها من الاقتلاع تحت ضغط الوحدة، وها هي بدلًا من أن يحيطها بشباكه لقمَ طعم سنارتها.

ارتفعتْ ضحكاتهما بينما كانت «ورد» تقرأ الدعوة بعيون تترقرق بها دموع الأمل..

- الحمدُ لله، مازالت الأرحام تغيض الرجال.

بينما لم تشعر «ورد» بأبيها وهو يقرأ الدعوة من خلفها ليهتف:

- يا الله، أريج وعمار! ما أجمله من زفاف سيجمع بين العدالة ومظلوميها.

أدارتْ رأسها حيث يقف:

- هل تعتقد أنّ المظلوم يمكن أن يحتويه مَن ظلمهُ.

غاب في تفكير عميق:

- ولمَ لا! يلتقيان في نقطة الإعذار لعتامة الرؤية، وجوال القوانين الخانق، وصوت الشهود الزائف.

ابتسمت وهي تستعدّ لجدال واسع:

- وطالما العدلُ يجتاحه الظلام والاختناق والزيف، كيف يحظى بهذا الاسم؟

ربّت على كتفها ليهدئ ثورة شبابها، ستصل «ورد» يومًا للحكمة لكن يلزمها من الوقت ما لزمه: - كلّها كلمات من روح صفات الله، هو الرحيم، هل يوجد على الأرض رحيمٌ مثله؟ أعظمُ الراحمين ستطغى عليه بشريته، هو العفو، هل يمكن أن يعفو مخلوقٌ مثله، كذلك العدل والحق، مهما اعتدل ميزان البشر فسيميل.

لمحَ في رأسها سؤالًا عالقًا، فحثّها على إلقائه..

- معنى قولك أنّ الله يمكن أن يغفر لرضا ما فعله بنا؟

وجمَ وجهُه وشحبت شفاهه، يرقب روح «ورد» القابعة في حجرة الألعاب الرياضية والتي لم تغادرها طيلة سبعة عشر عامًا، ليتها تفتح الباب وتنطلق.

- لا يا «ورد»، سيغفر بعفوكُنّ.

- وهل تظنّنا نعفو؟

- الآخرة لها حساباتٌ تبتعد كلّ البعد عن حساباتنا الدنيوية.

فاجأته:

- مكتب د. سامي بالخارج يحتاج مصمّمًا، عرض عليّ واستمهلته للتفكير، ما رأيك في رحيل راقٍ عوضًا عن البقاء المخزي!؟

لمعت عيناه بدموع الفراق، هل يمكن أن يفارق روح زوجته ويتركها بمفردها تشعرُ بالوحدة، لكن عندما يكون الخيار بين «ورد» وأيّ مَن كان ستربح هي، هزّ رأسه بالموافقة، تنهدت بعمق: - أعلم أنّ الرحيل شاقّ على روحك، لكن قلبي يشتاق لهجرة قد تضع في قلبي أفراخ أمل.

أطالَ النظر لعينيها الجميلة، هل سيُكتب له أن يرى صفاءَ مقلتيها قبل أن يغادر تلك الحياة، عاد سريعًا ليقول: - وخالد؟ الرجل يتقرّب بكلّ رجولة يا «ورد».

ابتعدتْ لتقف بجانب شرفتها، ألقتْ نظرة على عصفوريها الملونين:

- هل لو مات ذكرُ العصفور ستبدله الأنثى بغيره؟

أطرقَ قليلًا ولم يعقب، يفهم ما ترْنو إليه، نصفه الثاني الذي انشق من روحه، فقال: - الوفاء يكون لأرواحٍ التصقت بنا وما فارقتنا سعادة وشقاء، أما الوفاء لمَن حاذانا في السراء وابتعَدَ فرارًا في الضراء؛ فأنا أعدّه خيبة.

تنهّد قليلًا ليكمل:

- أعيدينا للزفاف، مطلوبٌ منكِ غدًا بدلة أحدث طراز تليق بصحبة باقة وردي الفاتنة.

هبّت واقفة وهي تصيح:

- ولمَ الغد يا سيد محمود، هيّا نرتدي ثيابنا ونشتري حاجاتنا، ونتناول عشاءنا بالخارج، لقد رحلت أيامُ الانزواء فلنفتح صدورنا وننطلق.

ابتهجَ بمرحها الذي عاد حقًّا، هل ما يلمحه تحرّر لروحها الذي تمناه منذ دقائق؟ ظنّ أنها ستنكسر أكثرَ بعدَ محمد وسيميل عودها، لكنها فاقت توقّعاته واشتدّت، فأسرع يلتقط روحها قبل فِرار آخر: - ونشاهد أحدثَ فيلم أجنبي.

وبينما كانت «ورد» وأبوها يجوبان شوارع المهندسين كانت تسنيم بجوار زينب تخبرها بقران أريج وعمار وهي ترتفع بسخريتها: - ألم أقل لكِ إنّه ذو نظرة ودّ فتاكة حطّمت قلب أريج المتحجر!

وقفتْ زينب أمام المرآة تبتسم لوجهها الذي رحلَ عنه الشحوب وغزاه القليل من الحمرة: - هل تظنّين أنه يمكنني أن أصبح زوجة وأمًّا؟!

وقفتْ تسنيم خلفها تمسح على رأسها:

- ولمَ لا؟

هوتْ من عيني زينب دموع بحرقة المِلح:

- لا يا تسنيم، قد يكون مقتله وعودتُنا وجانِبك الآمن أغلقوا بوابة عالم الموت، لكنّهم لن يفتحوا في وجهي بوابة الحياة.

لفّتها بيديها برفق ليتقابل وجهاهما:

- مَن أعادك من الموت وشدّني من المجون؛ قادر أن يرتفع بنا للحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثمانية أشهر مرّوا كثماني سنوات، القاتل تبخّر في الهواء، كأنه شبح تلبس جسدَ رضا فقضى عليه وانطلق، احتلّ الضيق صدرَ عمار، وزادت عصبيته..

- ما كلّ هذا الضيق يا عمار؟ تلك أول قضية لك تُقيّد ضدّ مجهول وليست العاشرة!

زفرَ عمار بغيظ:

- حتّى الوقت يا مروان تحالفَ معه، ستُغلق قضايا وتُفتح أخرى، لكن تلك القضية لن يطويها عقلي مهْما طال الوقت، لم أعدْ أريد عقاب الفاعلة بقدر سماع الحقيقة.

شدّ مروان على كتفه:

- لا تلمْ نفسك، بذلنا قصارى ما نستطيع، لقد خُطّط للجريمة بإحكام.

- تلك القضية تُشعرني بالرّعب يا مروان.

- يا لها من كلمات يا عمار! لماذا؟

- لأنّها أعظم مثال لاختلال ميزان عدالة البشر ونتائجه، خمس فتيات يُنتهَكنَ في وضح النهار، في أقدسِ مكان يمكن أن يُرسِل إليه الآباء بناتهم، إنْ لم نطمئنّ عليهن في المدارس فأين؟ ثمّ براءة للنذل وعار للبراءة، انتهاك جسدي يعقبه تمزّقٌ نفسي وعائلي، فتضطر إحداهنّ، أو كلهنّ، للقصاص لأنفسهن بإحكام، فبراءةٌ للقاتل وعار مجتمعي للقتيل.

توقّف عمار ليلمحَ في وجه مروان علاماتِ الاستغراق في تحليله، فأكمل: - لو كان لرضا هذا ولدٌ أو ذرية، كانت ستستمرّ الجريمة ولن تتوقف، أين نحن إذًا؟ نطوي دفاترنا وأوراقنا ونرحل وندعها غابة قصاص؟

أشارَ له مروان بسبّابته وهو يدقق نظرة:

- لكن ألا ترى أنّ تمسّكك بإدانة بتول قد يكون السببَ في إفلات القاتل الحقيقي؟!

عاجله عمار:

- بتول هي القاتلة، لكن مَن عاونها وكيف؟ هو ما يمزق رأسي.

مروان يشعر بما يعانيه عمار، العملُ القضائي بالنسبة له قدسية اهتزت تحتَ قدميه: - هل تشعر بالتقصير؟

تنهّد عمار:

- لا، بل أشعر أنّ القوانين لم تعدْ جبالًا شاهقة في وجه الجناة، صارت كهوفًا وشقوقًا تُسهِّل الاختباء، سخرتُ من «ورد» عندما قالت إننا نحتاج انقلابًا على القوانين وواضعيها، لم أكنْ أعلم أنها ترانا من حيثُ لا نرى أنفسنا، الزمنُ يتغير والجرائم تتبدل وتتفاقم لتزداد وحشية وقسوة، وسائل التواصل سهّلت العهر، وأطاح إدمانها بالرؤوس، نحن نحارب غولًا بهراوة، وعندما تتّسع شبكة العدالة يسهل إفلات الصيد.

- هوّن عليك يا عمار، حمدًا لله أنك حصلت على إجازة زواجك لتريح أعصابك، فكّر في أريج ولا تُشعرها بما يختلج في صدرك، انتشلتها من جبّ المعاناة، فلا داعي أن تلقيها لهوّة القلق.

سبحَ عمار بعينيه لبعيد، فأتاح له مروان الإبحار وصمت.

أريج! كلّ ما يتمناه أن يعوّضها عما قاست، أن يغزل لها ثوب الفرح من خيوطِ معاناته، يعلم أنّها لم تطعن رضا بسكين، لكنّ ما يثق بأنه لن يعلمه يومًا، هل طعنته بعدم البوح؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضّحكاتُ ترتفع في بيت أريج، أنارَ بعد ظلام، وعجّ بالأحباب بعد وحدة، حنّة العروس أجمل من يوم زفافها، تتابعنَ يحملن الورود والحلوى والهدايا بعدَ أن كنّ لا يحملن إلّا الهموم، تلألأ جمالُ شبابهن كثريا كريستال أصيلة غطّاها الغبار، ثمّ ما لبثت أنْ أمطرت عليها غيمات الأمل فاغتسلت، اتّسعت الصدور فانطلقت الزغاريد، تبدّل أسود حِداد قلوبهن بملابس ملونة فاخرة، أغنيات الحبّ تخترق الأفئدة قبل الآذان فتلمع العيون التي لطالما انطفأت، لم توجّه إحداهنّ سؤالًا لبتول عن كيفية قتله كما خشيت، اكتفين أنّها أزاحت بدماء مقتله صخرةَ نبعهن ففاضت أرواحهن بالحياة والتدفق، أريج تتوسّطهن في دائرة لا تجيد فيها فنّ الرقص، فتعالت عليها الضحكات والسّخريات، إلّا مِن زينب التي بالكاد عرفتِ البسمة الخجولة طريقًا لشفتيها بعدَ ضلال، ارتفع صوت «ورد»: - أجمل ما في اليوم أني سأرحل وقد نقَشت مُقلتيّ لوحة بهجتكن.

بُهتتِ الملامح وزاغت النظرات، احتضنتها أريج، ومن خلف حنان فياض همست: - ترحلين؟ هل اجتمعنا لنفترق؟ ما لكِ والغربة؟

- سأرحل عن عالم اللاإنسانية في محاولة لإنقاذ ما تبقى منّي، عالم عرف كيفَ ينتزعها من داخلي وأنبت لي أظافر وأنيابًا.

سجّلت بتول اعتراضها بنظرات عتابٍ وعبوس وهي تمسح على رحمها بكفّها: - ألن تصبري حتّى تصبحين خالة «ورد»؟

ارتفعتِ الصّيحات مهنئة، اختطفتها «ورد» بين كفيها:

- مبارك يا بتول، سأرحلُ في خلال أسبوع، انتظرت حضور فرح أريج لكنْ يومًا ما سأحضر إليه مهْما ابتعدت، هذا لن يكون ولدك بمفردك، إنه النّبتة الخضراء التي أزهرتْ في أرض عودتنا، شجرة الذكرى التي ستجمعنا تحت ظلّها مهما تفرقت شموسنا.

أسرعت تسنيم:

- أتمنّى لكِ السعادة أينما وجدتِ يا «ورد»، لكن هل سترحلين يأسًا من الحبّ، أم هربًا منه؟

- الاثنان، سأهرب حتّى يموت الأمل، لقد تخثر الشوقُ في دمي وأصاب منطقةَ الحبّ في قلبي بجلطة لن تنفك.

زادتْ زينب بحزن:

- ستهربين من محمد، لمن؟

أشاحت «ورد» بوجهها تُخفي دموعَ الشوق، فهذا ليس يوم دموع:

- لا أدري، سأرحلُ لأثير عاصفة في وجه د. خالد، إن تبعني سأدخل دوّامته، وإن أفلتني فسيمرّ كما مرّ مَن قبله.

أطالت أريج النظرَ لوجهها الذي عبث بملامحه الحنين، تلك هي «ورد» ولم تتغير، تشعل فيمَن تحبّ نار الاختبار، فإن اجتازها فإذا بها الجنة، رمقتها بنظرة متفهمة: - الرحيل ليس دومًا غربة، بعضُه أرضٌ نشكّلها كما نتمنى بعد أن جدبت الأولى، ارحلي بجسدك، وألقي علينا جميلَ روحك، ارحلي ولا تغادرينا.

عزفتْ أريج على قلبها لحنًا حزينًا فاهتزت أوتاره وفاضت مدامعها، اجتمعن في حلقة ضاقت من فرط اقتراب واتسعت من فرط حب، فارتفعت الأكف تشدّ الظهور، والشفاه تُلقي بعهد اللقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل عليه يحملُ حقيبة كبيرة والدهشةُ الأكبر في عينيه، أفسح لها مكانًا على مكتبة ثمّ وضعها..

- ما هذا يا مروان؟

رمقَه مروان بقسماتٍ لم يتبيّن عمار مقصدها..

- افتحها.

شرعَ عمار فيما طلبه مروان فإذا بملامحه تكتسي بنفس التعبير، رفع وجهَه لمروان الذي هزّ رأسه مؤكدًا: - أين وجدتها؟

وبينما كان عمار يكتم غصّة في حلقه من مهانة الفشل جلس مروان ليجمع شتات روحه، وبتنهيدة ثقيلة قال: - بالأمس وقعتْ حادثة في النيل، غرق فيها سائحان ونجا اثنان، شرطة المسطّحات المائية انتشرت بحثًا عنهما، فعثروا عليها.

أخرج عمار قفازًا من جيبه، وأخرج ما بها، ملاءة مخاطة على شكل جورب تحوي ثلاثة أحذية رجالي قديمة متباينة المقاس، خمسة سكاكين مختلفة عرضًا وطولًا، آثار الدماء مازالت عالقة بها، هاتف ولاب توب محطّمان بصورةٍ هيسترية إلى قطع صغيرة، تصلب جسده أمام الحقيبة ومحتوياتها حتّى يظنّ مَن يراه أنّه تمثال حجري صنع ليرمز للدهشة، قطع وجومه مروان: - سأرسلها للمعمل الجنائي.

نفضَ عمار ذهوله، وزفر شهيقًا محتبسًا:

- وهل تظنّهم سيجدون ما يُدين؟ لن يحدث، أرسلها لنكمل الإجراءات.

- تصويرك للحادث كان بارعًا يا عمار.

خرجتْ من صدره زفرة ساخرة:

- وماذا يفيد التصورُ بغير جانٍ؟ أفلتت تلك البتول بفعلتها كانفلات الثعلب أمام الذئب.

مروان يعرف ما يعتملُ في صدره، وكيف يضيق بنجاتها من توجيه الاتهام: - لا يا عمار لم تخطئ، مَن كان يظن أن تكون فاعلتها واحدة فقط!

أسرع عمار:

- لا يا مروان، مازلت عند رأيي؛ لو كانت بتول فلا بدّ من وجود آخر أو أخرى، بتول عسراء.

- سيأتي التقريرُ الجنائي لمحتويات الحقيبة وأنت في إجازة عرسك.

قالها مروان، ثمّ ظهر على وجهه استفسارٌ أخجل ملامحه فعاد من حيث أتى، إلّا أنّ عمار استحثه لإخراجه: - هل تظنّ أنهن يعرفنَ سرّ الجريمة حتّى ولو لم يشتركن؟

هزّ عمار رأسه نافيًا:

- لا أظن، فاعلتُها بلغت من الحيطة أنّها لم تخبر نفسها بعد فعلتها أنها قتلته، ألقتْ بالحقيبة في النيل ومعها السرّ والذاكرة، لا أعرف في أيّ بوتقة صُهرتْ روحها وتشكّلت لتصنع امرأة من القوة لارتكاب جريمة كتلك ثمّ قوّة الأعصاب للإفلات، ثمّ الحياة بصورة طبيعية، هل تعلم أنها على وشك الإنجاب!

ابتسم مروان، ولمعت عيناه:

- لقد انصهرتْ في بوتقة القهر فذابَ ضعفها وتحوّل إلى شمعة أنارت لها طريقَ الثأر لشرفها.

ارتفعت ضحكة عمار:

- سعيد أنتَ بإفلاتها، أمّا أنا فلا، ولن؛ لأنّي لا أراها مثلك قضية فردية بل أزمةٌ مجتمعية إنْ لم نتداركها سيغرقنا طوفانها، ويحيل الموج بيننا وبين العدالة التي نحن رموزها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كيف للأحزان أن تتبدّل، وللمشاعر أن تتغير من كلمة، بضعة أحرف قد تحوّل الهُيام إلى كراهية، والجمود إلى نهرٍ من الحب! كيف تحرّك السعادة الأرحام فتفيض وتغيض؟!

كانت بتول تُلقي برأسها على صدر زيد تستنشق عبير حرية الروح والقلب وهي تهمس له بتلك الكلمات، مرّر كفّه على شعرها الحريري المنسدل الأسود بليل الغربة الذي أفلتها ليتلقّفها: - هل ظننتِ فيّ غير ما فعلت؟

رفعتْ عيناها المتلألئة بدموع الحب، لن تضعَ لبنة كذب بينهما، لقد هدمت مروءته الجدار الذي لن ترفعه هي مرة أخرى.

- ما لاقيته في حياتي جعلني أفقدُ الثقة حتّى في ذاتي، قلت لي إننا لن نذكر ما كان، لكنْ هل لي أن أحرّر بِضعًا من ألمي على صدرك؟

هزّ رأسه هامسًا:

- لكِ ما تشائين، لكنْ لنجعلها مرّة واحدة ندير بعدَها ظهرينا للماضي ولا نعود إليه ولو بخطوة.

غابتْ بعيدًا كأنّها تقرأ سطورًا نُقِشت في قلبها ستتلو عليها تعويذة فتتبخر بلا عودة..

- بينما عصفت بي الحياةُ على أرض خريف قلوب أهلي، وجدت السماء زرقاء لم تتلبّد بالغيوم بكاءًا علي، الطيور تبحث وتجوب، حتّى نبتاتي الصّغيرة أزهرت، لا أدري كيف أزهرت ولم تحتدّ علي، شعرت أن الدنيا في وادٍ وأنا في واد، فتلوّن كلّ شيء في عيني بلوْن الحداد، دائرة الحب الوحيدة التي أحاطتْ بقلبي هي دائرة صديقاتي المشتركات معي في ذات الألم، كنّا نلتفّ حول عارنا المكمّم صامتين، لكن أرواحنا كانت تقول الكثير، خرزاتنا الزرقاء تتدلّى من جيادنا وبريقها يخطف بصري وقلبي إلى عالم أتمنّى البقاء فيه بدون عودة، اتسعت الدائرة وخطفتني في دوامة شيخوخةِ الرّوح، حتّى جاء خبرُ مقتله فجدّد شباب وقتي.

تأمّلها زيد بعيني حذرة:

- خبر مقتله! ألست قاتلته؟

ألصقتْ رأسها أكثرَ داخل صدره وهي تهمس:

- ماذا تظنّ أنت؟

أسرع بلا تردد:

- أظنّك فاعلتها، صديقاتك جميعهنّ بشهادة الشهود لم يفعلنها، أنتِ الوحيدة التي حامت حولك الغيوم، فأمطرت يقينًا لا إثبات له.

ارتفعت ضحكاتها ولمعَ في عينيها بريق غامض:

- أرأيت كيف كان التّخطيط محكمًا، أشاهدت حيرةَ وكيل النيابة وغيظه وهو يتمنّى القبض على يدي المبلّلة بدماء رضا المفلتة من قضائه؟

انخفضَ صوته واحتلّ نبرته القلق:

- بتول، مهما كان ما حدث لا تتلي اعترافك على آذان أحد حتّى أنا، بعض الأمورِ الأفضل لها أن تبقى حبيسةَ الصدور لأن إفلاتها لا يعني إلّا انطلاقها.

- هل تخاف علي، أم منّي؟

- سأصدقك القول، الاثنان.

لمستْ وجهه الحاني بأصابع كفّها الرقيقة وهي تهمس:

- فلتعلم أنّي لم أقتله، ولم أعرف يومًا أين يقع بيت ذلك الملعون.

احتلّت الدهشة وجهَ زيد، واتّسعت عيناه:

- ماذا؟ لقد رأيتك بعيني وأنتِ تحاولين بشتى الطرق والأقوال التأكيد لوكيل النيابة أنّك الفاعلة بدون اعتراف!

هزّت رأسها مؤكدة:

- نعم، ليضيع حقّه في صيد قاتله، لعبتي كانت في تشتيت عمار للتركيز على القاتل الخطأ فيفلت الجاني، غروره وغيظه من عدم إثبات أدلته تعرّجت به لمدّة طويلة يصعب بعدها العودة لأول الطريق، وأنا كبريئة متّهمة أمتلك قوّةَ محاربته بإيماني أنّني لست الفاعلة ما لن يمتلكه القاتل الحقيقي.

زادتْ دهشة زيد، مسحت عيناه ملامحَ وجهها تبحث عن مقبض يفتح له أبوابَ الصدق: - بتول، ثقي أنّني لن أتغير لو أنّك.....

لم تدعْه يكمل، وضعت أصابعها على فمه:

- زيد، بعد ما كان من المستحيل أنْ أكذب عليك ليس بجملة بل بكلمة، أنا لم أقتل رضا، ولم أشارك في قتله إلّا في خيالي وأحلامي.

زاغت نظراتُ زيد ورفع حاجبيه متعجبًا:

- إنْ لم تكن الفاعلة مِن بينكن، فمن تكون؟

- فكّرت طويلًا في ذلك، ولهذا فعلت ما فعلت، إن كانت من بيننا فقد حميتُها، وإن لم تكن فقدْ ضيّعت حقه، وهذا أقلّ ما يمكن ردّه لجثمانه العفن وروحه الدنيئة.

ابتسمَ لها وهو يختطفها إلى صدرِه مرّة أخرى، يعرف الآن من أين استلهم روحَ القوة، لقد منحته روحها في سنوات ما أثمره قلبه لتقطفه، لقد تخطى مُهرَ حبّهما الحواجز، وأعلن نهايةَ السباق بلا اصطدام أو سقوط .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أريج تقف في مطبخ بيتها تُعدّ شاي العصاري ليحتسياه في الشرفة كما اعتادَا، اختطفتها الذكريات وهمومُ الرحيل، التفّت يدَا عمار حولها وعبثت نبرتُه بأذنيها فابتسمت: - فيمَ الشرود كاتبتي الجميلة؟ فلتصدقيني القول.

لفّها بكفيه لتتقابل العيون:

- سبعة عشر عامًا عجافًا، لم تُمطر أرضنا ولم تُسْقَ أرواحُنا؛ فحسبناها تصحّرت، وخلت من الحياة.

رمقها بحبّ وهو يعبث بخصلات شعرها:

- لكنّ جذوركنّ كانت أقوى من كلّ المجريات، اختبأت وتشبثت وها هي تتأهّب لتخرج براعمها الخضراء، بتول ستضع أولاها، وما علينا إلّا اللحاق بها.

لمعتْ عينَا أريج، ثمّ أغمضتهما وهي تتنفس بهدوء:

- ما كان ليحدث يا عمار لوْلا هزّة أرضية أطاحت بوحش الصحراء المدفون في رمال خوفنا.

ألقتْ رأسها على كتفه فانتبه لخدر مشاعرها، للحظة داعبته أفكاره في استغلالها، لكنّه تراجع سريعًا، لا هو فاعلها، ولا هي مَن يليق بها، انتبهت لشروده: - فيمَ الانشغال؟

- لا أعتقد أنّه أمر يليق ذكرُه في أيام زفافنا الأولى.

علتْ ضحكتها وهي تقلّد نبرة صوته العميقة، بينما شرعت في سكب الشّاي في الأكواب، حملته وهي تتقدمه للشرفة: - أيام زفافنا الأولى! مرّ أسبوعٌ وها أنت تتهيّأ للعودة، آاه وتذكر أن اليوم موعدُ رحيل «ورد»، سنلتقي جميعًا بالمطار الخامسة فجرًا، أعلم أن الموعدَ متأخّر لكنك تعي أهمية وداعها بالنسبة لي.

هزّ رأسه مطمئنًا:

- لا عليكِ، سأوصلك للبيت، ثمّ أتوجه للعمل بعدها مباشرة.

- لم تفصحْ عن سبب انشغالك سيدي المحقق؟

ابتعدَ عمار بعينيه، أطال التفكير ثمّ على غفلة منها قال:

- وجدْنا حقيبة قاتلة رضا في قاع النيل.

بُهتتْ أريج وانقبضَ صدرها، وعبست ملامحها، هل يُعقل أن تدخل بتول مرّة أخرى مجالَ التهديد بعدما تذوّقت حلاوة الأيام! هل يمكن أن تُعيد لها الحياةُ جرعات المرار!

- لن يحقّ لي سؤالك عن أيّ تفاصيل، لكن هل هناك ما يُزعج؟

امتعضَ عمار وهزّ رأسه:

- لا أظن، التقريرُ سيكون على مكتبي غدًا وأنا على ثقةٍ أنّه سيكون خاليًا كسابقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما ارتفعت نسائمُ الفجر وأذانه، كانت القلوب والأجساد تحتضن «ورد» شوقًا، هل يُعقل أن تأفُل بعد ظهور! تقف بينهن دامعة العين بينما لم يضنّ أحدٌ من الرجال ممّن عرفوا معدن أبيها الأصيل من المجيء، عمّ بتول وزوجها، د. خالد يقف على مقربة من «ورد»، وعيناه تتوسّل لها بالبقاء، عمار ونظراته التي تنتقل بينهنّ تبحث عن كلمة سرّ المغارة التي لم يستطعْ تحريك صخرتها، مهْما قيل في تلك اللحظات من معاني حبّ وشوقٍ لن يطفئ جمرَ الغياب، يظنّه البعض خفت فإذا به بعد الرحيل يشتد اشتعالًا، ارتفع صوتُ أنين أريج ونشيجها، بينما عمار بجانبها يشقّ الطريق مسرعًا، الهواء يتلاعبُ بخصلات شعرها والدموع تترقرق على وجنتيها، ربّت على كتفها: - مَن يراكِ يحسبك تودّعين أختًا من لحمك ودمك!

التفتتْ إليه يعتصر فؤادَها الحنين، ومازالت «ورد» لم ترتفع بطائرتها في السماء: - ما بيننا أقوى من اللحم والدم.

فتحتْ كفّها على آخره لتتفرق أصابعها ثمّ أكملت:

- هل يمكن أن تنفصل أصابعُ الكفّ مهما شددتها، خمستنا كفٌّ واحدة اقتطع اليوم منها أصبعٌ غالٍ.

رمقَها بعينين ملؤهما العجب:

- لِمَ «ورد» بالذات؟

استسلمت للألم، فخرج صوتها واهنًا:

- أشجعنا، سجّلت اعترافًا لم تستطعه إحدانا، قويّة ما استسلمت وما خارت بالرّغم من خذلان حبيبها، عزيزة النفس ما باعت قلبها لمجرد فكرة الارتباط بمن قَبِل بنقصها، نابضة بالرغم من موتها منذ سبعة عشر عامًا يوم الأحد ١٦ أبريل بحجرة الألعاب الرياضية.

استدارَ عمار نحوها، والوجوم يطيح بملامحه وهو يرجّ رأسه بشدة، الزرقة عبثت بشفاهه والجفاف شقق جوفه، استدارت عيناه وهو يتأملها بنظرةٍ مُرعبة كأنّه اكتشف أنّ مَن يجلس بجانبه أحدُ الكواسر وليست زوجته، حرّكت كفّيها بتعجب ودهشة: - ما الأمر؟ ما الذي ألَم بك؟

عادَ برأسه ينظر للطريق وهو يشدّ شهيقًا حسبته من قوته سيمزّق صدره وهو يهمس: - لا شيء.

ترجّلت أريج من سيارته، والتساؤلات تنهش رأسها، ما الذي حدث ليجعله كمَن لدغه ثعبان، بينما هو يصارع الطريق والإشارات ليصل أخيرًا أمام نيابةِ جنوب الجيزة، كان عمار يهرولُ بين الطرقات كمن يلاحق شبحًا، اندفعَ بجسده على مقعده في نفس الوقت الذي كانت يده تطلب ملفي قضية رضا الشالي مغتصبًا ومقتولًا، الأوراق أمامه تشير إلى ما غفل عنه الجميع، اغتصبت «ورد» يوم الأحد ١٦ أبريل عام ٢٠٠٠، وقتل رضا في ذات اليوم الأحد ١٦ أبريل، لكنْ عام ٢٠١٧ ، لم تكن إلّا هي منذ اللحظة الأولى، كيف غفلَ عنها؟ كيف شتّتته بتول فغرق في بحيرتها لتصعد «ورد» على جذعها؟ ظلّ يضرب جبهته حتّى أرهقته الضرباتُ بصداع لن ينقشع مهما طال الوقت.

بينما كانت «ورد» تجلس هادئة بجانب والدها تُلقي برأسها على كتفه، وعيناها تائهة في السحاب الأبيض، لقد اغتسلت روحُها وصارت مثله يوم أن تمكّنت من إحكام قبضتها على جسد رضا، عادت ذاكرتها لسنوات طوال لم تكفّ فيها عن تدبير خطتها منذ أن وطأت قدمها الكلية وهي ترقبُه، تحصي حركاتِه وأنفاسه، كانت ظلّه الذي لا يغيب إلّا عند غياب الشّمس وعودة الطيور لأعشاشها، تعود ثمّ لا تلبث في الظهور، وبالرغم من العروض القوية التي قُدّمت لها إلّا أنها اختارت مكتب د. سامي رياض خصيصًا حتّى تكون بمفردها يومَ الأحد بالمكتب، شهران كاملان منذ أن بدأتْ في مراسلة رضا بصفحةٍ وهمية وعمّ محروس لا يدري أنها تضع له منوّمًا خفيفًا في الشاي الذي كان يسعد بتقديمها له كلّ أحد من الرابعة عصرًا ليعتادَ النوم تلك الفترة، ولا يصبح أمرًا مستغربًا عليه، اشمأزت وانتفضَ جسدها وهي تتذكّر نبرة صوت رضا بالكلمات الوضيعة، لهفته عليها بصورٍ وهمية لفتاة لم تتجاوز السادسة عشر،

لكنها عرفت كيف تصطادُه وتُحكم شبكتها حوله، حتّى جاء الموعدُ الذي انتظرته سبعة عشر عامًا، وفي ذات اليوم الذي أزهقَ فيه روحها لتغرقه في دمائه النجسة، دسّت لعمّ محروس المنوّم بجرعة مضاعفة ثمّ ارتدت النقاب الكامل، تركتْ سيارتها أمام المكتب حتّى لا يلتفت أحدٌ لغيابها وبدلت في الطريق سيارتي أجرة، تتذكّر صوت صرير بابه يُفتح ليستقبلها وهي بكامل نقابها كما أفهمته حتّى لا يعرفها أحد، أعمتْه لهفته أنها خلعت حذاءها عند باب شقّته في الرابعة والربع، حيث أغلق عمّ خليل دكّانه ووضعته في حقيبتها ولم تبقِ في قدميها إلّا جوربًا سميكًا لن يترك أثرًا، أو عله اشتدت سعادته لقصرها فهذا لا يعني إلّا صغر سنّها كما يهوى، تذكرت المائدة التي أعدها على روحه وهي تتهيّأ بالشموع والورود وفاخر الطعام، رفعت كفّها المكسوّ بقفاز غارق بمخدّر سائل شيطاني في دلال ليُقبلها، وما أن الصقته بأنفه إلّا وبدأ الخدرُ يغزوه بعدَ دقائق من رجوعها للخلف، ترقبه كما يرقب الجزّار الذبيحة، لتخرج هي سكاكينَها المختلفة، لكلّ واحدة منهن سكينًا، ثمّ همستْ له بسعادة: - اخرجْ إليهنّ.

طعنتُها الأولى كانت برقبته، وصوتُها كفحيح الأفعى:

- تلك من أجل زينب التي دببت أنيابك في رقبتها كمصاص دماء ولم تنزعهم إلّا بجنونها.

ابتعدتْ وهو يدور كالثور، مشهدُ الدماء لأول وهلة أزعجها لكنها تذكرت ما سالَ منهنّ، فقويت روحُها، وما أن هدأت حركتُه قليلًا إلّا وعاجلته بالثانية: - وتلك اليسرى من أجل بتول؛ فهي عسراء.

بدأ في الترنّح وقد جحظت عيناه غير مصدّق ما يحدث، هل جاء أجله على يدِ امرأة، ومَن طفلة اغتصبَها وصديقاتها! بينما هي كانت تنتشي أكثر كمَن يعزف سيمفونية استغرقَ كتابة لحنها سبعة عشر عامًا، وها هي تستعد لتذاعَ على الهواء مباشرة لتحظى بالتّصفيق الحار، أخرجت السكين الثالث لتطعنه في بطنه وهي تدندن: - وتلك من أجل تسنيم.

أسرعتْ بالرابعة بحقد، وهي ترتفع لأعلى مرة أخرى:

- وتلك من أجل أريج.

روحُه الآثمة تأبى فِراق جسده كالشيطان المُنظر لقيام الساعة، يترنح ويترنّح فأخرجت الخامسةَ وبكامل ما استجمعته من غيظٍ وشماتة وقوة طعنتْه الأخيرة في قلبه وهي تتمتم: - وهذه من أجلي.

سقطَ أخيرًا كما سقطنَ مدرجًا بدمائه، وعلى وجهها القناع الأسود كما فعلَها، يا له من مشهد تتمنّى أن تجلس أمامه ليوم قيامتها، تراه وهو يتعفن كما

تعفّنت أحلامهن في برْكة البشر الراكدة، لكنه لا يستحق يوم عقاب، أسرعتْ إلى المكان المتّفق عليه بينها وبين حسني أسفل السرير لتخرج الثلاثة أحذية التي أعطتْه إيّاهم محمّلة بطين وتراب الشارع وملاءة قديمة مُخاطة على شكل جورب عندما التقته أمامَ النادي يوم الخميس، لتضع بصماتها من بابِ الشقة وإليه، خلعت حزام بنطالها الطويل ثمّ رتبت الأحذية داخلَ الملاءة الجورب، ولم تنس اللاب توب والهاتف، لفت نفسها بالملاءة وشدّت عليها الحزام بقوة، أرختْ فوق كلّ هذا عباءة فضفاضة أخرجتْها من حقيبتها فظهرت بدانتُها التي شهدت بها المنتقبتان اللاتي لم تتوقّع ظهورهما، وكأنّ السماء تُعينها فأرسلت لها شاهدتين إضافيتين بجانبِ عمّ خليل الذي انتظرته حتّى فتح دكّانه ليشهد بتفاصيلها، ارتدت حذاءها ولحِقت بهما، ثمّ تبخّرت من جانبهما، وكما جاءت في سيارتي أجرة عادت، لم تهدأ أنفاسها إلّا عندما دخلتْ سيارتها ووضعت الملاءة بكلّ ما تحمله بحقيبة، تذكّرت خوفها ورعشتها وهي تدخل من باب المكتب مُرتدية الثوب الفضفاضَ خشية استيقاظ عمّ محروس، لكنها وجدته على الحالِ الذي تركتْه عليه يغطّ في نومٍ عميق، التقطت أول أنفاسها منذ ساعاتٍ أمام مرآة الحمّام وهي تخلع الثياب السوداء، كان عمّ محروس قد بدأ في الاستيقاظ وهي تجلسُ آمنة على مكتبها أمام شاشتها تحتسي كوبًا من الشاي، لم تصبْها لوثة وهيستريةِ القتل إلّا عندما توقفت في مكان خالٍ على جانب صحراء أكتوبر ترتدي قفّازين، تضرب بمطرقة على الحقيبة بقسوةٍ وغيظ لتُحطم الهاتفَ واللاب توب، وبجانب كوبري ٦ أكتوبر فوق النيل توقّفت هنيهة، وقفتْ بهدوء حتّى حانت لحظة لا يراها فيها أحد وتخلّصت من حقيبتها، كان أصعب ما في خطتها إقناع حسني، لولاه ما اكتملَ الأمر، لكنها قصّت له ما حدث معهن، لن تنسى رقة قلبه وهو يخبرُها باشمئزازه منه، وأنّه سيساعدها من أجل أن يحفظ الله عليه عرض بناته من أمثاله.

وبينما كان حسني يجوب شوارعَ إمبابة بالتوكتوك الذي لم يرض أن يأخذ منها إلّا مقدّمة شرائه، والباقي سيسدّده أقساطًا من شقائه تحت حماية الرجل الذي التقاه في الحبس، كانت «ورد» تضع هي وأبوها أولى خطواتهما بعيدًا حيث ستستنشق «أريج» الحياةَ بالعودة لـ «بتول» روحها، فتغرز في أرضها الجديدة أشدّ شجرة «زينب»، وترتوي من عين الـ «تسنيم».. بعيدًا عن شبح الماضي.

عفاف سعيد

٢٩/٣/٢٠٢٠

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهداء..

ضرْبةٌ مُفاجئة

ذهول

ضبطٌ وإحْضار

رمادُ فتاة

كواسرُ الذّكريات

ارتباك

كشفُ المستور

فراقٌ مؤجّل

رائحةُ النّصر

معوَلُ الحبّ